# مختارات من القصص الإنجليزي

**دار دريم بن للطباعة والنشر**

**العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨، مدخل ١**

**هاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦ (٠٠٢٠)**

**بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com**

---

**مختارات من القصص الإنجليزي**

---

**مجموعة مؤلفون**

**الطبعة الأولى، القاهرة 2020م**

**غلاف: إسلام أحمد**

**تنسيق وإخراج داخلي: مهند يحيى**

**رقم الإيداع: 4475 / 2020**

**I.S.B.N \ 978-977-6794-19-1**

---

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

---

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

# مختارات من القصص الإنجليزي


## تأليف

تشارلز ديكنز وآخرين

## ترجمة

إبراهيم المازني

# تقديم

## بقلم إبراهيم عبد القادر المازني

اختيرت هذه الأقاصيص لطائفة من كتاب القرن الماضي في إنجلترا وأمريكا، وإن كان بعضهم قد امتد به العمر إلى أوائل القرن العشرين. وروعي في الاختيار إبراز أسلوب الكاتب وخصائصه الفنية لا تسلية القارئ، والمراد هو التعريف بالكاتب بهذه الواسطة والإشارة إلى فنه لمن يعنيه التوسع في الدرس، ولم نر أن نترجم لأحد أو نزيد على إثبات سنتي الميلاد والوفاة لأن كل ترجمة في مجموعة كهذه لا تكون إلا موجزة جدًّا ولا خير في مثل ذلك ولا جدوى.

وقد توخينا في الترجمة مثل ما روعي في الاختيار، أي إبراز أسلوب الكاتب لا أسلوب المترجم. ولم يكن هذا سهلًا

ولا كان مطلبه هينًا لشدة التفاوت، ولكنا تكلفناه وعسى أن نكون وفقنا فيه. وقد حرصنا على التزام الأصل حتى ليمكن أن نقول إن الترجمة حرفية على قدر ما يتيسر ذلك في النقل من لغة إلى أخرى بينهما من الاختلاف ما بين العربية والإنجليزية، ولم نحذف من الأصل في هذه المجموعة كلها إلا بضعة سطور لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين، وكانت علة الحذف العجز التام عن الاهتداء إلى ما يؤدي معناها — مع شدة تفهمها — في لغتنا العربية وليس هذا نقصًا في اللغة العربية ولكنه نقص في المترجم.

وقد استعملت ألفاظًا شائعة في عاميتنا، وكان الظن أنها غير صحيحة، ولكني وجدتها مثبتة في كتب اللغة ومستعملة في كتب الأدب، فلم أر مسوغًا لهجر هذا الصحيح المأنوس إلى الحوشي أو غير المألوف أو النابي. وما دامت اللفظة قد استطاعت أن تحيا على ألسنة الناس فإنها أحق بالاستعمال من أخرى عجزت عن الحياة فدفنت في المعجمات. وفي اللغة — كما في الأحياء — يبقى الأصلح لا الذي يظنه المتحذلقون الأفصح، وليس المعول في الفصاحة على القدم بل على الوفاء بحاجة التعبير بالقوة المطلوبة أو الجمال المنشود، وسهولة التلقف للمعنى وسرعة التأثر به. وليس هذا تعريفًا للفصاحة، وإنما هو إجمال للمطلوب بها.

وقد نبهت على بعض هذه الألفاظ في الهوامش وأهملت التنبيه في الأغلب اكتفاء باليسير من ذلك، وأقول على الجملة إني ما استعملت لفظًا غير صحيح، وإن كان محسوبًا من العامية إلا لفظة أو اثنتين أجنبيتين شائعتين على الألسنة، لم أجد لهما مقابلًا، أو استثقلت مقابلهما، فوضعتهما بين علامات التضمين أو الاقتباس.

وأقول أخيرًا إن ما اختير في هذه المجموعة ليس خير ما في الأدب الإنجليزي من نوعه ولكنه من خيره، وعيب كل اختيار هو الاضطرار إلى ترك الأكثر والاجتزاء بالأقل. وكثيرًا ما تؤدي الحيرة إلى سوء الاختيار، ولكن القارئ يستطيع أن يكون على يقين أن ما يقرؤه هنا هو — في الأصل إذا لم يكن في الترجمة — من الجيد على كل حال وبشهادة الزمن.

وأحب أن أشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر على ما يسرت وأعانت وصبرت.

# ناثانييل هورثون

## دفن روجر مالفن

«من الحوادث القليلة التي وقعت في الحرب مع الهنود الحمر، والتي تحتمل بطبيعتها أن تكون موضوعًا للقصص الرومانتيكي، تلك الحملة التي قامت بالدفاع عن الحدود في سنة ١٧٢٥ وانتهت (بمعركة لافيل) المذكورة. وقد يستطيع الخيال — بترك بعض الظروف وإسقاطها — أن يرى كثيرًا مما يستحق الإعجاب في بطولة عصبة قليلة قاتلت ضعفي عددها من العدو في قلب بلاده. وقد كانت البسالة الصريحة التي أبداها الفريقان مطابقة لآراء الحضر في معنى الشجاعة ومقتضياتها، ولم تعدم الفروسية ما لا تخجل أن تسجله من أعمال واحد أو اثنين من المقاتلة. ولم تكن المعركة — على هول عنفها بالذين خاضوا غمارها — مشئومة النتائج

للبلاد، فقد ألوت بقوة قبيلة وأفضت إلى السلم فاستقرت سنوات عدة. وقد عني التاريخ والراوية الشعبية — على خلاف العادة — بتفاصيل هذه الواقعة. ونال قائد نفيضة من رجال الحدود من الشهرة الحربية مثل ما يغنمه قائد الجيش المظفر. وفي بعض ما أنا مورده في الصفحات التالية ما سيفطن إليه — على الرغم من الاعتياض من الأسماء الحقيقية أخرى مخترعة — مَن سمعوا من أفواه الشيوخ بمصير القليلين الذين استطاعوا أن يرجعوا بعد معركة لافيل.»

خفقت أشعة الشمس الطالعة في طلاقة وبهجة على رءوس الأشجار التي رقد تحتها من الليلة البارحة جريحان مكدودان، وكان فراشهما ورق البلوط الذاوي اليبيس المنتشر في مستوى ضيق من الأرض، في ظل صخرة قريبة من ضَهْرِ نجوة من تلك النجاء التي تختلف بها وجوه الأرض هناك. وكانت كتلة الصخر التي يذهب سطحها الأملس المستوي في الهواء مقدار خمس عشرة قدمًا أو عشرين، فوق رأسيهما، كأنها حجر قبر ضخم، وكأن عروقها الجارية كتابةٌ بحروف مجهولة. وكان البلوط وما إليه من الشجر العظيم يحيط بالصخرة في رقعة فسيحة، بدلًا من الصنوبر وهو الغرس المألوف في هذه المنطقة. وكان هناك عودٌ أخضر قوي على مقربة من الرجلين.

وكان الجرح البليغ الذي أصاب أكبر الرفيقين قد حرمه من النوم على الأرجح، فلما كاد أول شعاع من الشمس يلمس أعلى شجرة، حتى جهد أن يغير رقدته، ثم اعتدل قاعدًا. وكانت غضون وجهه العميقة وما شاع من الشيب في رأسه، تدل على أنه جاوز خير شطري العمر. غير أن متانة أسره كانت خليقة — لولا ما كلفه جرحه — أن تعينه على احتمال التعب كما يحتمله الشاب في عنفوانه. وكان الفتور والإعياء مرتسمين على محياه المتهضم. وكانت نظرة اليأس التي يمد بها بصره في جوف الغابة تنبئ باقتناعه أن رحلته قد شارفت ختامها. ثم أدار عينه إلى رفيقه الراقد إلى جانبه. وكان هذا الشاب — فلما بلغ مبالغ الرجال بعد — نائمًا ورأسه على ذراعه، وكان نومه مضطربًا، وكان يخيل إلى الناظر إليه أن ضَرَبَانَ الوجع من جرحه، سيوقظه في كل لحظة من نومه. وكانت يده قابضة على بندقية. وكان الاضطراب العنيف الذي ترتسم مظاهره على معارف وجهه يوقع في الروع أنه يرى في منامه صورة من القتال الذي كان أحد القليلين الذين نجوا منه. وكأنما أطلق في منامه الذي يتراءى له صيحة عميقة عالية، فاختلجت شفتاه بهمسة خافتة. وعلى أن هذا الصوت الخفيض الذي انبعث منه كان كافيًا لإزعاجه من رقاده فاستيقظ فجأة، وكان أول ما فعل بعد أن عاد إليه الوعي، وتنبهت الذاكرة، أن أقبل على صاحبه الجريح يسأله عن حاله بلهفة، فهز رفيقه رأسه وقال: «روبن — يا بني — إن هذه الصخرة التي تقعد تحتها

حسبُ ذلك الصائد الكهل والمقاتل القديم صُوَى لقبره. فما تزال أمامنا أميال عدة، دونها أميال طويلة، من المفاوز التي تنوح فيها الرياح وتعوي، ولن يجديني حتى أن تكون مدخنة بيتي على الجانب الآخر من هذه الهضبة، لقد كانت رصاصة الهندي أفتك مما ظننت.»

فقال الشاب: «إنما أتعبتك مسيرة الأيام الثلاثة. وأخلق بالراحة أن تعيد إليك نفسك وتنعشك، فابق هنا ريثما أجوب هذه الغابة التماسًا للأعشاب والجذور لطعامنا، ثم بعد أن تأكل تتكئ علي ونولي وجهنا شطر البيت، فما أشك في أنك بمعونتي تستطيع أن تصل إلى بعض حاميات الحدود.»

فقال الآخر بهدوء: «ليس فيّ دماءٌ يكفي يومين يا روبن، ولن أحملك عبء جسمي الذي لا خير فيه، وأنت لا تكاد تقوى على حمل نفسك. إن جراحك عميقة وقوتك تنضب بسرعة، ولكنك قد تنجو إذا عجلت بالذهاب، أما أنا فلا أمل لي وسأنتظر الموت هنا.»

فقال روبن بلهجة المصمم: «إذا كان لا بد من هذا فسأبقى وأعنى بك.»

فقال رفيقه: «كلا يا بني، كلا، اجعل لرغبة رجل يجود بأنفاسه وزنًا عندك. هات يدك ثم اذهب، وهل تظن أن لحظاتي الأخيرة يخففها علمي أني أتركك للموت البطيء؟ لقد أحببتك كحب الأب يا روبن، وفي مثل هذه الساعة ينبغي أن يكون لي بعض حق الأب وسلطانه، فأنا أدعوك أن تذهب، حتى أقضي نحبي بسلام.»

فقال الشاب: «ومن أجل أنك كنت أبًا لي أينبغي لي أن أتركك تموت وتبقى بلا دفن في هذه الفلاة؟ كلا، إذا كان أجلك قد دنا حقًّا فسأبقى بجانبك، وأتلقى آخر كلماتك، وسأحفر هنا قبرًا بجوار الصخرة، فإذا خذلتني قوتي رقدنا فيه معًا، أما إذا وهبني الله القوة فسآخذ طريقي إلى البلدة.»

فقال الآخر: «إنهم في المدن وفي حيث تسكن الجماعات من الناس يدفنون الموتى في جوف الأرض، ويحجبونهم عن عيون الأحياء، ولكن هنا — حيث يتفق أن تمضي مائة سنة ولا تدب قدم — لماذا لا أرقد تحت السماء لا تغطيني إلا أوراق البلوط، حيث تنثرها رياح الخريف؟ وإذا كان لا بد مما يذكّر بي ويدل على مكاني، فها هنا هذه الصخرة وسأحفر عليها بيدي الضعيفتين اسم «روجر مالفن»، فإذا اجتاز هذه الناحية أحد عرف أن ها هنا يرقد صائد مقاتل، فلا تتلكأ إذن من أجل سخافة كهذه، بل أسرع إن لم يكن من أجلك فمن أجل تلك التي لن تجد مؤاسيًا بغير ذلك.»

وكان مالفن ينطق بالكلمات الأخيرة بصوت مضطرب، وكان وقعها في نفس صاحبه واضحًا جدًّا، فأذكرته أن هناك واجبات أخرى أصرح من مشاطرة صاحبه مآله، وأن موته معه لن ينفعه. وليس في الوسع أن يقال إن قلب روبن خلا من كل شعور أناني، وإن كان إدراكه لاضطراب نفسه بهذا الشعور، قد حمله على التشدد في مقاومة الرجاء الذي ألح به عليه زميله.

وقال روبن: «ما أهول أن يقعد المرء منتظرًا دلوف الموت إليه في هذه الوحدة! ... إن الرجل المقدام لا يتهيب الموت في إبان المعركة، وحتى المرأة قد تتلقى الموت وهي ساكنة النفس إذا حف بسريرها الأوداء. ولكن هنا ...»

فقاطعه مالفن قائلًا: «لن أَفرق من الموت حتى هنا يا روبن بورن. وإني لرجل غير منخوب القلب، ولو أنني كنت ذاك لكان لي عون أوثق من عون الإخوان. وأنت شاب والحياة حبيبة إليك وعزيزة عليك، وأنت في ساعاتك الأخيرة أحوج إلى المواساة مني. واعلم أنك بعد أن تدفنني في جوف الثرى وتمسي مستفردًا وَحيدًا، ويلف الليل هذه الغابة في شملته، ستشعر حينئذ بكل مرارة الموت التي تغيب عنك الآن. على أني لن أحض نفسك الكريمة بدوافع من الأثرة. فاتركني من أجلي أنا ليتسنى لي بعد أن أدعو

الله لـك بالسـلامة، أن أتوجـه إليـه بقلبـي مسـتغفرًا مـن غـير أن تزعجنـي همـوم الدنيـا وأحزانهـا.»

فصـاح روبـن: «وابنتـك؟ كيـف أجـرؤ أن أنظـر إليها؟ ستسـألني عـن مصـير أبيهـا الـذي أقسـمتُ أن أبـذل حيـاتي دونـه. فهـل أقـول لهـا إنـه سـار معـي ثلاثـة أيـام مـن ميـدان القتـال وإني بعـد ذلـك تركتـه يمـوت في الفـلاة؟ أليـس خـيرًا أن أرقـد وأمـوت إلى جانبـك مـن أن أعـود سـالمًا وأقـول هـذا لـدوركاس؟»

فقـال روجـر مالفــن: «قـل لابنتـي إنـك عـلى الرغـم مــن جراحـك البليغـة وضعفـك وتعبـك قـدت خطـاي المتعثـرة عـدة أميـال وإنـك مـا تركتنـي إلا إجابـة لرغبتـي الملحـة لأني لم أرد أن أحمـل تبعـة موتـك. قـل لهـا إنـك عـلى الرغـم مـن الألم والخطـر كنـت وفيًّـا. وأنـه لـو كان دم قلبـك يسـتطيع أن ينقـذني لأريـق في سـبيلي إلى آخـر قطـرة، وقـل لهـا إنـك سـتكون أحنـى عليهـا مـن أبيهـا، وإني أدعـو لكـما جميعًـا، وإن عينـي اللتـين يوشـك أن يطبقهـما المـوت تسـتطيعان أن تريـا طريقًـا طويـلًا تسـلكانه معًـا وتحمـدان السـير فيـه.»

وكان مالفـن وهـو يتكلـم قـد كاد يرفـع نفسـه عـن الأرض، وكأنـما بعثـت القـوة التـي نطـق بهـا العبـارة الأخـيرةَ صـورةً مـن صـور السـعادة في هـذه الغابـة الموحشـة، ولكنـه تحلّـل

بـه الإعيـاء فهـوى عـلى فـراش الـورق فانطفـأ النـور الـذي التمعـت بـه عينـا روبـن وأحـس كأن مـن الإثـم والجنـون أن يفكـر في السـعادة في مثـل هـذه اللحظـة. وكان صاحبـه يلاحـظ مـا يتعاقـب عـلى محيـاه مـن المشـاعر المختلفـة، فـأراد أن يحملـه بالحيلـة الكريمـة عـلى مـا فيـه خـيره، ومـضى في كلامـه فقـال: «عسـى أن أكـون واهمًـا في أجَـلي، ولعـلي إذا أُسْـعِفْت بالمعونـة أبـرأ مـن جراحـي، ولا بـد أن يكـون أسبق اللاجئـين قـد حملـوا قبـل الآن أنبـاء ملحمتنـا الوبيلـة إلى الحـدود، وأحسـب أن جماعـات قـد خرجـت لنجـدة أمثالنـا، فـإذا لقيـت جماعـة منهـم وعـدت بهـا إلى هنـا فمـن يـدري؟ لعلـه يقسـم لي أن أجلـس مـرة أخـرى إلى جانـب موقـدي.»

وطافـت ابتسـامة حزينـة بمحيـا هـذا الرجـل الـذي يجـود بنفسـه وهـو يوحـي إلى صاحبـه بالأمـل الـذي لا مطمـع فيـه، وإن كان قـد تـرك أثـره في نفـس روبـن. ومـا كان أي باعـث مـن الأثـرة، ولا حتـى أسـى دوركاس وولهـا ليغريـه بهجـر رفيقـه في سـاعة كهـذه، ولكـن هـوى قلبـه تعلـق بالأمـل في إمـكان إنقـاذ مالفـن، وأمدتـه طبيعتـه المسـتبشرة بـما رفـع إلى مرتبـة اليقـين ذلـك الأمل البعيـد، البعيـد، في الحصـول عـلى معونـة إنسـانية.

وقـال كأنـما يحـدث نفسـه: «إن هنـاك عـلى التحقيـق دواعـي — دواعـي قويـة — تبعـث عـلى الأمـل في أن يكـون بعـض الإخـوان

غـير بعيديـن منـا. لقـد فـر جبـان — خـرج بـلا جـرح — في أول القتـال، والأرجـح جـدًّا أن يكـون قـد أسرع حتـى بلـغ مأمنًـا، ولا شـك أن كل ذي نجـدة حقيـق بـأن يحمـل بندقيتـه حـين يسـمع أنبـاء الوقعـة، وقـد لا تتوغـل الجماعـات في تطوافهـا إلى هـذا المـكان مـن الغابـة، ولكنـي قـد ألتقـي ببعضهـا بعـد مسـيرة يـوم واحـد.»

والتفـت إلى مالفـن وقـد خامـره الشـك في حقيقـة بواعثـه فقـال: «أشر عـلي بإخـلاص. لـو كنـت أنـا في مكانـك أكنـت تتركنـي وبي ذمـاء (بقيـة الـروح)؟»

فقـال روجـر مالفـن وهـو يتنهـد، ومـا خفـي عليـه التفـاوت الشـديد بـين الحالتـين: «لقـد مضـت عـشرون سـنة مـذ فـررت مـع صديـق عزيـز عـليّ مـن أسر الهنـود قـرب مونتريـل، فسـلخنا عـدة أيـام ونحـن نجتـاز الغابـة حتـى تكـسر صاحبـي مـن الجـوع والجهـد، فرقـد وناشـدني أن أتركـه فقـد كان يعلـم أن بقائـي معـه يلحقنـي بـه، فجمعـت كومًـا مـن الأوراق الجافـة وجعلـت منهـا وسـادة لرأسـه، ومضيـت في سـبيلي وأنـا ضئيـل الأمـل في الحصـول عـلى نجـدة.»

فسأله روبن: «وهل عدت إليه وأدركته؟»

وانتظر رده كأنه نبوءة تبشره بالتوفيق.

فقال مالفن: «نعم. وقعت على خيام لجماعة خرجت للصيد قبل الغروب في اليوم نفسه، فمضيت بهم إلى حيث كان صاحبي راقدًا ينتظر الموت، وهو الآن رجل صحيح معافى يعمل في حقله بعيدًا من الحدود، وأنا هنا جريح طريح في قلب هذه الغابة.»

وقد لقيت هذه الرواية، التي كانت عظيمة الأثر في توجيه عزم روبن، عونًا خفيًّا من بواعث أخرى مكنونة القوة، ولم تفت عين روجر مالفن أن الفوز كاد يكتب له فقال: «والآن اذهب يا بني وليكن الله في عونك، ولا تعد مع أصدقائك حين تلقاهم لئلا تطيح بك جراحك وتعبك، ولكن وَجِّه إليّ اثنين أو ثلاثة يكونون في فسحة من الوقت والعمل ليبحثوا عني. وصدقني يا روبن حين أقول لك إن كل خطوة تخطوها إلى بيتك تخفف عني ما أجد وتريح قلبي.»

على أن وجهه حال، وصوته تغير، وهو يقول ذلك، ولا عجب، فإنه مصير مرعب أن يُترك ليموت في هذه الغابة الموحشة.

ونهض روبن بورن أخيرًا عن الأرض ووساوس الشك تساوره في صواب ما هو صانع، واستعد للرحيل. وجمع أولًا — على خلاف رغبة مالفن — ذخرًا من الجذور

والأعشاب التي اتخذا منها طعامهما في اليومين الماضيين، ووضع هذه المئونة العقيمة في متناول صاحبه، وجمع له كذلك كومًا جديدًا من أوراق الشجر لفراشه، ثم صعد إلى قمة الصخرة — وكان أحد جانبيها خشنًا وعرًا — وثنى إليه العود الأخضر وربط منديله بأعلى أغصانه، وكان هذا الاحتياط ضروريًّا ليهتدي بالمنديل من عسى أن يجيء باحثًا عن مالفن، إذ كانت الصخرة ما عدا جانبها العريض الأملس يحجبها النبت الكثيف على وجه الأرض. وكان روبن يتخذ من هذا المنديل ضمادًا لجرح في ذراعه. وأقسم بالدم الذي عليه وهو يشده إلى الغصن أن يعود لينقذ حياة صاحبه، أو ليواري جثته في قبر. ثم انحدر ووقف مطرقًا ليتلقى من روجر مالفن آخر كلماته.

وكانت لتجربة مالفن الفضل في كثير من النصح الدقيق لرفيقه الشاب في اجتيازه هذه الغابة المُضِلَّة. وكان وهو يتكلم في هذا هادئًا جادًّا؛ كأنما هو يوجه روبن إلى القتال أو الصيد على حين يقعد هو آمنًا في بيته، وكأنما هذا الوجه الإنساني الذي سيتركه ويغيب عنه ليس آخر وجه ستقع عليه عينه، ولكن هذا الثبات تزعزع قبل أن يختم حديثه: «بلغ دوركاس تحيتي ودعائي، وقل لها إن آخر دعواتي كانت لها ولك، ومرها ألا تظن بك سوءًا من أجل أنك تركتني، (وهنا أحس روبن بالحز في قلبه)، فإنك ما كنت لتحرص على حياتك وتضن بها لو أن بذلها كان يجديني،

وستتزوجك بعد أن تحد على أبيها مدة، أطال الله عمركما وجعلكما من السعداء، وليحف بكما أحفادكما عند المات. ويا روبن، (وهنا غلبه ضعف الإنسان الفاني) ارجع بعد أن تبرأ جراحك وتندمل، وتسترد العافية — ارجع إلى هذه الصخرة الموحشة وضع عظامي في قبر، وصل عليّ.»

وكان أهل الحدود يجعلون لمراسم الدفن قيمة تكاد تكون خرافية، ولعل ذلك راجع إلى عادات الهنود الذين كانوا يشنون الحرب على الموتى كما يشنونها على الأحياء. وهناك أمثلة كثيرة للتضحية بالحياة في سبيل السعي لدفن الذين طاح بهم «سيف الفلاة»، ولهذا كان روبن يدرك قيمة العهد الذي أعطاه لروجر مالفن بأن يعود ويدفن رفاته. وكان من الغريب أن مالفن بعد أن أفضى في كلماته الأخيرة بكل ما في قلبه، لم يعد يحاول أن يقنع رفيقه الشاب بأن أسرع النجدات قد يكون لها غناء في إنقاذ حياته. وكان روبن مقتنعًا فيما بينه وبين نفسه بأنه لن يرى وجه مالفن حيًّا مرة أخرى. وكانت مروءة نفسه تنزع به إلى البقاء بالغًا ما بلغ الخطر على نفسه حتى يقضي صاحبه نحبه فيدفنه، ولكن إرادة الحياة والأمل في السعادة قَوِيَا في نفسه واستوليا على قلبه، فلم يقدر على مغالبتهما.

وبعد أن أصغى مالفن إلى روبن وهو يعاهده أن يعود قال: «كفى، اذهب والله معك.»

فضغـط الشـاب يـده في صمـت، ودار عـلى عقبـه، وهـمّ بـأن يمـضي، ولكنـه لم يـسر إلا قليـلا، ثـم رده صـوت مالفـن يناديـه بصـوت ضعيـف: «روبـن، روبـن»، فارتـد إليـه روبـن وجثـا إلى جانبـه، فأفـضى إليـه بآخـر رجـاء: «ارفعنـي واجعـل ظهـري إلى الصخـرة، ليكـون وجهـي شـطر البيـت، ولأراك لحظـة أخـرى وأنـت تمـشي بـين الأشـجار.»

ففعـل روبـن مـا طلبـه صاحبـه واسـتأنف السـير، وكان يمـشي أول الأمـر بـأسرع ممـا تسـمح بـه قوتـه، لأن شـيئًا مـن التحـرج الـذي يعـذب المـرء أحيانًـا، وإن كان عملـه لا خطـأ فيـه ولا وزر، دفعـه إلى الاسـتخفاء عـن عـين مالفـن، غـير أنـه بعـد أن أبعـد في سـيره عـلى أوراق الشـجر انكفـأ راجعًـا تدفعـه رغبـة ملحـة مؤلمـة في الوقـوف عـلى حـال هـذا الرجـل المسـتفرد، واختبـأ وراء شـجرة مقلوعـة، وجعـل ينظـر إليـه، وكانـت الشـمس مشرقـة لا يحجبهـا غيـم، والأشـجار — كبارهـا وصغارهـا — تعـب في هـواء مايو/ أيـار الطيـب. ولكـن وجـه الطبيعـة كان عليـه كالجهامـة، كأنـما أدركهـا العطـف عـلى آلام الإنسـان وأشـجانه. وكانـت يـدا مالفـن مرفوعتـين بالدعـاء الحـار، وكان بعـض مـا يجـري بـه لسـانه في هـذا السـكون الـذي يشـمل الغابـة يصافـح سـمع روبـن، فيعـصر قلبـه ألم لا سـبيل إلى العبـارة عنـه، فقـد كان الصـوت الـذي يبلغـه نـبرات متقطعـة ترتفـع بالدعـاء لـه ولـدوركاس بالسـعادة، وكان وهـو يصغـي ينازعـه ضمـيره ووجدانـه أن يعـود ويرقـد معـه إلى جانـب الصخـرة، وشـعر

بهول المآل الذي قُضي به على هذا الرجل الكريم الرحيم الذي يهجره في شدته، وحدثته نفسه أن الموت سيدلف إليه كالجثة ويتسلل نحوه في هذه الغابة خطوة فخطوة، ويطالعه بوجهه المرعب الجامد من وراء شجرة بعد شجرة، ولكن هذا هو ما كان خليقًا أن يكون مصير روبن نفسه لو تلكأ يومًا آخر. ومن الذي يلومه إذا أشفق من تضحية عقيمة كهذه؟ وكان النسيم يحرك العلم الصغير المشدود إلى العود الأخضر وهو يلقي نظرة الوداع على صاحبه، فأذكره ذلك عهده له.

وعاقت الجريحَ أمورٌ شتى في مسيره إلى الحدود، ففي اليوم الثاني تكاثفت السحب في السماء فمنعت أن يهتدي في سيره بموقع الشمس، وكان أكبر ما يخاف أن ينأى به عن غايته ما يبذله من جهد نفسه المنهوكة القوى. وكان قوته النزر، العنيبات وغيرها من الأثمار. وكانت أسراب من الظباء ربما مرت به وهي تخطف، وكثيرًا ما كان الطير يجدف عند قدميه، ولكن ذخيرته كانت قد نفدت في المعركة ولم يكن معه ما يذبح به. وكانت جروحه تهيج وتنتقض عليه من الجهد المتواصل الذي ارتهن به الأمل في الحياة والنجاة، فيستلب هذا قوته، وربما تركه مضطرب العقل مخلَّطًا. ولكنه كان، حتى حين يدور رأسه ويضطرب، يتشبث بالحياة كل التشبث حتى عجز عن الحركة عجزًا تامًّا فقعد تحت شجرة وراح ينتظر الموت.

وهنا أدركته جماعة أرسلت لإسعاف الناجين من المعركة لما وردت أنباؤها الأولى، فنقلوه إلى أقرب حلة واتفق أن كانت هذه حلته. فتولت دوركاس العناية بحبيبها الجريح وبقيت إلى جانب سريره تتعهده على عادة ذلك الزمن، وأولته تلك الألطاف المرهفة التي لا يُحسن الاتحافَ بها كقلب المرأة ويدها. وقد ظل روبن عدة أيام شارد اللب غائب الوعي والذاكرة بين المخاطر والمصاعب التي عاناها، وكان لا يستطيع أن يرد بجلاء على الأسئلة التي كان كثيرون يقبلون بها عليه متلهفين، فما كانت التفاصيل الصحيحة قد أذيعت على القوم، ولا كان أحد من الأمهات والزوجات والأبناء يعرف هل ذووهم في قيد الأسر أو في قيد الردى. وكانت دوركاس تطوي مخاوفها وجزعها في قلبها حتى كان مساءٌ فأفاق روبن من نيمة مضطربة، وبدا عليه أنه قد عرفها وفطن إليها كما لم يكن يفطن في الأيام السالفة، ورأت أن عقله قد ثاب إليه وعادت إليه وثاقته، فلم تستطع بعد ذلك أن تظل تكبح قلقها على أبيها.

وبدأت تسأله: «وأبي يا روبن؟» ولكنّ ما اعتام وجهه من التغير ردها عن المضي.

وكان الفتى قد تقبض كأنما ألح عليه ألم مر، وتدفق الدم إلى وجهه المتهضم المتقع. وكان أول ما فعل أن غطى وجهه

ثــم غالــب نفســه غلابًــا شــديدًا، فرفــع جســمه وقــال بصــوت شــديد مدافعًــا عــن نفســه مما خيــل عليها مــن التهــم: «لقــد أصيــب أبــوك يــا دوركاس بجــرح بليــغ في المعركــة، وأمــرني أن أعفــي نفســي مــن عبئــه وأن أكتفــي بــأن أمــضي بــه إلى شــط البحــيرة ليطفــئ ظمــأه ويمــوت. ولكنــي لم أســتطع أن أخذلــه في شــدته، فأعنتــه وإن كان دم جروحــي ينــزف، ومنحتــه نصــف قــوتي وســرت بــه معــي. ولبثنــا ثلاثــة أيــام نســير معًــا وكان حالــه خــيرًا مما كنــت أتوقــع أن تكــون، ولكنــي ألفيتــه في صبــاح اليــوم الرابــع خائــر القــوى منهــوكًا وعجــز عــن المــشي وأخــذ يجــود بنفســه بســرعــة و...»

فصاحت دوركاس بضعف: «مات؟»

ووجــد روبــن أن مــن المســتحيل عليــه أن يقــرَّ لهــا بــأن حبــه الأنــاني للحيــاة نــأى بــه عــن صاحبــه قبــل أن يصــير إلى مصــيره، فأمســك عــن الــكلام وثنــى رأســه عــلى صــدره، ثــم ارتــد إلى الفــراش مــن الخجــل والإعيــاء وأخفــى وجهــه في الوســادة، وبكــت دوركاس لمــا أصبــح شــكها يقينًــا، ولكــن الصدمــة لطــول توقعهــا كانــت مــن أجــل ذلــك أقــل عنفًــا وشــدة.

وكان الســؤال الــذي ألهمهــا إيــاه شــعورها البنــوي وتقواهــا: «وحفــرت قــبرًا لأبي المســكين في الفــلاة يــا روبــن؟»

فقـال الفتـى بصـوت مخنـوق: «كانـت يـداي كليلتـين ضعيفتـين ولكنـي فعلـت مـا وسـعني. وهنـاك حجـر عـال يـشرف عليـه. ولشـد مـا أتمنـى لـو أننـي كنـت سـاكنًا كسـكونه.»

وأحسـت دوركاس مـن عباراتـه الأخـيرة ثـورة النفـس، فأمسـكت في يومهـا عـن الاسـتفسـار، ولكنهـا وجـدت رَوْحًـا وراحـة إذ علمـت أن روجـر مالفـن لم يعـدم مـا تيسَّر مـن مراسـم الدفـن، وقصـت عـلى الأصحـاب مـا كان مـن شـجاعة روبـن ووفائـه، ولم تنتقـص الإعـادةُ مـن حسـن الـرأي فيه شـيئًا، وكابـد الشـاب المسـكين بعـد أن تطـرح مـن فـراش المـرض إلى الهـواء والشـمس، ذلَّ الثنـاء الـذي لا يسـتحقه وعذابـه وألمـه، وقـال النـاس جميعًـا إنـه حقيـق بـأن يطلـب يـد الغـادة الحسـناء التـي وفى لأبيهـا «حتـى المـوت.» ولكـن قصتـي ليسـت عـن الحـب، فحسـبي أن أقـول إن روبـن صـار زوجًـا لـدوركاس بعـد بضعـة شـهور، وكانـت العـروس في حفلـة الـزواج مضطرمـة الوجـه مـن الخفـر والحيـاء، أمـا روبـن فـكان ممتقـع اللـون.

وصـار في قلـب روبـن بـورن خاطـر لا سـبيل إلى الإفضـاء بـه — خاطـر ينبغـي أن يخفيـه بعنايـة وحـرص عمـن لهـا حبـه، وبهـا ثقتـه. وكان أسـفه عميقًـا عـلى جبنـه الـذي أغـراه بكبـح لسـانه عـن الإفضـاء إلى دوركاس بالحقيقـة التـي كان يهـم بـأن يبـوح لهـا بهـا، ولكـن الكبريـاء والخـوف مـن فُقْـدَانِ حبهـا

لـه، والإشـفاق مـن الاحتقـار العـام — كل أولئـك منعـه أن يصدقهـا بعـد أن كـذب عليهـا. وكان يشـعر أنـه لا يسـتحق لومًـا مـن أجـل أنـه تـرك روجـر مالفـن، فـما كان بقـاؤه والتـبرع ببـذل حياتـه إلا ليزيـدا آلام الرجـل بـلا موجـب في سـاعاته الأخـيرة. ولكـن كتمانـه الحقيقـة أفـاض عـلى هـذا العمـل السـائغ كثـيرًا من صفـات الإثـم وآثـاره الخفيـة، فـكان روبـن عـلى اقتناعـه بأنـه مـا فعـل إلا الصـواب، يقـاسي إلى حـد كبـير الآلام النفسـية التـي تعـذب مجـترحَ جريمـةٍ مسـتورة. وكانـت خواطـره تتداعـى أحيانًـا عـلى نحـو يجعلـه يتصـور أنـه قاتـل. وظـل سـنوات يعـاوده خاطـر لا تخفـى عليـه سـخافته وشـططه، ولكنـه لا يسـتطيع أن ينفيـه ويسـتريح منـه. وكان ذهنـه لا يـبرح يعذبـه بصـورة مخامـرة — صـورة صهـره جالسًـا — إلى الآن — عنـد الصخـرة عـلى أوراق الشـجر الذاويـة — حيًّـا ينتظـر منـه الوفـاء بالمعونـة الموعـودة. عـلى أن هـذه الخـدع العقليـة كانـت تـروح وتجـيء، وكان هـو لا يغالـط نفسـه فيهـا فيخلطهـا بالحقائـق، غير أنـه في أصفـى حـالات عقلـه وأهدئهـا كان يشـعر بـأن في ذمتـه عهـدًا لم يـف بـه ولم ينجـزه، وأن هنـاك جثـة لم تدفـن تصيـح بـه مـن جـوف الفـلاة، ولكنـه كان مـن نتائـج مغالطتـه ولفـه، أن عجـز عـن تلبيـة النـداء وإجابـة الدعـوة. وكان قـد مـضى الوقـت الـذي يجـوز فيـه أن يطلـب معونـة أصدقـاء مالفـن للقيـام بدفنـه الـذي طـال إرجـاؤه. وحالـت الأوهـام والمخـاوف الخرافيـة التـي كان أهـل الحـدود أحـس بهـا مـن سـواهم دون ذهـاب روبـن وحـده لهـذه الغايـة. ثـم إنـه لم يكـن يـدري أيـن في هـذه

الغابـة المُضِلَّـة المتراميـة الأطـراف ينشـد تلـك الصخـرة الملسـاء المعرقـة التـي يرقـد عنـد سـفحها صاحبـه. وكان تذكّـره لرحلتـه فيهـا غامضًـا، ولم يكـن في ذهنـه أي أثـر للشـطر الأخـير مـن هـذه الرحلـة. عـلى أنـه كان لا يفتـأ يحس دافعًـا ملحًّـا، ويسـمع صوتًـا مـن ذات نفسـه يناديـه أن يخـرج لإنجـاز وعـده، وكان يخيـل إليـه أنـه لـو هـمّ بذلـك لقادتـه رجـلاه إلى رفـات مالفـن مبـاشرة. ولكـن العـام كان يمـضي تلـو العـام، وهـذا الصـوت الـذي يحسـه ولا يسـمعه سـواه لا يجـد منـه مجيبًـا. وصـار هـذا الخاطـر المكتـوم كالقيـد، ولكـن نفسـه هـي المُوثَقَـةُ العانيـة، أو كالحيـة، يعـض وينفـض في قلبـه، فانقلـب رجـلًا سـاهمًا كاسـف البـال ولكنـه ضجـور سـيئ الخلـق.

وفي خـلال سـنوات قليلـة بعـد الـزواج بـدأت حالـة الرخـاء في حيـاة روبـن ودوركاس تحـول، وكانـت ثـروة روبـن قلبـه القـوي وسـاعده المفتـول، ولكـن دوركاس — وارثـة أبيهـا الوحيـدة — جـاءت زوجهـا بضيعـة أكـبر وأحفـل بـالأدوات والمـواشي مـن مثيلاتهـا عـلى الحـدود، ولكـن روبـن بـورن كان فلاحًـا مهمـلًا فكانـت أرض سـواه تـزداد كل عـام زكاءً وثمـرة، وأرضـه تـزداد عـلى النقيـض كـدورًا وتأخـرًا، وكانـت متاعـب الزراعـة وأسـباب التثبيـط عنهـا قـد قلـت قلـة شـديدة بانقطـاع الحـروب مـع الهنـود، ولم يعـد النـاس يتناولـون المحـراث بيـد والبندقيـة باليـد الأخـرى ويحمـدون حسـن حظهـم إذا سـلمت محاصيلهـم مـن التلـف في الأهـراء، أو في ميادين القتـال حـين

يغير العدو المتوحش، غير أن روبن لم ينتفع بما صار إليه الأمر من السكينة والأمان وإن كان لا نكران أن الفترات التي كان ينشط فيها للعناية بأموره لم تكن تجزيه إلا نجاحًا ضئيلًا. وكان فساد أعصابه من الأسباب التي أفضت به إلى الإكداء، وذهاب الخير لأن سوء خلقه كان كثيرًا ما يؤدي إلى الشجار والخلاف مع جيرانه في المعاملات التي لا بد منها معهم، فانتهى الأمر بقضايا لا عداد لها، إذ كان أهل «إنجلترا الجديدة» — ولاية بهذا الاسم — في العهد الأول من حياتهم المضطربة بهذه الولاية يؤثرون الوسيلة القضائية لفض منازعاتهم كلما تيسر ذلك. ونقول بإيجاز إن الأمور لم تستقم لروبن بورن فحل به الخراب، وإن كان هذا لم يصبه إلا بعد سنوات عديدة من زواجه، ولم يبق له إلا سبيل واحد ومخرج فرد من النحس الذي لحقه، وذلك أن يفيض نور الشمس على رقعة مظلمة في جوف الصحراء، وأن ينشد العيش والقوت من ثدي هذا المجهل البكر.

وكان الابن الوحيد الذي رُزقه روبن ودوركاس قد بلغ الخامسة عشر، وكان شبابه الريان يبشر برجولة بارعة، وكان على استعداد قوي لما تقتضيه الحياة على الحدود من الكفايات، بل لقد بدأ يظهر في ذلك حذقًا عظيمًا، فكان خفيفًا مشتد الذراع في الرماية، سريع الإدراك والفطنة، وندبًا شديد القلب، وكان كل الذين يتوقعون أن تُستأنف الحرب مع الهنود، يقولون عن «سيراس بورن» إنه الزعيم الذي

يدخره المستقبل للبلاد، وكان أبوه يحبه حبًّا عميقًا صامتًا، كأنما كان كل ما فيه، هو، من الخير والسماحة قد انتقل إلى غلامه ومعه ما يقوى عليه القلب من الحب، حتى دوركاس — وإن كانت محبة محبوبة — صار ابنها أعز على أبيه منها، ذلك أن خواطر روبن المحجوبة، وعواطفه المعزولة جعلته على الأيام رجلًا أنانيًّا، فلم يستطع أن يحب حبًّا عميقًا، إلا ما كان يرى أو يتخيل فيه مشابهًا من نفسه. وقد طالعته من سيراس صورة مما كان هو في الأيام الماضية، وكان ربما شاطر غلامه نفسيته، فتهب على حياته نفحة منعشة من السعادة. وقد استصحب روبن غلامه في رحلته لانتقاء رقعة من الأرض للإقامة، ولقطع الشجر وحرق الخشب، وهو ما لا بد منه تمهيدًا لنقل البيت. وسلخا في هذا شهرين من الخريف عادا بعدهما ليقضيا آخر شتاء في الحلة.

•••

وفي أوليات مايو/ أيار بتت الأسرة الصغيرة ما كانت تتعلق به، وودعت القليلين الذين كانوا في أيام نحسها يحفظون لها عهد الصداقة. وكان أسى الفراق يخففه عند كل واحد من الثلاثة مخفف، فأما روبن فكان رجلًا طويل الوجوم كارهًا لبني الإنسان لأنه شقي في حياته، فلما آن الرحيل مضى وهو مقطب، مطرق لا يكاد يأسف على شيء، ويأنف أن يعترف بأسف أو ندم. وأما دوركاس فبكت بأربع على الوشائج

المبتوتة التي كانت توثِّق ما بين نفسها الطيبة العطوف وبين كل ما هنالك، ولكنها كانت تحس أن ما حل في السواد من حبة قلبها يَسيرُ معها، وأن كل ما خلا ذلك لا تعدم عنه عوضًا في حيثما تكون. وأما الغلام فكفكف دمعة واحدة وراح يتصوَّر مُتَعَ الخِطار في الغابة التي لم تطأها قدم أبيه، ومن ذا الذي لم تُغْرِهِ الأحلام في عنفوان نشوتها، بأن يشتهي أن يطوّف في عالم من المجاهل المشمسة وإلى جانبه رفيق جميل يعتمد على ذراعه في رفق؟ في الشباب لا تعرف خطواته الحرة الجذلة عائقًا سوى عباب اليم المتحدر ورءوس الجبال التي يكسوها الثلج. ثم تجيء الرجولة الساكنة فَتُؤْثِر بيتًا في واد سخت عليه الطبيعة بالزخرف، وأجرت فيه غديرًا رائقًا شفافًا. حتى إذا دلفت إليه الشيخوخة بعد سنوات طويلات المدد من تلك الحياة النقية إذا به قد صار أبًا لقبيل، ورأسًا لشعب، ومؤسس أمة عظيمة تتمخض عنها الأيام. ثم يوافيه الحَيْن فيستسلم إليه ويرحب به، كما نرحب بالنوم العذب بعد يوم سعيد، فيبكي ولده رفاته الجليل. ويحيطه كر الأيام بهالة، ويكسبه مناقب وخصائص عجيبة ترفعه في أعين الأجيال التالية إلى قريب من مراتب الأرباب. وترجع الإنسانية بصرها من وراء قرن فتلمح مجده الخافت.

على أن الغابة المظلمة المعقدة المسالك التي كان يضرب فيها مَنْ أَرْوِي قصتَهم، لم تكن تشبه في شيء تلك الأرض التي تصورها الأحلام. ولكنه كان في أسلوب حياتهم ما يجري

على نسق الطبيعة، وكانت الهموم المخامرة التي رافقتهم من الدنيا التي خرجوا منها، هي كل ما يعكر الآن صفو حياتهم ويحول دون استفاضة الشعور بالسعادة. وكان معهم جواد أشعث متين الأسر، يحمل كل ما يملكون ولا يجزع أن تضاف دوركاس إلى ما يحمل، وإن كانت نشأتها تعينها على السير إلى جانب زوجها في آخر كل مرحلة يومية. وكان روبن وابنه يمشيان بخطى ثابتة قوية وعلى كتف كل منهما بندقيته، وعلى ظهره فأسه، وعينه تدور باحثة عن قنيصة للطعام. وكلما جاعوا وقفوا وأعدوا طعامهم على شاطئ غدير صاف، فإذا ظمئوا انحنوا بشفاههم على مائه السلسال ليرشفوا من نميره، وهو يترقرق عنهم في مثل دلال الغادة إذ تتلقى القبلة الأولى من فم حبيبها. وكانوا ينامون في كوخ يصنعونه من الأغصان ويستيقظون مع أول خيط من النور، وقد انتعشوا وتهيئوا لمتاعب اليوم التالي. وكانت دوركاس وابنها يمشيان مرحًا، حتى روبن كان أحيانًا يشرق وجهه ويلمع فيه نور البشر، ولكنه كان يطوي بين أضلاعه كمدًا باطنًا يقرص قلبه ويتركه فيما يرى كمجرى الغدير جمد فيه ماؤه وغطته أوراق الشجر الخضراء النضيرة.

وكان سيراس بورن أعرف بمسالك الغابات وأخبر بالسير فيها من أن يخفى عليه أن أباه لا يلتزم الجادة التي ساروا فيها الخريف الماضي، فقد كان ينتحي ناحية الشمال وينأى عن الأرض المأهولة ويضرب إلى حيث لا توجد إلا الوحوش

وأمثالها من الآدميين. وكان الغلام ينبهه إلى ذلك أحيانًا فيصغي له روبن، ويعدل عن الطريق الذي كان آخذًا فيه، عملًا منه بنصيحة ابنه، ولكنه كان كلما فعل ذلك بدا كالمضطرب، فكان يمد لحظه ويجيله كأنما يتوقع أن يرى أعداء مختبئين وراء جذوع الشجر. وكان سيراس يرى أن أباه يرتد شيئًا فشيئًا إلى اتجاهه الأول الذي كان قد صرفه عنه، فيحجم عن معاودة الاعتراض، وكان يشعر أن شيئًا غامض الكنه قد بدأ يجثم على صدره، ولكن جرأته الفطرية على الخِطار أبت له أن يأسف من أجل أن الطريق زاد طولًا وغموضًا.

وفي عصر اليوم الخامس وقفوا وهيئوا لأنفسهم مكانًا قبل الغروب بساعة، وكان وجه الأرض فيما قطعوا من الأميال الأخيرة يعلو ويهبط كأنه أمواج تحجرت. وقد أقاموا في منخفض منها كوخهم وأوقدوا نارهم. وكان في مقامهم هناك — وقد نأوا عن كل حي ووثق ما بينهم الحب — ما يشجو ويملأ القلب حرارة. وكانت أشجار الصنوبر تشرف عليهم وتتخلل الريح أغصانها العالية، فتتجاوب الغابة بمثل أصوات الوله والأسى، أم ترى هذه الأشجار العتيقة تتوجع مخافة أن يكون الإنسان قد أقبل ليضرب في جذورها بفأسه ...؟

ورأى روبن وابنه أن يدعا دوركاس تهيئ الطعام وأن يتجولا في الغابة عسى أن يقعا على فريسة فقد أخطأهما الصيد في نهارهما. ووعد الغلام ألا يبعد وذهب يعدو خفيفًا كالظبي الذي يرجو أن يصيد. وشعر أبوه بنفحة عارضة من السعادة وهو يتبعه بعينه. وهمّ بأن يمضي هو في اتجاه آخر. وجلست دوركاس فوق جذع شجرة قديمة مقتلعة على كثب من العيدان التي أضرمت فيها النار. وكانت تلقي نظرها من حين إلى حين على القِدر التي بدأت تفور وتغلي ثم ترد عينها إلى «تقويم ولاية ماساشوستس» وكان هذا التقويم ونسخة قديمة من الإنجيل كل مكتبة الأسرة. وليس أشد عناية بحساب الأيام ممن نأوا عن المجتمع الإنساني، فلا عجب إذا كانت دوركاس قد قالت لزوجها إن اليوم هو الثاني عشر من شهر مايو/ أيار كأنما هذا على أعظم جانب من الأهمية. فاضطرب روبن وتمتم: «الثاني عشر من شهر مايو ...؟ إني لحقيق بأن أذكره» وتزاحمت الخواطر في رأسه فأحدثت له اختلاطًا يسيرًا وراح يسأل نفسه: «أين أنا ...؟ وإلى أين أنا ماض؟ وأين تركته ...؟»

وكانت دوركاس قد ألفت من زوجها غرابة أطواره فلم تعد تلقي بالها إلى ما يبدو من شذوذها. فوضعت التقويم إلى جانبها وقالت له بتلك اللهجة الشجية المعهودة التي يتخذها رقاق القلوب حين تكر بهم الذكرى إلى أحزانهم القديمة التي خمدت نارها: «لقد ترك أبي هذا العالم إلى آخر

خير منه في مثل هذا الشهر منذ ست عشرة سنة. ولكنه لم يعدم ساعدًا قويًّا يسند رأسه وصوتًا حنونًا يخفف عنه غصص الموت يا روبن. إن عنايتك به ووفاءك له قد عزياني مرارًا كلما جشأت نفسي وجاشت. ألا ما أهول الموت على المستفرد الوحيد في مثل هذا المكان الموحش!»

فقال روبن بصوت متهدج: «ادعي الله يا دوركاس ألا يدرك الموت أحدنا نحن الثلاثة وهو وحيد، وألا يبقى بغير دفن في هذه الغابة العاوية.»

وأسرع ومضى عنها وتركها تنظر إلى النار تحت الصنوبر.

وخفت وطأة روبن وأبطأت رجله لما خفت حدة الألم الذي أحدثته له دوركاس بما قالته عفوًا. ولكن الخواطر الأليمة كانت تتزاحم وتتدافع في رأسه فكان يمشي كالنائم لا كالصائد. ولم يكن عن قصد منه أنه بقي على مقربة من الكوخ فقد كانت رجله كأنما تدب به دائرة. ولم يفطن إلى أنه قد صار على رأس طريق مكتظ بأشجار السنديان وغيره من الأشجار العظيمة. وكانت أصول الشجر قد نمت عليها وازدحمت حولها الأغصان النابتة وبقي ما بين الشجر عاريًا لا يكسوه إلا الورق الذاوي المنتشر. وكان روبن كلما سمع حفيف الأغصان أو صوت تمايل الجذوع — كأنما

انبعثت الغابـة مـن سـباتها — يرفـع بندقيتـه المراحـة عـلى ذراعـه ويديـر عينـه بسرعـة في كل ناحيـة. ثـم يقتنـع بـأن لا شيء مـن الحيـوان هنـاك فيعـود إلى مـا يـدور في نفسـه ويضطـرب بـه جنانـه. وكان يفكـر فيـما صرفـه عـن الطريـق الـذي كان معتزمًـا أن يأخـذه ورمـى بـه قلـب الغابـة. ولم يسـتطع روبـن أن يتغلغـل بعينـه إلى مكامـن الأسرار مـن نفسـه وأن يهتـدي إلى البواعـث الحقيقيـة المكنونـة في قـرارة الوجـدان، فاعتقـد أن صوتًـا مـن وراء الحـس قـد دعـاه، وأن قـوة مـن وراء الطبيعـة قـد حالـت دون ارتـداده، وتمنـى أن تكـون مشيئة الله قـد أتاحـت لـه فرصـة للتكفـير عـن خطيئتـه، ورجـا أن يعثـر عـلى العظـام التـي بقيـت هـذا الزمـن الطويـل بـلا دفـن، فيدرجهـا في جـوف الأرض فتعـود إلى نفسـه السـكينة وتنـشر النـور بـين حنايـا ضلوعـه التـي صـارت أحلـك مـن القـبر.

وانتبـه عـلى حفيـف في الغابـة عـلى مسـافة مـن الموضـع الـذي تقـوده إليـه رجـلاه، ولمـح حركـة وراء النبـات الأثيـث الملتـج، فأطلـق بندقيتـه بدافـع مـن غريـزة الصيـاد وبإحـكام الرامـي المـدرب. ولم يلتفـت إلى الأنـة الخفيفـة التـي تنبـئ بإصابـة المرمـى، والتـي يسـتطيع حتـى الحيـوان أن يعـرب بهـا عـما يعـاني مـن أخـذ المـوت بكظمـه.

ولكن ما هذه الذكريات التي بدأت الآن تطوف برأسه؟ ...

لقد كان الموضع المعشوشب الذي أطلق روبن بندقيته قريبًا من قمة مرتفع من الأرض ومن أصل صخرة ملساء كأنها حجر ضخم مما يرفع على القبور. وكانت تبدو لروبن كأن لها صورة معكوسة في مرآة ذاكرته — بل لقد تذكر تلك العروق الجارية على وجه الصخرة كالكتابة بلغة منسية — كل شيء بقي كما كان سوى أن النبات الكثيف غطى أصل الصخرة، فهو يستطيع أن يحجب رفات روجر مالفن لو أنه بقي كما تركه قاعدًا هناك، ولكن عين روبن لم تلبث أن أخذت بعض ما أحدثه الزمن من التغيير مذ كان واقفًا هنا وراء جذع الشجرة الذاهبة في الهواء، وذلك أن العود الذي ربط إليه الخرقة الملطخة بالدم قد نما واشتد وصار شجرة عظيمة كثيرة الفروع المورقة، وإن كانت لم تستوف كل حظها من النماء. وقد رأى روبن في هذه الشجرة ما جعله يضطرب، فقد كانت الغصون الوسطى والسفلى ترف فيها نضرة الحياة، وكانت الخضرة اليانعة تحف بأصل الشجرة، ولكن آفةً على ما يظهر أصابت قمتها فبدا الغصن الأعلى ذاويًا جافًّا ميتًا. وتذكر روبن أن الخرقة التي نشرها كالراية كانت تخفق على هذا الفرع لما كان أخضر وريقًا، فأي خطيئة يا ترى عصفت به وأذوته ...؟ ومن عسى أن يكون ذاك الذي اقترفها ...؟

•••

وكانـت دوركاس تواصـل عملهـا في إعـداد الطعـام بعـد أن تركهـا زوجهـا وابنهـا، وقـد اتخـذت مـن سـاق شـجرة غليظـة متجدعـة مائـدةً نـشرت عـلى أعـرض موضـع فيهـا منديـلًا ناصع البيـاض، ورتبـت فـوق هـذا مـا بقـي عندهـا مـن الأوعيـة المعدنيـة التـي كانـت تُزهـي بهـا في بيتهـا. وكان لهـذه البقيـة مـن الأدوات المنزليـة منظـر غريـب في قلـب الغابـة الموحشـة، وكانـت الشـمس الغاربـة لا تـزال تـضيء قمـم الأشـجار القائمـة عـلى الربـى. ولكـن ظـلال المغيـب كانـت قـد ارتمـت وتكاثفـت عـلى وجـه المنخفـض الـذي أقيـم فيـه الكـوخ. وكانـت النـار ترسـل ألسـنتها فتـضيء سـيقان الشـجر، ويخفـق نورهـا عـلى النبـات المحيـط بالمـكان. ولم يكـن في قلـب دوركاس حـزن، فقـد كانـت تحـدث نفسـها بأنـه خـير لهـا أن تجـوب الغابـة مـع اثنـين تحبهـما ويحبانهـا مـن أن تكـون وحدهـا بـين مـن لا يعبئـون بهـا.

وشـغلت نفسـها بإعـداد مقاعـد مـن خشـب الشـجر المتقـادم المتجـدع المغطـى بالـورق لنفسـها ولروبـن ولابنهـا. وكانـت ترسـل الصـوت في جـوف الغابـة المظلمـة فيرقـص عـلى نغـم أغنيـة تعلمتهـا في صباهـا. وكانـت هـذه الأغنيـة السـاذجة التـي نظمهـا شـاعر لم يفـز بالذكـر تصـف ليلـة شـتوية في كـوخ عـلى الحـدود، حيـث كانـت الأسرة تمـرح وتنعـم بالـدفء مـن النـار الموقـدة، وقـد أمنـت عـدوان المتوحشـين بفضـل مـا تكـدس مـن الثلـوج. وكان للأغنيـة ذلـك السـحر الخفـي الـذي تمتـاز بـه الخواطـر المبتكـرة غـير المسـتعارة. ولكـن أربعـة أبيـات منهـا

كانت تبرز وتضيء وتشع النور والحرارة كلسان النار الذي تصف السرور حوله، وفي هذه الأبيات استطاع الشاعر أن يصوغ السحر بألفاظ قليلة، وأن يستقطر معاني الحب البيتي ويجسد السعادة المنزلية، فصارت الأبيات شعرًا وصورة في آن معًا.

وكانت دوركاس وهي تغني تحس أن جدران بيتها الذي فارقته تحيط بها هنا، فلم تعد ترى أشجار الصنوبر المظلمة، أو تسمع الأنات الجوفاء التي ينتهي بها نواح الرياح بين الأفنان، ولكن ردها إلى ما حولها طَلْق بندقية فاضطربت جدًّا من مفاجأة الصوت، أو من فرط الشعور بالوحدة وهي إلى جانب النار، على أنها ما عتمت أن ضحكت وقد عمر قلبها الزهو بابنها، فقالت تحدث نفسها: «يا له من صائد جميل ... لقد أصاب ابني ظبيًا.» فقد تذكرت أن صوت الطلق جاء من الناحية التي ذهب إليها سيراس باحثًا عن طريدة. وانتظرت فترة كافية توقعت بعدها أن تسمع وقع قدمي سيراس يعدو إليها ليخبرها بما ظفر به، ولكنه لم يجئ، فأرسلت صوتها المرح بين الأشجار تدعوه إليها: «سيراس ... سيراس ...»

ولكنه أبطأ ولم يجئ، فاعتزمت أن تذهب هي إليه، فقد كان صوت الطلق ينبئ بأنه منها قريب، ثم إنه قد يحتاج إلى

معونتها لحمل ما منت نفسها أن يكون قد صاده. ونهضت ومضت مهتدية بذكرى الصوت الذي سمعته، وكانت تغني وهي سائرة، ليسمعها ابنها فيخف للقائها، وكانت ترجو أن يطالعها وجهه من وراء كل شجرة، وكل ما يمكن أن يحجبه من النبات العالي، وأن تسمع ضحكته المنبعثة عن روح العبث في المغامر حين يلقى من يحب. وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق، وكان الضوء المختلف بين الأشجار من الخفوت بحيث يجسد الأوهام لخيال المتطلع. وقد خيل إليها مرات أنها لمحت وجهه — ولكن في غير وضوح — مطلًّا من بين الأوراق، وكبر في وهمها مرة أنه واقف إلى جانب صخرة، وأنه يومئ إليها، على أنها بعد أن أوسعت هذه الصخرة تحديقًا، تبينت أن الذي بجانبها ليس إلا ساق شجرة تحف بها أغصان كثيرة، كان أحدها ممتدًا وكان النسيم يحركه. وظلت تتقدم حتى بلغت الصخرة، فألفت نفسها بغتة أمام زوجها الذي كان قد جاء من ناحية أخرى، وكان متكئًا على صدر بندقيته التي انغرست فوهتها بين الأوراق وهو يتأمل شيئًا عند قدميه.

فصاحت به دوركاس: «ما هذا يا روبن ...؟ أتراك صدت الظبي ثم نمت عليه ...؟»

وكانت تضحك مغتبطة بما لمحت أول الأمر من وقفته

وهيئته، ولكنه لم يتحرك ولا حوّل إليها عينه، فدب في قلبها الخوف، وأخذتها رعدة مجهولة المصادر والعلل، وتفرست فتبينت في وجهه الامتقاع والتصلب، حتى لكأنما عجزت معارف محياه أن تغير ما ارتسم عليها من صورة اليأس.

ولم يبد منه ما يدل على أنه أحس بقربها، فصاحت به: «أتوسل إليك يا روبن أن تكلمني» وأفزعها صوتها أكثر مما أفزعها هذا السكون الرهيب.

وتنبه زوجها ونظر إليها ثم جرها إلى الصخرة وأشار بإصبعه، فإذا غلامها هناك راقد ... نائم نومًا لا حلم فيه ولا يقظة منه ... على أوراق الشجر الجافة، وخده على ذراعه، وأعضاؤه مسترخية قليلًا ... أفتراه أدركه إعياء مباغت ...؟ أيمكن أن يوقظه صوت أمه ويرده إليها ...؟ كلا ... فقد أدركت أنه الموت الذي لا حيلة فيه.

وقال زوجها: «هذه الصخرة العالية هي الحجر القائم على قبر أبيك يا دوركاس ... وستسقط أشجارك على ابنك وأبيك كليهما.»

ولم تسمع دوركاس ما قال، بل أطلقت صرخة جزع انشقت عنها حبة قلبها المطعون، وهوت مغشيًّا عليها إلى جانب

فتاها، وفي هذه اللحظة انقصف الفرع اليابس الذي في قمة الشجرة ... وتهاوى هشيمه وتناثر ما بلي منه على الصخرة ... وعلى الأوراق الذاوية المبعثرة ... وعلى روبن وزوجته وابنهما ... وعلى رفات روجر مالفن.

وانعصر قلب روبن، وتفجرت الدموع من عينيه كما يتفجر الماء من ينبوعه ... لقد وفى الرجل الذي حاقت به اللعنة بالنذر الذي نذره وهو شاب جريح ... وقد كفر عن خطيئته فزالت عنه اللعنة.

وفي هذه الساعة التي أهرق فيها دمًا أعز عليه من دمه، اختلجت شفتاه بصلاة ارتفعت إلى السماء، وكانت الأولى التي تَحَرَّكَتَا بها منذ سنين وسنين.

# إدجر أللان بو

## نبيذ الأمونتيللادو

احتملت من «فورتيناتو» ألف مساءة ومساءة، ولكنه اجترأ عليّ بالإهانة، فأقسمت لأنتقمن منه، وأنت يا من تعرف طباعي معرفتها لن تظن بي أني أجريت لساني بتهديد أو نطقت بكلمة وعيد. كلا ... لقد آليت أن أنتقم، ووطنت نفسي على ذلك، وكان هذا مني قرارًا حاسمًا لا رجعة فيه ولا تردد. على أن هذه الصبغة النهائية لما اعتزمته استوجبت أن أتقي المجازفة. فإنه لا يكفي أن يحل به عقابي، وإنما ينبغي أن أكون في أمان من المخاوف وأنا أفعل ذلك، فإن أخذك المرء بذنب كان منه لا يكون فيه معنى الانتصاف إذا تعقبك منه ثأر؛ كذلك لا يكون الانتصاف انتصافًا إذا عجزت عن جعل الآثم المسيء يدرك ذلك.

ويجب أن يتقرر في الأذهان أني حرصت على أن أتقي كل لفظ أو عمل يحمل فورتيناتو على الشك في حسن نيتي، ومن أجل هذا ظللت أبتسم له كعادتي كلما لقيته، ولم يدرك هو أن ابتسامي الآن إنما هو لما أتخيله من صورته إذ أقدمه قربانًا على مذبح غضبي.

وكان في فورتيناتو هذا موضع ضعف، وإن كان فيما عدا ذلك رجلًا جديرًا بالاحترام، بل مرهوب الجانب أيضًا، وذلك أنه كان يعتز ويباهي بحذقه في تمييز أصناف النبيذ. وقَلَّ من الإيطاليين الحاذق الصادق، ويغلب أن يكون ما يلغطون به من ذلك دعوى يدعونها ليسايروا الزمن ويغتنموا الفرص ويخدعوا أثرياء الإنجليز والنمسويين. وقد كان فورتيناتو دعيًّا كغيره في التصوير وما إليه، أما في الأنبذة المعتقة فكان أستاذًا مخلصًا، ولم يكن بيني وبينه في هذا تفاوت يستحق الذكر، فقد كان لي مثل براعته، وكنت أشتري مقادير عظيمة لِأُعَتّقها كلما تيسر لي ذلك.

وفي إحدى الليالي، عند الشفق، وقد بلغ جنون الناس في موسم المرافع منتهاه، لقيت فورتيناتو، وكان قد أسرف في الشراب قبل ذلك، وكان في ثياب محبوكة التفصيل متعددة الألوان، وعلى رأسه طرطور ذو أجراس، فبلغ من سروري برؤيته أنه خيل إلي أني لن أقضي وطري من مصافحته.

وقلـت لـه: «يـا صديقـي العزيـز، إني سـعيد الحـظ بلقائـك، وتـالله مـا أنـضر وجهـك اليـوم ... لقـد تلقيـت بضعـة دنـان مما يزعمونـه نبيـذ الأمونتيلـلادو ولكـن الشـكوك تسـاورني.»

فقـال: «مـاذا ...؟ أمونتيلـلادو؟ ... مسـتحيل ... وفي منتصـف موسـم المرافـع أيضًـا؟ ...»

قلـت: «إني عظيـم الشـك أيضًـا، ولكنـي لغفلتـي أديـت الثمـن الـوافي لهـذا الـشراب قبـل أن أرجـع إليـك وأستشـيرك، غـير أني لم أعثـر عليـك، وخفـت أن تفلـت منـي الفرصـة.»

فجعل يتمتم: «أمونتيللادو ...؟»

قلت: «إني أشك فيه.»

فظل يتمتم: «أمونتيللادو؟»

فقلت: «لا بد أن أتبين.»

فعاد يتمتم: «أمونتيللادو؟»

قلـت: «ولمـا كنـت أنـت مشـغولًا فسـأذهب إلى لوشـيزي فإنـه ذوَّاق، ولا شـك أنـه سـيجلو لي ...»

فقال مقاطعًا: «إن لوشيزي لا يستطيع أن يميز النبيذ الأبيض من نبيذ الأمونتيلادو!»

قلت: «ومع ذلك يزعم الجاهلون أن ذوقه كذوقك!»

قال: «تعال ... امضِ بي ...!»

قلت: «إلى أين؟»

قال: «إلى أقبيتك.»

قلت: «كلا يا صديقي، فلن أستغل طيب قلبك، وإني أستطيع أن أرى أنك على موعد، وفي لوشيزي ...»

قال: «لست مرتبطًا بشيء ... تعال.»

قلت: «لا يا صديقي فإني أرى أنك مصاب ببرد شديد، والأقبية لا تطاق رطوبتها، وجدرانها مغطاة بطبقة من الأملاح.»

قال: «فلنذهب على الرغم من هذا البرد، فما هو بشيء ... أمونتيلادو ...؟ لقد ضحكوا عليك وخدعوك ... أما لوشيزي فإنه يعجز عن تمييز هذا من النبيذ الأبيض!»

ولـف ذراعـه بذراعـي، فأرخيـت عـلى وجهـه قناعـًا مـن الحريـر الأسـود، وضممـت شـملتي وتركتـه يمـضي مسرعـًا إلى قـصري.

ولم يكـن في القـصر خـدم، فقـد ولـوا جميعـًا ليقصفـوا احتفـالًا بالعيـد، وكنـت قـد أخبرتهـم أني لن أعـود إلا في الصبـاح وأمرتهم أمـري صريحًـا ألا يبرحـوا القـصر، وكنـت عـلى يقـين مـن أن هذا الأمـر وحـده كاف لإغرائهـم بالخـروج متـى أوليتهـم ظهـري.

وتناولـت مشـعلين ناولـت فورتيناتـو أحدهمـا وتخللـت بـه حجـرات عـدة، حتـى بلغنـا العقـد المفـضي إلى القبـو، ونزلنـا سـلمًا طويـلًا متلويًـا، وأنـا أرجـو منـه أن يأخـذ حـذره وهـو يتبعنـي حتـى بلغنـا الدرجـة الأخـيرة، ووقفنـا معـًا عـلى الأرض الرطبـة في مقـبرة «آل مونتريـزور.»

وكان صاحبـي يترنـح قليـلا في مشـيته، وكانـت أجـراس طرطـوره تتلاقـى وهـو يخطـو فتكـون لهـا رنـة.

وسألني: «أين الدنان؟ ...»

قلـت: «إنهـا عـلى مسـافة مـن هنـا ... ولكـن انظـر هـذا البيـاض الملتمـع على جـدران هـذه المغـارة.»

فالتفـت إلي وأتـأرني النظـر بعينين كأن عليهـما غشـاءً مـن سـمادير

السكر[1].

وسأل أخيرًا: «أملاح؟ ...!»

قلت: «نعم، ولكن منذ متى هذا السعال؟»

فراح يسعل، وظل المسكين دقائق كثيرة لا يستطيع أن يجيب مما أخذه من سعاله، ثم قال أخيرًا: «إنه لا شيء!»

فقلت بلهجة حازمة: «اسمع، سنعود أدراجنا، إن صحتك غالية، وأنت غني ومحبوب وعزيز مكرم وسعيد أيضًا، كما كنت أنا في بعض ما خلا من العمر ... ومثلك يفتقد ... أما أنا فأمري على خلاف ذلك، فسنعود إذن، فإني أخاف أن يثقل عليك الداء ولست أستطيع أن أبوء بهذه التبعة، ثم إن هناك لوشيزي ...»

فقال: «كفى، إن هذا السعال لا شيء، ولن يقتلني، كلا، لن تميتني سعلة.»

قلت: «صدقت، وما كان قصدي أن أثير مخاوفك ووساوسك بلا موجب، ولكن عليك أن تحاذر، ولعل كرعة روية من نبيذ الميدوك هذا يقينا شر الرطوبة.»

١ - السمادير ما يتراءى للإنسان من السكر.

وضربت عنق قارورة أخرجتها من صف طويل من القوارير القائمة على الأرض الرخوة وقدمتها إليه وقلت: «اشرب» فرفعها إلى شفتيه وعينه تومض فيها معاني السرور والظفر، وهز رأسه إلى فرنت أجراس طرطوره وقال: «إني أشرب نخب المدفونين الراقدين هنا.»

فقلت: «وأنا أشرب متمنيًا لك عمرًا مديدًا.»

وعاد إلى ساعدي فتناوله واستأنفنا السير.

وقال: «إن هذه الأقبية طويلة.»

قلت: «لقد كان آل مونتريزور كثيرين وسادة.»

قال: «لقد نسيت شارتكم!»

قلت: «قدم عظيمة من الذهب في حقل لازوردي، والقدم تدوس حيَّة قائمة وناباها مغروزان في الكعب!»

قال: «وشعاركم؟ ...!»

قلت: «لا أمن لمن يستفزني.»

قال: «حسن.»

وكانت عينه تلتمع من فعل النبيذ، والأجراس ترن، وكان الشراب قد طار في رأسي أيضًا فنشط خيالي، وكنا قد اجتزنا جدرانًا تكدست إلى جانبها العظام، واختلطت بالدنان والرواقيد والخوابي، حتى بلغنا أقصى أركان المقبرة، فوقفت وتشجعت وقبضت على ذراعه من فوق المرفق وقلت:

«هذه الأملاح ... انظر ... إنها تزداد على الجدران وتبدو معلقة كالطحلب فإنها تحت مجرى النهر، وقطرات الرشح تجري بين العظام، فلنعد قبل أن تضيع الفرصة، فإن سعالك ...»

فقال: «إنه لا شيء فلنستمر، ولكن هات اسقني أولًا من النبيذ الميدوك.»

فأطرت عنق زجاجة من نبيذ «دي جراف» وناولته إياها فأفرغها في فمه ولمعت عيناه لمعانًا قويًّا، وضحك ورفع يده بالزجاجة إلى فوق مشيرًا بها إشارة لم أفهم لها معنى.

ونظرت إليه مستغربًا، فكرر الإشارة — وكانت فيما يبدو لي مضحكة — فقال: «ألا تفهم؟»

قلت: «لا ...»

قال: «إذن أنت لست من العشيرة؟»

قلت: «ماذا تعني؟»

قال: «لست من عشيرة البنائين (الماسون).»

قلت: «نعم، نعم، أنا منهم!»

قال: «أنت؟ بناء ...؟ مستحيل ...»

قلت: «بناء.»

قال: «هات أمارة.»

قلت: «هذه هي.»

وأخرجت له مِسجَّة[2] من ثنايا عباءتي.

فقال وهو يتراجع بضع خطوات: «إنك تمزح، ولكن هيا بنا إلى دنان الأمونتيلادو.»

قلت: «فليكن ما تريد.»

٢ - سج الحائط مسحه بالطين أو نحوه والمسجة التي يطلى بها.

ورددت المسجّة إلى حيث كانت تحت مشملتي وناولته ذراعي ليتأبطها فاتكأ عليها بوزنه ومضينا في طريقنا إلى الأمونتيلادو وسرنا تحت سلسلة من العقود الواطئة، وانحدرنا شيئًا ثم استقمنا ثم عدنا فانحدرنا كرةً أخرى وبلغنا جديرة[٣] طويلة فاسدة الهواء حتى لكان المشعلان يتوهجان ولا يرتفع لهما لسان.

وكان في أقصى هذه الجديرة أخرى أضيق منها، وكانت جدرانها قد رصت إلى جانبها العظام البشرية وارتفعت على مستواها إلى العقد على نحو ما في المقابر الكبرى في باريس. وكانت ثلاثة من جدران هذا المخبأ الداخلي مزدانة على هذه الصورة، أما الجدار الرابع، فقد سقطت عنه العظام واختلطت على الأرض وصار بعضها كومًا. ورأينا من فرجة في الحائط الذي انكشف لنا بسقوط العظام عنه مخبأ داخليًّا آخر يبلغ طوله أربع أقدام، وعرضه ثلاث أقدام وارتفاعه من ست أقدام إلى سبع. ولم يكن فيما يبدو متخذًا لغرض خاص، وإنما كان فرجة بين عمادين ضخمين يحملان سقف المقابر، وكان آخره أحد حيطانها المبنية من الصخر الأصم.

وعبثًا حاول فورتيناتو أن يرفع مشعله ليرى آخر هذا المخبأ فما كان هذا الضوء الخافت ليساعد على الرؤية.

٣ - الجديرة: مجموعة من الصخور.

وقلـت لـه: «امـش فـإن هنـا دنـان الأمونتيلـلادو. أمـا لوشـيزي ...»

فقـال مقاطعًـا: «إنـه جهـول.» وخطـا إلى الأمـام في اضطـراب وأنـا في أثـره، ومـا لبـث أن بلـغ آخـر المخبـأ، وألفـى الصخـر يحـول دون المضي، فوقـف مذهـولًا كالأبلـه، ومـا هـي إلا هنيهـة حتـى كنـت قـد قيدتـه إلى الصخـرة، وكان عـلى وجههـا حلقتـان مـن حديـد تتـدلى مـن إحداهمـا سلسـلة قصـيرة ومـن الأخـرى قفـل. ولم أحتـج إلى أكثـر مـن ثـوان قليلـة لأشـد السلسـلة عـلى خـصره وأثبتهـا في القفـل، وكان هـو مـن فـرط الذهـول لا يقـاوم.

ونزعـت مفتـاح القفـل وتراجعـت خارجًـا مـن المخبـأ وأنـا أقـول: «أرح كفـك عـلى الحائـط فلـن يسـعك إلا أن تحـس الأمـلاح. والحـق أنـه مـكان رطـب جـدًّا. فاسـمح لي مـرةً أخـرى أن أناشـدك أن ترجـع ... لا؟ إذن لا يسـعني إلا أن أدعـك ومـا آثـرت لنفسـك، غـير أني سـأؤدي لـك قبـل رحيـلي كل مـا يدخـل في طوقـي.»

فصاح: «الأمونتيللادو.» وكان لا يزال في ذهوله لم يفق منه.

فقلـت: «صحيـح ... الأمونتيلـلادو.» وأقبلـت وأنـا أقـول ذلـك

على كـوم العظـام الـذي أسـلفت ذكـره فنحيتـه وكشـفت عـن حجـارة وطـين. وبهـذا وتلـك — وبفضـل المسـجّ الـذي كان معـي — شرعـت أبنـي المخبـأ وأسـده.

ولم أكـد أفـرغ مـن أول مدماك[٤] حتـى تبينـت أن فروتيناتـو قـد راحـت سـكرته إلى حـد كبـير وكان أول مـا دلنـي عـلى ذلـك أنـين خافـت مـن أعـماق المخبـأ، ولم تكـن هـذه بأنّـة رجـل سـكران، وأعقـب ذلـك سـكون طويـل، ورفعـت المدمـاك الثـاني ثـم الثالـث ثـم الرابـع فسـمعت صـوت السلسـلة وهـو يجاهـد بعنـف أن يفكهـا، وظلـت هـذه الضجـة دقائـق عديـدة كففـت في أثنائهـا عـن العمـل وقعـدت عـلى العظـام لأنصـت. وانقطـع الصـوت فعـدت إلى العمـل وبنيـت المدمـاك الخامـس فالسـادس فالسـابع بـلا شـاغل. وصـار الجـدار الـذي أرفعـه محاذيًـا لصـدري فتوقفـت مـرةً أخـرى ورفعـت المشـعل فـوق البنـاء فـأراق ضـوءه الضعيـف عـلى الرجـل. وفي هـذه اللحظـة أطلـق فورتيناتـو سلسـلة صيحـات حـادة فاجـأني بهـا فأحسسـت أني رُددت إلى الـوراء، فـترددت لحظـة قصـيرة واضطربـت أيضًـا وجـردت خنجـري مـن قرابـه ورحـت أضرب بـه داخـل المخبـأ، ولكـن التفكـير السريـع أعـاد إلى نفـسي الاطمئنـان فوضعـت يـدي عـلى البنـاء المتـين وأحسسـت بالارتيـاح والـرضى. وعـدت إلى الحائـط الـذي أرفـع بنـاءه وأجبـت الصـارخ مـن ورائـه ... رجّعـت صـدى صوتـه ... أعنتـه ... بذذتـه بأعـلى مـن صياحـه وأشـد ... فقـرت الضجـة وعـادت السـكينة.

٤ - المدماك الصف من الحجارة المبنية، ولفظه عربي صحيح.

وكان الليل قد انتصف وقارب عملي ختامه، فقد أتممت المدماك الثامن فالتاسع فالعاشر، ولم يبق على تمام الحادي عشر إلا حجر واحد أضعه في مكانه وأمسح عليه، فحملته بجهد وشرعت أضعه، ولكن ضحكة ضعيفة ارتفع بها الصوت إليّ من أعماق المخبأ، فوقف لها شعر رأسي، وتلاها صوت حزين كان من العسير أن أصدق أنه صوت فورتيناتو النبيل، وكان الصوت يجري هكذا: «ها ها ها ... هي هي ... يا لها من فكاهة ... مزحة ظريفة جدًّا ... سنضحك كثيرًا حين نعود إلى القصر ... ها ها ها ... على الشراب ... ها ها ها.»

فقلت: «الأمونتيللادو.»

فردد ضحكته وكلمتي: «هي هي ... ها ها ها ... نعم الأمونتيللادو ... ولكن ألسنا قد تأخرنا جدًّا ...؟ سيطول عليهم الانتظار في القصر ... السيدة فورتيناتو والبقية ... فلنذهب.»

قلت: «نعم فلنذهب.»

فصاح: «أستحلفك بالله يا مونتريزور.»

فقلت: «نعم أستحلفك بالله.»

وعبثًا انتظرت أن أسمع جوابًا لهذا، فضجرت وصحت: «فورتيناتو»، فلم أسمع جوابًا، فصحت مرة أخرى «فورتيناتو.»

فلم يتأد إليّ صوت، فدفعت يدي بالمشعل من الفرجة الضيقة الباقية وتركته يقع، فلم أسمع سوى رنين الأجراس، فأحسست بقلبي يعصره شيء، من جراء الرطوبة في هذه المقبرة. فأسرعت وأتممت عملي وثَبَّتُ الحجر الأخير في مكانه وطليته بالطين، ثم رصصت على البناء الجديد العظام القديمة، وقد مضى نصف قرن لم يزعجها فيه شيء.

# تشارلز ديكنز

## شجرة الميلاد

## ثلاثة أفرع

### (١) الفرع الأول: «نفسي»

احتفظت بسر واحد في حياتي، ذلك أني رجل حيي. وما من أحد يخطر له ذلك، وما من أحد خطر له ذلك، وما من أحد يمكن أن يخطر له ذلك، ولكني بطبيعتي رجل حيي. وهذا هو السر الذي لم تضطرب به شفتاي قبل اليوم.

وفي وسعي أن أحرك نفس القارئ ببيان الأماكن العديدة التي اتقيت أن أذهب إليها، والناس الكثيرين الذين اجتنبت أن أزورهم أو أن أستقبلهم، وما اضطررت أن أتحاماه من المجتمعات لا لسبب سوى أني بطبيعة تكويني، وما بنيت

عليه فطرتي، رجل حيي. غير أني أؤثر أن أدع نفس القارئ ساكنة، وأن أمضي إلى غايتي.

وغايتي هي أن أروي ما كان من رحلتي إلى فندق شجرة الميلاد، وما وقفت عليه فيه هناك حيث ضرب عليّ الجليد نطاقًا. وكان ذلك في عام ستظل ذكراه باقية، فارقت فيه «أنجيلا ليث» إلى غير رجعة، وكنت أهم بزواجها، فعلمت أنها تؤثر صديقي الحميم «إدوين»، وكنت منذ عهد التلمذة أقر له فيما بيني وبين نفسي بالتفوق والمزية والرجحان. وقد حز في نفسي تفضيلها له ولكني لم يسعني إلا أن أدرك أن الأمر طبيعي، فحاولت أن أصفح عنهما، وانتويت الرحيل إلى أمريكا، في طريقي إلى الشيطان.

ولم أفض بشيء مما علمت إلى أنجيلا أو إدوين، وقلت أبعث إلى كل منهما بكتاب أضمنه دعائي لهما وعفوي عنهما، ويحمله عامل السفينة إلى صندوق البريد، على حين أكون أنا موليًا وجهي شطر العالم الجديد — أقول إني دفنت حزني في صدري، وعزيت نفسي بما وطنتها عليه من التسامح والمروءة، وفارقت كل ما هو عزيز عليّ، وشرعت في هذه الرحلة الموحشة التي أسلفت الإشارة إليها.

وكان الشتاء على أشد ما يكون قرصًا حين غادرت بيتي

إلى الأبد، في الساعة الخامسة صباحًا. ولا أحتاج أن أقول إني حلقت ذقني على ضوء شمعة، وإن البرد كان يهرؤني هراءة شديدة، وإني كنت أحس كأني قمت من النوم لأشنق، وهو إحساس مقترن عندي بالنهوض قبل الأوان في مثل هذه الأحوال.

وما زلت أذكر جهامة «فليت ستريت»، لما خرجت إليه من حي «التمبل» وكانت ألسنة المصابيح تضطرب من زفيف الرياح النكباء، حتى لكأن الغاز نفسه قد تقبض من البرد. وكنت أرى أعالي البيوت البيضاء، وصفحة السماء المقرورة، والنجوم فيها خفاقة اللمعان، والساعين إلى الأسواق وغيرهم من المبكرين وهم يهرولون ليدور في عروقهم الدم الذي كاد يجمد، وألمح الضوء، وأكاد أحس الدفء من المقاهي القليلة المفتوحة لأمثال هؤلاء الزباين، ولا يسعني إلا أن أشعر بالبَرَد الذي كان الهواء يجلد به وجهي كالسوط.

وكان باقيًا على نهاية الشهر وختام العام تسعة أيام، وكانت السفينة الذاهبة إلى الولايات المتحدة ستغادر ميناء «ليفربول» — إذا كان الجو ملائمًا — في اليوم الأول من الشهر التالي، فأمامي فسحة من الوقت، فخطر لي أن أزور مكانًا (لا داعي لذكر اسمه) على الحدود القصوى لمقاطعة

يوركشير. يذكّرنيها دائمًا، ويحببها إليّ أني التقيت فيها أول ما التقيت بأنجيلا في بيت ريفي، وقد أحسست أن مما هو خليق أن يخفف لواعجي، أن أودع هذا المكان قبل أن أنفي نفسي، ويحسن أن أقول هنا إني أردت أن أمنع البحث عني قبل إمضاء عزمي، فكتبت إلى أنجيلا ليلًا قبل رحيلي — كما كانت عادتي — أقول لها إن عملًا لا يحتمل الإرجاء، ستعرف تفاصيله فيما بعد، استوجب سفري وغيابي أسبوعًا أو عشرة أيام.

ولم تكن السكة الحديدية الشمالية قد مُدت في ذلك الحين، وكان الانتقال والسفر بالمركبات التي أراني أحيانًا — كغيري من الناس — أتكلف الأسف على زوال عهدها، وإن كان كل امرئ يفرق من ركوبها ويعده عذابًا غليظًا. وكنت قد احتفظت بمقعد إلى جانب الحوذي على أسرع هذه المركبات، وكان همي الآن أن أركب شيئًا ومعي حقيبتي إلى نزل «البيكوك» في أسلنجتون وهناك أنضم إلى الركب. ولكن الحمال الذي كانت معه حقيبتي روى لي أن كتلًا عظيمة من الجليد سابحة منذ بضعة أيام في النهر تلاقت في الليل وصارت معبرًا في النهر من «حدائق التمبل» إلى شاطئ «ساري»، فلما سمعت هذا رحت أسأل نفسي «أليس مقعدي إلى جانب الحوذي خليقًا أن يضع نهاية سريعة مقرورة لشقائي؟» ولا شك أني كنت محزونًا كسير القلب، ولكني لم أكن قد بلغت من ذاك مبلغًا يرغبني في الموت بردًا.

ولما بلغت نزل البيكوك — حيث ألفيت كل امرئ يحتسي شرابه حارًّا التماسًا للمحافظة على الذات — سألت هل في المركبة مقعد داخلي؟ على أني تبينت أني — في الداخل والخارج — الراكب الوحيد. وكان هذا مما زاد شعوري بشدة الشتاء وسوء الجو، فقد كان الإقبال على هذه المركبة خاصة عظيمًا. واحتسيت شيئًا من الشراب ألفيته سائغًا جدًّا، وركبت فغطوني بالقش إلى وسطي، وبدأت رحلتي وأنا شاعر بما في منظري من بواعث الإضحاك والسخرية.

وغادرنا «البيكوك» والدنيا ما زالت ملفوفة في مثل الشملة من الظلام، وكانت أشباح البيوت والأشجار تبدو غائمةً باهتة كأنها منظورة من خلال الضباب ثم طلع النهار جامدًا أسود مصرورًا. وكان الناس يضرمون النار في مواقدهم والدخان يرتفع مستقيمًا ذاهبًا في طبقات الهواء الرقيق، ونحن نقرقر بمركبتنا إلى «هايجيت ارشوي» على أوعر أرض رن عليها حافر. ودخلنا في الريف فخيل إليّ أن كل شيء قد شاخ وعلته شيبة — الطرق والأشجار والسقوف والبيادر — وقد ترك الناس العمل خارج البيوت، وتجمد الماء المعد لشرب الجياد، وخلت الطرق من العابرين، وأحكم إيصاد الأبواب، وعلت ألسنة النار في بيوت الحراس الصغيرة، وجعل الأطفال (حتى الحراس لهم أطفال ويبدو عليهم أنهم يحبونهم) يمسحون الغيم عن الزجاج بسواعدهم البضة لتأخذ عيونهم اللامعة منظر المركبة الفريدة المارة بهم. ولا

أدري متى بدأ البَرَد يتكاثف، ولكني أدري أننا كنا نغير الخيل في مكان ما فسمعت الحارس يقول إن السماء جادة في إلقاء الثلج علينا، فنظرت فألفيته يسقط علينا بسرعة وكثرة.

وانقضى النهار الموحش وقد نمته كما يفعل المسافر المستفرد، وأحسست بالدفء والقوة والشجاعة بعد الطعام والشراب — ولا سيما بعد العشاء — أما ما خلا أوقات الطعام فإني لا أحس فيه إلا بالانقباض. وكنت ذاهلًا عن الزمان والمكان، وأكاد أكون في غير وعيي. وكانت المركبة والجياد كأنما تشدو بلحن لا ينقطع ولا يختلف حتى لأزعجتني الدقة في ذلك، وبينما كانت الخيل تغيّر كان الحراس يدبدبون وهم يتمشون رائحين غادين، ويتركون آثار أحذيتهم على الثلج ويُفرغون في بطونهم من الشراب مقادير عظيمة لم تؤثر فيهم، فلما دخل الظلام مرةً أخرى اختلط عليّ أمرهم ببرميلين كبيرين هناك. وتعثرت الخيل في مواضع فأنهضناها، وكان هذا خير ما حدث لي وأمتع ما وقع لأنه أشعرني الدفء. وكان الثلج لا يزال يسقط، ويسقط ولا يكف عن السقوط. وظل الحال على هذا المنوال طول الليل. وهكذا دارت الساعة دورتها وعدنا إلى الطريق على أصوات الحوافر والعجلات، بينما كانت السماء ماضية في إلقاء الثلج علينا لا تكف عن ذلك ولا تني أو تفتر.

وقد نسيت أين كنّا ظهر اليوم الثاني، وأين كان ينبغي أن نكون، ولكني أعلم أنّا كنا متأخرين عشرات من الأميال، وأن الحال كان يزداد سوءًا ساعةً بعد ساعة، فقد أخذ الثلج المتساقط يعلو جدًّا والمعالم تختفي فيه، وصارت الطرق والحقول شيئًا واحدًا، وبدلًا من أن تكون هناك حواجز وأسوار تهدينا في سيرنا كنا نخبط فوق سطح أبيض متصل غير منقطع قد يخوننا في أية لحظة فنرتمي على سفح تل. ولكن الحوذي والحارس — وكانا معًا لا ينفكان يتشاوران ويديران عيونهما فيما حولهما — استطاعا أن يسددا خطوات الجياد بدقة مدهشة.

وكنا إذا صارت بلدة على مرأى منا يخيل إليّ أنها تشبه رسمًا كبيرًا على أردواز[٥] وأن الكنائس والبيوت — حيث الثلج أكثف — كانت أوفر حظًّا من التخطيط. وكنا ندنو من البلدة فنلقى ساعات الكنائس كلها قد تعطلت ووجوهها قد غطاها الثلج وأسماء الفنادق قد محيت فيبدو لنا المنظر كأنما هو مكسو بالنبات الأبيض. أما المركبة فقد صارت كرة من الثلج. كذلك الرجال والأطفال الذين كانوا يعدون إلى جانبنا إلى آخر البلدة ويساعدون على إدارة العجلات المرتطمة ويستحثون الجياد اللاهثة — هؤلاء أيضًا كانوا في رأي العين رجالًا وأطفالًا من الثلج. أما البيداء الموحشة التي تخلفوا عنا على تخومها فقد كانت صحراء

٥ - الأردواز: صخر أزرق أو أخضر.

ثلجية. وكان المرء معذورًا إذا توهم أن الطبيعة بلغت غاية مجهودها، وأنه ليس فوق ما صنعت زيادة لمستزيد، ولكني أقسم أن السماء ظلت تثلجنا وتثلجنا ولا تزال تثلجنا ولا تكف أو تني عن ذلك أو تفتر.

ولبثنا على هذا الحال النهار كله لا نرى شيئًا خارج البلدان والقرى غير الآثار التي يتركها القاقم والأرنب والثعلب والطير أحيانًا. وفي الساعة التاسعة ليلًا نبهتني نفخة مرحة في بوق المركبة وأصوات أناس تستبشر بها النفس وحركات مصابيح وإذا نحن قد وقفنا في ساحة من أرض يوركشير لتغيير الخيل.

وساعدوني على النزول فقلت لخادم صار رأسه العاري أبيض كرأس الملك لير في دقيقة واحدة: «أي فندق هذا؟»

قال: «فندق شجرة الميلاد.»

فالتفت إلى الحوذي والحارس بهيئة المعتذر وقلت: «أظن أنه لا بد لي أن أتخلف هنا.»

وكان صاحب الفندق وامرأته وكل من في المكان من خدم وعمال قد سألوا السائق على مرأى ومسمع من بقية

من هناك من المتطلعين المتلهفين على الجواب: هل ينوي أن يستأنف السفر فكان جوابه: «نعم سأمضي بها (يريد المركبة) إذا لم يتخل عني جورج.» وكان جورج هذا هو الحارس وكان قد أقسم أن يظل معه. ولهذا راح الرجال يخرجون الخيل.

ولم يكن إقراري بالهزيمة بعد هذا الحديث إعلانًا بغير تمهيد، بل الواقع أنه لولا أن مهد لي الحديث طريقي إلى إعلان عزمي لكان من المشكوك فيه — وأنا رجل حيي — أن أجترئ على ذلك. على أن رغبتي قوبلت بالرضى حتى من الحارس والحوذي. ولهذا وبعد أن عززت رغبتي وسمعت ملاحظات شتى من بعض الواقفين وهم يتحادثون، ومن بينها أن: «السيد يستطيع أن يسافر مع البريد غدًا. أما الليلة فليس أمامه إلا أن يموت بردًا. وأي خير في أن يموت امرؤ بردًا؟ آه، ودع عنك دفنه حيًّا! (العبارة الأخيرة مما زاده رجل هزّال على سبيل المزاح، على حسابي، وقد قوبلت أحسن مقابلة).

أقول إني، بعد ذلك رأيت حقيبتي تخرج من المركبة وكأنها جسم متجمد، وبذلت للحوذي والحارس ما فيه رضاهما وحييتهما وتمنيت لهما رحلة موفقة وسفرًا سعيدًا، ثم تبعت صاحب الفندق وامرأته وخادمه إلى الطبقة الثانية، وأنا خجل من ترك الرجلين يكافحان وحدهما.

وخُيل إليّ أني لم أر في حياتي غرفة في سعة هذه التي مضوا بي إليها. وكان لها خمس نوافذ عليها ستائر حمراء داكنة تستطيع أن تمتص الضوء من زينة عامة، وكانت رءوس هذه الأستار محلاة بضروب معقدة من النسيج ممتدة على الحائط على نحوٍ عجيب. وقد طلبت أن تكون غرفتي أصغر، فقالوا إنه ليس ثمّ ما هو أصغر من هذه ولكن في وسعهم أن يضعوا لي سترًا متحركًا. وجاءوني بستر ياباني عليه صور أناس (يابانيين على ما أظن) يباشرون أعمالًا سخيفة وتركوني أُشوى أمام نار عظيمة.

وكانت غرفتي هذه على مسافة ربع ميل أو حوالي ذلك من بداية دهليز طويل يفضي إليه سلم عظيم. وقل من يدرون أي عذاب يحدثه هذا لِرجل حييّ. يؤثر ألا يلتقي بأحد على درجات السلم. وكانت الغرفة أكلح ما جثم على صدري فيه كابوس. وكان كل ما فيها من أثاث ضخمًا عالي الظهر مستدق الوسط كالمغزل ولا أستثني من ذلك عمد السرير الأربعة والشمعدانيين الفضيين القديمين. وكنت فيها إذا أطللت بوجهي من وراء الستر المتحرك، يهجم عليَّ تيار الهواء كأنه الثور المجنون، وإذا بقيت لا أريم مكاني على مقعدي اشتد عليَّ حر النار وتركتني كالآجرة الجديدة، وكانت الصفّة التي فوق الموقد عالية جدًّا وعليها مرآة سوء، أستطيع أن أقول إنها «متموجة» فكنت إذا وقفت ونظرت فيها أرتني ما ينمو فوق رأسي، وقلما يكون ما فوق

الحاجبين منظرًا حسنًا، وإذا أوليت الموقد ظهري استقبلت قبوًا جهمًا من الظلام فوقي، وفيما وراء الستر لا سبيل إلى تحويل العين عنه، وكانت الأستار العشرة على النوافذ الخمس تتلوى وتمسح الجدران كأنها عش من الديدان العظيمة.

وأحسب أن ما أراه في نفسي لا بد أن يراه في أنفسهم غيري ممن لهم مثل طباعي وفطرتي، ومن أجل هذا أجترئ على القول بأني في أسفاري ما نزلت بمكان قط إلا وددت أن أبادر إلى الخروج منه، فقبل أن أرفع يدي عن عشائي — وكان قوامه دجاجة محمرة ونبيذًا معتقًا ساخنًا — شرحت للخادم بالتفصيل تدابير رحيلي في الصباح: الإفطار ومعه بيان التكاليف في الساعة الثامنة ... والسفر في الساعة التاسعة ... جوادان ... أو إذا احتاج الأمر إلى أكثر فأربعة ...

وكنت متعبًا مكدودًا، ولكن الليل مع ذلك طال علي حتى لكأنه أسبوع. وكنت في فترات الراحة من الكابوس أفكر في أنجيلا. وضاعف شعوري بالهم والحزن أني في مكان على أقصر طريق إلى «جريتنا جرين.» وما لي أنا وجريتنا جرين؟ ... وحدثت نفسي بمرارة أني لست ماضيًا إلى الشيطان عن هذا الطريق، بل عن طريق أمريكا ...

وفي الصباح علمت أن الثلج ظل يسقط طول الليل، ورأيت أنه ما زال يسقط، وأدركت أني في نطاق من الجمد. وما من شيء يستطيع أن يخرج من هذا المكان أو يأتي إليه قبل أن يجيء العمال ويرفعوا الثلج عن الطريق. ومتى يشقونه إلى هذا الفندق؟ لا يعلم أحد.

وصرنا في يوم عيد الميلاد. وهو عيد لا اغتباط لي به في هذا العام في أي مكان على كل حال، فلا قيمة للأمر من هذه الناحية، ولكن احتباسي هنا كان أشبه بالموت بردًا، وهو أمر لم يكن لي في حساب. وأحسست بوحشة. ومع ذلك لم أستطع أن أقترح على صاحب الفندق وامرأته أن يأذنا لي في مجالستهما (وكان هذا خليقًا أن يسرني) كما لا أستطيع أن أطلب إليهما أن يهديا إليّ شيئًا من الآنية! وها هنا محل الإشارة إلى سري الأكبر، وأعني به أني رجل شديد الحياء بالفطرة، ومن عادة الرجل الحيي أنه يتوهم أن غيره مثله. لهذا خجلت أن أرجو منهما أن يضماني إلى مجلسهما، بل كبر في وهمي أن هذا قد يحدث لهما ارتباكًا شديدًا.

لهذا بدا لي أن خير ما أصنع هو أن أستقر في غرفتي، فسألت هل هنا شيء يقرأ؟ فجاءني الخادم بكتاب عن الطرق، وصحيفتين أو ثلاث قديمة، وكتاب أغان صغير، ينتهي بمجموعة من «الأنخاب» وكتاب نكت، ونسخة قديمة

من «بريجرين بيكل» و«الرجعة العاطفية» وكنت أعرف كل حرف من الكتابين الأخيرين، ولكني مع ذلك قرأتهما مرةً أخرى، ثم حاولت أن أشدو بالأغاني، ولم تفتني نكتة مما في كتابها، وقد وجدت فيها ذخرًا من الكآبة واءمت حالتي النفسية! واقترحت على نفسي كل الأنخاب المدونة وأعربت عن جميع العواطف المسجلة، وحفظت ما في الجرائد عن ظهر قلب، ولم يكن فيها سوى إعلانات عن بضائع وبيان عن اجتماع وخبر عن حادثة سطو في الطريق. ولما كنت منهومًا بالقراءة فقد التهمت ما أعطونيه قبل دخول الليل، بل لقد فرغت منه كله قبل وقت الشاي، ولم يبق لي إلا ما أستطيع أنا تدبيره لتزجية الوقت، فقضيت ساعة أفكر فيما عسى أن أصنع بعد ذلك. وأخيرًا خطر لي (فقد كان يعنيني أن أنقي من رأسي كل خاطر له صلة بأنجيلا وإدوين) أن أنشر المطوي مما وعته الذاكرة من تجاربي المقترنة بالفنادق، وأنظر أي وقت يذهب في ذلك، فحركت النار وأدنيت كرسيًّا من الستر المتحرك — ولم أجرؤ أن أدنو جدًّا مخافة أن تهجم عليّ الريح المتربصة وراءه، وكنت أسمع صوتها — وبدأت.

أقدم ما أذكر من أمر الفنادق يرجع إلى عهد الطفولة، لهذا كررت راجعًا إلى ذلك العهد واتخذت منه بداية، فألفيت نفسي على ركبة امرأة شاحبة الوجه ضيقة العينين، قنواء الأنف، خضراء الثوب، لا تعرف من الأقاصيص إلا واحدة

عن سري من أهل الناحية كان ضيوفه يختفون بلا سبب، ومضت سنوات ثم ظهر أن همه من حياته أن يصنع من لحومهم «فطيرًا» ولكي يكون تخليه أتم لهذا الضرب من الصناعة وتوفره عليه أرقى أنشأ بابًا سريًّا خلف رأس السرير، فإذا نام الضيف (المتخوم بالفطير) دخل عليه هذا الشرير وفي إحدى يديه مصباح وفي الأخرى سكين وقطع رقبته ثم طبخه وصنع منه فطيرًا. ولهذا اتخذ في موضع مستور تحت السرير مراجل لا تفتأ تغلي. وكان يحدو رقاقه هذا في فحمة الليل، ومع ذلك لم يسلم من وخز الضمير، فما نام قط إلا تمتم «الفلفل كثير» فما لبث أن أسلمته التمتمة إلى العدالة.

وما كدت أفرغ من قصة هذا المجرم حتى تذكرت أخرى من مخلفات ذلك العهد عن رجل كانت صناعته في الأصل السطو على البيوت، وقد جر عليه ذلك صلم أذنه اليمنى في إحدى الليالي بينما كان يهم بالدخول من نافذة، صلمتها له خادمة جميلة قوية القلب (كانت العجوز ذات الأنف الأقنى وإن كانت أبعد خلق الله عن هذا الوصف، تدع السامع يتوهم أنها هي تلك الخادمة الحسناء الجريئة). وبعد سنين عدة زُفت هذه الغيداء الباسلة إلى صاحب فندق وكانت له عادة غريبة هي أنه يلبس قلنسوة من حرير لا ينزعها أبدًا في ليل أو نهار كائنة ما كانت الأحوال. ففي إحدى الليالي نزعت هذه المرأة الجميلة الجريئة قلنسوته عن أذنه اليمنى

فإذا هي مصلومة! فأدركت أنه هو اللص الذي قطعت له أذنه وأنه تزوجها ليفتك بها، انتقامًا منها، فأسرعت إلى السفود أو المحضاء فأحمته وقضت به عليه قبل أن يقضي عليها، فحملوها إلى الملك جورج على عرشه حيث تقبلت منه الثناء الملكي السامي على حكمتها وعقلها وشجاعتها.

وكانت هذه القصاصة العجوز، على ما تبينت من زمان طويل، تجد لذة وحشية في إرعابي وإطارة صوابي من الخوف، وقد روت لي ما زعمته قصة واقعية من تجاربها ولكني أعتقد أنها مولدة من رواية «ريموند واجنز أو الراهبة الدامية» وقد قالت: إن الحادثة وقعت لزوج أختها، وكان على ما ادعت غنيًّا جدًّا، ولم يكن أبي كذلك. وكان يسر هذه العجوز الغولية المزاج أن تعرض أقاربي الأدنين وأصدقائي على عقلي الصغير، في صور مستهجنة. قالت: وكان قريبها هذا يخترق غابة وهو ممتط صهوة جواد أصيل (ولم يكن لنا جواد أصيل) يتبعه ويمشي في ركابه كلب قوي لا يقوَّم بمال (ولم يكن لنا كلب). وأمسى عليه الليل وهو سائر فعرج على فندق ففتحت له الباب امرأة سمراء فسألها: هل يجد عندها سريرًا؟ فقالت: نعم، وأدخلت حصانه الإسطبل ومضت به هو إلى غرفة فيها رجلان أسمران، وبينما كان يتمشى شرع ببغاء، كان في الغرفة، يتكلم ويقول: «الدم! الدم! امسحوا الدم!» فنهض إليه أحد الرجلين الأسمرين ولوى عنقه فمات، وعاد وهو يقول: إنه

يحب الببغاوات المحمّرة، وأنه سيفطر بهذا في الصبح. وبعد أن أكل صاحبنا الغني جدًّا وشرب حتى هنئ صعد لينام، ولكنه كان ساخطًا لأنهم حبسوا كلبه في الإسطبل زاعمين أنهم لا يسمحون بترك الكلاب طليقة في الخان. ولبث ساكنًا أكثر من ساعة يفكر، ولما أشفت شمعته على الفناء سمع صوت حك بالباب ففتحه وإذا بكلبه وراءه، ودخل الكلب على مهل وجعل يشم ثم مضى رأسًا إلى قش في ركن، قال أحد الرجلين الأسمرين: إنه يغطي تفاحًا، ونثر الكلب القش فكشف عن ملاءتين ملوثتين بالدم، وفي هذه اللحظة انطفأت الشمعة، ونظر صاحبنا من ثقب بالباب فألفى الرجلين الأسمرين يصعدان على أطراف أصابعهما ومع أحدهما خنجر يبلغ طوله خمس أقدام، ومع الثاني ساطور وغرارة وفأس. وقد نسيت بقية القصة وأحسب أن الرعب أورثني الخدر وأفقدني القدرة على الإصغاء حوالي ربع ساعة.

وانتقلت من هذه الأقاصيص — وأنا قاعد أمام الموقد في فندق شجرة الميلاد — إلى قصة خان «رودسَيد»، وكيف ضبط صاحبه إلى جانب سرير الضيف المقتول، وسكينه عند قدميه، والدم على يديه. وكيف شنقوه على الرغم من قوله إنه صعد إليه ليقتله ولكنه جمد في مكانه إذ وجده قد ذبح قبل ذلك، وكيف أنه بعد سنين عدة، اعترف خادم الخان بالقتل.

ولما بلغت إلى هنا في نشر المطوي من ذكرياتي، استولى عليّ القلق فنهضت وحركت النار وأوليتها ظهري ولبثت هكذا حتى لم أعد أطيق حرها، وكنت أحدق في الظلام الحالك وراء الستر، وأنظر إلى الستائر التي تتحرك كالديدان في أنشودة «أَلونزو الشجاع وإيموجين الحسناء».

وتذكرت خانًا في البلدة التي دخلت مدرستها، ولما كانت ذكرياته أحلى وأشرح للصدر، فقد تناولتها وأحييتها. كان ذلك خانًا ينزل فيه الأصدقاء وكنا نحن نقصد إليه فيسخو علينا صاحبه بما عنده، وكنت مجنونًا بحب ابنته — ولكن دع هذا — وفي هذا الخان حنت عليّ أختي الصغيرة وهي تبكي لأن عيني ورمت في ملاكمة. وقد ذهبت أختي منذ سنوات طويلات المدد، إلى حيث تجف العبرات، ولكن هذه الذكرى، على بعد مسافة الزمن، عطفت قلبي عليها ورققته لها.

وتناولت شمعتي ومضيت إلى سريري وأنا أقول: «البقية تأتي غدًا.» ولكن سريري تكفل بإبقاء خواطري في هذا المجرى، فألفيتني أُحمل، على مثل البساط المسحور، إلى مكان قصيّ (وإن كان في إنجلترا)، وهناك نزلت من مركبة عند باب خانٍ والسماء تثلجنا. وأعدت وأنا نائم تجربة غريبة وقعت لي بالفعل. ذلك أنه قبل هذه الرحلة التي كرت بي الذاكرة

إليهـا، بأكثـر مـن عـام، تُـوفي صديـق لي كان عزيـزًا عـلي وأثـيرًا عنـدي، فـصرت أراه كل ليلـة في أحلامـي سـواء أكنـت راقـدًا في بيتـي أم في غـيره، وكان يبـدو لي تـارةً كأنـه مـا زال حيًّـا، وطـورًا كأنـه عائـد إليّ مـن عـالم الأرواح والأشـباح ليعزينـي ويسـليني، ولكنـه دائـمًا جميـل، سـاكن، سـعيد، لا يُجـري في البـال أو يحـرك في النفـس أي معنـى مـن معـاني الجـزع والأسـى. وكان الخـان الـذي نزلـت فيـه بعـد ذلـك الحـادث في رقعـة فسـيحة مـن الريـف، وبعـد أن أشرفـت مـن نافـذة غرفتـي عـلى الثلـج الـذي يكسـو الأرض ويضيئـه القمـر، جلسـت إلى جانب الموقـد لأكتب رسـالة. وكنـت إلى تلـك اللحظـة قـد حرصـت عـلى أن أكتـم أني أرى صديقـي العزيـز الـذي فقدتـه، في منامـي كل ليلـة. فدونـت هـذا في الرسـالة التـي كتبتهـا وزدت عـلى ذلـك أني أريـد أن أرى هـل يظـل موضـوع أحلامـي ثابتًـا عـلى الوفـاء لي عـلى الرغـم مـن بعـد الشـقة (في هـذا المـكان) ومـن تعـب السـفر ومجهـوده؟ ... كلا ... فقـدت الخيـال لمـا بحـت بالـسر! ولم تكتحـل بـه عينـي سـوى مـرة واحـدة في سـتة عـشر عامًـا، بعـد ذلـك ... وكنـت في إيطاليـا، فاسـتيقظت (أو خيـل إليّ أني اسـتيقظت) وفي مسـمعي ذلـك الصـوت الـذي لا يُنسـى، كأوضـح مـا يكـون، وأنـا أحدثـه، فتوسـلت إليـه — وهـو يسـمو فوقـي، ويحلـق ذاهبًـا في الهـواء، صاعـدًا إلى قبـة الغرفـة العتيقـة — أن يجيبنـي عـن سـؤال لي عـن الحيـاة الأخـرى. وكانـت يـداي لا تـزالان مبسـوطتين إليـه بالرجـاء والتوسـل لمـا اختفـى. فسـمعت جرسًـا يـدق عـلى كثـب مـن الحديقـة وصوتًـا في سـكون الليـل العميـق

يدعو المسيحيين الصادقين أن يصلوا لأرواح موتاهم ويترحموا عليهم ...

وكان ذلك اليوم، يوم عيد الموتى ...

وأعود إلى فندق شجرة الميلاد الذي أنا فيه، فأقول إني لما استيقظت في صباح اليوم التالي ألفيت الجمد على حاله، والسماء الدانية المسفة تنذر بالمزيد، فأفطرت ثم ارتددت بالكرسي إلى مكانه السابق، واستأنفت ذكريات الخانات ...

كان هناك خان حسن في «ويتشير»، نزلت فيه مرة، وكان ذلك أيام كانت «ويتشير» تصنع جعتها القوية، وقبل أن تفسد الجعة ولا يبقى منها إلا المرارة. وكان الخان على تخوم سهل سالسبري، وكانت رياح الليل التي يخشخش لها شباكي تهب نائحة من «ستونهنج»، وكان هناك خادم أشيب طويل الشعر، عينه زرقاء كأنها حجر الزناد، وكان لا ينفك شاخصًا ببصره مرسلا طرفه إلى بعيد، وكانت دعواه أنه راع قديم، وكان يبدو للناظر أنه يرقب أن يظهر على خط الأفق شبح قطيع من الغنم أكل من أزمنة مديدة. وكان له اعتقاد غريب، هو أنه ما من إنسان يستطيع أن يعد حجارة ستون هنج مرتين، ولا يختلف العدد، وأن من عدها ثلاثًا في تسع ثم وقف وقال: «إني أتحدى» ظهر له شبحٌ هائل فيموت على المكان. وقد ادعى أنه رأى الحُبارى على النحو الآتي:

قـال إنـه خـرج إلى السـهل في مسـاء يـوم في أخريـات الخريـف، فلمـح شـيئًا غامضًـا يحجـل حجلانًا[٦] متقطعًـا فظنـه لأول وهلـة مظلـة مركبـة أطارتهـا الريـح عنهـا، ثـم توضّحـه فاعتقـد أن هـذا قـزم قمـيء عـلى مُهـر صغـير. وراح يتبـع هـذا الـشيء مسـافة، ولا يدركـه، ويناديـه ويهيـب بـه ولا يتلقـى جوابًـا، فجعـل يذنُبـه أميـالًا وأميـالًا، حتـى لحقـه أخـيرًا، فـإذا بـه آخـر حُبـارى في بريطانيـا العظمـى، وقـد انحطـت وفقـدت جناحيهـا وصـارت تمـشي عـلى الأرض! وآلى ليقنصنهـا أو يمـوت، فهجـم عليهـا، ولكـن الحبـارى كانـت قـد اعتزمـت هـي أيضًـا ألا تمـوت وألا يقنصهـا أحـد، فكـرت عليـه وصرعتـه، وشـوهدت بعـد ذلـك تسـير غربًـا. وهـذا الرجـل الغريـب الشـأن لعلـه كان في تلـك المرحلـة مـن تطـوره، ممـن يمشـون وهـم نائمـون، أو لصًّـا، أو غـير ذلـك. ولكنـي استيقظت ليلـة فألفيتـه في الظـلام إلى جانـب سريـري يرتـل بأعنـف صـوت وأقـواه، فدفعـت إلى الخـان حسـابه في اليـوم التـالي ورحلـت عـن المقاطعـة كلهـا بأقـصى مـا يسـعني مـن السرعـة.

وفي خـانٍ صغـير في سـويسرا وقعـت حادثـة ليسـت عاديـة، وأنـا نـازل بـه. وكان الخـان أشـبه بالبيـت، في قريـة ليـس فيهـا إلا زُقـاق ضيـق يلتـوي بالسـالك في الجبـل، وكان المدخـل الرئيـسي للخـان مـن حظـيرة البقـر، ثـم يمـر الإنسـان بالبغـال

**٦ - حجل يحجل حجلاً وحجلانًا، وهو أن يرفع المرء رجلاً ويمشي على أخرى؛ ففي المثنية شيء من الوثب.**

والـكلاب والطيـور قبـل أن يرتقـي في السـلم الكبـير العـاري إلى الغـرف التـي كانـت مصنوعـة مـن خشـب بـلا تمليس أو دهـان أو ورق، فكأنهـا صناديـق للتعبئـة. ولم يكـن هنـاك، فيـما عـدا الخـان، سـوى الزقـاق الملتـوي وكنيسـة صغـيرة ذات قبة نحاسـية اللـون، وغابـة صنوبـر، وغديـر، ثـم الضبـاب وجوانـب الجبـل. وكان في الخـان شـاب اختفـى منـذ ثمانيـة أسـابيع (وكان الوقـت شـتاء) وقيـل، عـلى الظـن، إن حبًّـا لـه خـاب، فانتظـم في سـلك الجنديـة. وذكـروا أنـه نهـض مـن فراشـه في الليـل وألقـى بنفسـه في الزقـاق مـن الغرفـة التـي يشـاركه فيهـا رجـل آخـر. وقـد اسـتطاع أن يتسـلل مـن الفـراش ويثـب مـن النافـذة ويسـقط عـلى الأرض في أتـم سـكينة، حتـى إن زميلـه ورفيقـه لم يسـمع أي صـوت، وظـل مسـتغرقًا في نومـه العميـق حتـى أيقظـوه في الصبـاح وسـألوه: «لويـز، أيـن هنـري؟» وراحـوا يبحثـون عنـه في كل مـكان، ثـم يئسـوا فأقصروا. وكان هنـاك أمـام الخـان — ككل مسـكن في القريـة — كـوم مـن خشـب الوقـود، ولكـن كـوم الخـان كان أعـلى وأكـبر مـن غـيره مـن الأكـوام، لأن الخـان كان أكـبر المنـازل وأثراهـا وأحوجهـا إلى الوقـود الكثـير، وقـد لوحـظ، أثنـاء البحـث عـن الغائـب، أن ديـكًا مـن ديكـة الخـان كان يـدع رفاقـه ويزهـد في معـاشرة الدجاجـات، ويأبـى إلا أن يصعـد إلى قمـة كـوم الخشـب، ويظـل هنـاك سـاعات وسـاعات وهـو يصيـح حتـى ليـكاد ينشـق ويتفطّـر. ومضـت خمسـة أسـابيع، وانقـضى الأسـبوع السـادس، وهـذا الديـك الفظيـع لا يـزال يهمـل واجباتـه البيتيـة، ولا يكـف عـن الارتقـاء إلى

قمة الكوم، ولا يفتر عن الصياح وإن كانت عيناه تكادان تخرجان من قوة الصوت وعنفه. ولوحظ في ذلك الوقت أيضًا أن لويز امتلأ قلبه بغضًا لهذا الديك الفظيع وسخطًا عليه، ففي صباح يوم رأته امرأة كانت جالسة إلى نافذتها في خيط من أشعة الشمس الفاترة، تعالج غدتها الدرقية، أقول رأته هذه المرأة يتناول جذلًا من الحطب، وهو يسب ويلعن، ويرمي به الديك الصائح على رأس الكوم فيقتله. وفي هذه اللحظة انبثق النور في رأس المرأة فخفّت إلى الكوم من الخلف، وكانت تحسضن التسلق كغيرها من نساء هذه الناحية، فارتقت إلى رأس الكوم وصوبت عينها ثم انطلقت تصرخ وتصيح: «اقبضوا على لويز القاتل!» وقد رأيت هذا القاتل في ذلك اليوم. وإني لأراه الآن وأنا جالس بجوار الموقد في فندق شجرة الميلاد، وهو مقيد بالحبال وملقى على القش في الإسطبل، وعليه عيون البقر الوديعة، وأنفاسها المتدخنة، وهو ينتظر مقدم البوليس، ويتلقى نظرات السخط من أهل القرية. وكان وهو ملقى في الحظيرة يبدو لي أنه حيوان غليظ — بل إنه أبلد ما في الإسطبل — رأس سخيف، ووجه هو كتلة من البهيمية، ولا أثر هناك لإحساس. وقد كان الشاب المقتول يعلم أن قاتله اختلس مبالغ شتى صغيرة من مال سيده، فيظهر أنه لجأ إلى وسيلة القتل ليخلو له وجه حياته من هذا الذي قد يتهمه يومًا ما، بما يعلم. وقد اعترف القاتل بهذا كله في اليوم التالي كأنما أراد أن يفرغ من الأمر كله بعد أن قبضوا عليه وانتووا أن يقتصّوا منه. ورأيته

مـرةً ثانيـة يـوم رحلـت مـن الخـان. ولا يـزال السياف في هـذه الناحيـة يعمـل عملـه بالسـيف، وقـد رأيـت هـذا القاتـل قاعـدًا عـلى كـرسي ومشـدودًا إليـه، فـوق منصـة في سـوق صغـيرة، وكانـت عينـاه معصوبتـين، ثـم لمـع سـيف صقيـل مـاض «نصلـه مسـقى بالزئبـق» وخفـق حولـه كالريـح أو النـار، فلـم يبـق وجـود لمخلـوق كهـذا في الدنيـا. ولم يكـن عجبـي مـن سرعـة العصـف بـه، بـل مـن أن رأسًـا مـن هـذه الـرءوس المحيطـة بالمـكان لم يقطفـه هـذا السـيف البتّـار وهـو يقطـع الهـواء!

وثـم خـان حسـن آخـر نزلـت بـه في ظـل «مونـت بلانـك» صاحبتـه طيبـة القلـب بسـامة الثغـر أبـدًا، وبعلهـا رجـلٌ تقـي مسـتقيم السـيرة، وكانـت الجـدران في إحـدى غرفـه مكسـوة ورقًـا عليـه صـور حيـوان، ولكـن الـورّاق لم يُعـن نفسـه بالإحـكام والدقـة في وصـل قطـع الـورق بعضهـا ببعـض، فصار للفيـل ذيـل النمـر ورجـلاه، وللأسـد خرطـوم الفيـل ونابـاه، وللـدب صـورة الفهـد! وقـد صادفـت كثيريـن مـن الأمريكيـين في هـذا الفنـدق وكانـوا جميعًـا ينطقـون اسـم الجبـل «مونـت بلانـك» «ماونـت» مـا خـلا واحـدًا منهـم سريّ النفـس حسـن العـشرة رقيـق الحاشـية، اتخـذ مـن الجبـل صديقًـا لا حاجـة معـه إلى التكلـف، فـكان يقتـصر عنـد ذكـره عـلى «بلانـك» فيقـول عنـد الإفطـار مثـلًا: «بلانـك يبـدو اليـوم عاليًـا جـدًّا.» أو يكـون في المسـاء وهـو يتمشـى في الفنـاء فيعـرب عـن اعتقـاده أن في بـلاده بعـض الأقويـاء المغامريـن الذيـن يسـتطيعون أن يتسـلقوا «بلانـك» ويصلـوا إلى ذروتـه في سـاعتين.

وقضيت مرة أسبوعين في خان بشمال إنجلترا حيث لازمني شبح فطيرة مهولة. وكانت كالقلعة إلا أنها قلعة مهجورة خاوية، ولكن الخادم كان يرى أن من الأصول التي ينبغي أن تُرعى في كل وجبة أن يضع الفطيرة على المائدة، وبعد بضعة أيام رأيت أن أفهمه بأساليب شتى رقيقة أني أعد هذه الفطيرة مفروغًا منها ولا محل لها على السفرة، فكنت أصب فيها سؤر الكأس وأضع في جوفها أطباق الجبن والملاعق كأنها سلة، أو زجاجات النبيذ كأنها ثلاجة، وكان هذا كله مني عبثًا وعناء باطلا لا يجدي، فقد كانت الفطيرة تنظف وتعاد إلى مكانها المألوف، فشككت في أمري وخيل إليّ أني لعلي مصاب بهذيان العين، وأشفقت أن تضعضع صحتي وتهد كياني أهوال هذه الفطيرة المتخيلة فتناولت السكين وقطعت منها مثلثًا عظيمًا. وما كان في وسع إنسان أن يرى ما سيكون من وراء أستار الغيب، ولكن الخادم عالج الفطيرة وأصلحها ورمّها، واستعان بنوع من الملاط ورد المثلث إلى مكانه، فأديت الحساب وفررت!

وكان فندق شجرة الميلاد قد أخذت الجهامة تستولي عليه فقمت برحلة إلى ما وراء الستر وذهبت إلى النافذة الرابعة، ولكن الرياح ردتني منهزمًا، فعدت إلى مشتاي مرة أخرى وأضرمت النار، واستأنفت نشر ما انطوى من ذكريات الفنادق.

هو خان في أقصى مقاطعة كورنول. وكان المعدنون يحتفلون فيه بعيد سنوي لهم، فأقبلت أنا وزملائي المسافرون ليلًا على الجمع المائج وهم يرقصون أمام الخان على نور المشاعل. وكانت مركبتنا قد أصابها عطب في مكان صخري على مسافة أميال، فكان من دواعي الشرف لي أن قدت أحد الجياد المحلولة. وإذا كُتب لسيد أو سيدة، ممن يقرءون هذه السطور، أن يقود حصانًا ضليعًا عاليًا تتدلى رُبُطه وسُموطه وأبازيمه[٣] إلى قوائمه، وأن يمضي به وفي يده عنانه ويدخل به على حفلة راقصة ريفية فيها مائة وخمسون زوجًا من المتراقصين، فإن هذا السيد — أو السيدة — يستطيع حينئذ — وحينئذ فقط — أن يتصور كيف يدوس الحصان قدمي قائده! والأرجح أن يرتد الحصان متهيبًا حين يرى ثلاث مائة من الرجال والنساء يدورون أمامه، وقد يرفس ويضرب برجليه أيضًا على نحو لا يحفظ لقائده سمتَه وأبهته. وعلى هذه الصورة التي نالت قليلًا من وجاهة مظهري العادي، بدوتُ أمام الخان فكنت موضع عجب القوم جميعًا. وكان الخان غاصًّا، بل كان فيه عشرون ضعفًا لسعته ولا سبيل إلى إيواء مخلوق فيه غير الحصان — وإن كان ربحًا ولا شك أن يتخلص المرء من هذا الحيوان الكريم — فوقفنا نتشاور أنا وزملائي في الأمر وكيف نقضي الليل وأكثر النهار الذي سيطلع إلى أن يكون الحداد المرح، والنجار المرح، على حال تسمح لهما بالسير إلى حيث تركنا المركبة لإصلاحها، فخرج علينا رجل من الزحام وعرض علينا طابقًا من بيته ذا

غرفتين ووعد أن يكون عشاؤنا لحم الخنزير والبيض وشرابنا عليه الجعة، فتبعناه فرحين إلى أنظف بيت نعمنا فيه بالطعام والشراب. ولكن الطريف في الأمر أن صاحب البيت نجار يصنع الكراسي، وأن الكراسي التي قُدمت لنا كانت هياكل ليست لها مقاعد، فقضينا الوقت على أطرافها وحافاتها مثنيين إلى الأمام، ولم يكن هذا أسخف ما جربنا، فقد كان أحدنا إذا نسي واعتدل، أو ضحك وارتمى إلى الوراء، يختفي ويغيب. وقد سقطتُ، ونحن نأكل اللحم والبيض على ضوء الشمعة، خمس مرات وانطويت على نفسي انطواءً لا سبيل إلى الفكاك منه بغير معونة، كما يقع أحد اللاعبين الهزّالين في حوض ماء.

وألح عليّ الشعور بالوحشة وأنا في غرفتي بفندق شجرة الميلاد، وبدأت أدرك أن الموضوع الذي اخترته لتزجية الوقت لن يكون حسبي حتى يُفرج عني الجليد، فقد أبقى هنا أسبوعًا وقد يمتد المقام إلى أسابيع.

وتذكرت قصة عن خان قضيت فيه ليلة في بلدة قديمة جميلة على تخوم ويلز، وخلاصتها أن رجلًا انتحر بالسم وهو راقد على أحد سريرين في غرفة كبيرة بالخان، على حين كان النازل معه في الغرفة نائمًا فلم يشعر بشيء من فرط ما كان به من الإعياء. ولم يستعمل بعد ذلك سرير المنتحر، وتُرك في الغرفة على حاله لا يُزحزح عن موضعه

ولا تنال منه يد التغيير. وتقول القصة إن كل من نام في هذه الغرفة ولو كان غريبًا آتيًا من أقصى المعمورة كان يغادرها في الصباح وهو يتوهم أنه يشم رائحة صبغة الأفيون، وأن خواطره كلها كانت تدور على الانتحار، وأنه كان لا بد أن يشير إلى هذا الموضوع إذا تحدث. ودام الحال على هذا المنوال سنين عدة، ثم رأى صاحب الخان أن الأحجى، والأولى به، أن ينقل هذا السرير الذي لا يُستعمل وأن يحرقه كله — الفراش والكلة والأستار وغيرها — قال الرواة فتغير الأثر الذي يخلفه النوم في الغرفة وفتر فصار الذي يرقد فيها، إذا أصبح يحاول أن يتذكر حلمًا رآه في منامه. وكان صاحب الخان يتظاهر بمعاونته على التذكر فيقترح عليه موضوعات شتى يعلم أنها ليست هي المنشودة. ثم لا يكاد يقول: «السم» حتى ينتفض المسافر ويقول: «نعم» ولم يحدث قط أن قال المسافر «لا» ولم يحدث قط أنه تذكر من حلمه المنسيّ أكثر من ذلك.

وقد أثارت هذه القصة ذكريات الخانات الفرنسية على العموم ورفعت صورها لعيني، فرأيت النساء بقبعاتهن المستديرة، والعازفين، بلحاهم البيضاء، يضربون على القيثارة وراء الباب وأنا أتعشى. وانتقلت بي الذكرى إلى خانات إيقوسيا الجبلية وفطائر الشعير، والعسل، وشرائح لحم الغزال، والسمك المصيد من الخور، والوسكي، وما إليه من الأشربات. واتفق لي مرة أن كنت عائدًا إلى الجنوب من

جبال إيقوسيا، وكنت مسرعًا، وفي مرجوي أن يتيسر تغيير الخيل في محطة واقعة في واد تظلله جبال تاريخية، فرأيت، والألم يفري في جوفي، صاحب الخان يخرج وفي يده منظاره ويدير به عينه باحثًا عن الخيل، وكانت هذه ترعى فلم تبد للعيان إلا بعد أربع ساعات!

وتداعت الذِّكَرُ، فانتقلت من سمك الخور إلى خانات الصيادين بإنجلترا (وقد اشتركت مرات عدة في صيد السمك، فكنت أرقد في قاع السفينة أيامًا كاملة وأثابر على تفادي العمل. وقد وجدت أن هذا ليس أقل جدوى في صيد الأسماك من استعمال الشص والبراعة والحذق فيه) وتذكرت من هذه الخانات غرفها البيضاء النظيفة المعطرة بأنفاس الورود النضيرة، المشرفة على النهر والسفن والفضاء المعشوشب، وقباب الكنائس والجسر، و«إمّا» الفتانة وعينيها البراقتين وابتسامتها الحلوة وكيف كانت — بارك الله فيها — تقوم على خدمتنا خفيفة رشيقة.

وصوّبتُ عيني إلى الموقد الذي يتوهج فيه الفحم المضطرم فبرزت لي صور عشرات من هذه الخانات التي كانت مراحل للبريد، والتي نفتقدها في هذه الأيام ونأسف على زوالها، وكانت رحيبة مريحة، وكانت فوق هذا عنوانًا على الخضوع الإنجليزي للغصب والنهب والابتزاز. ومن شاء أن

يشهد هذه المنازل تقضي نحبها، فليمش من «بيسنجستوك» — أو حتى من «وندسور» — إلى لندن، عن طريق «هانسلو» ولينظر كيف يُعفّي عليها الزمن؛ الإسطبلات تتهدم وتنقض، والسابلة، والعمال الذين أخطأهم الاستقرار ينامون في الغرف المقدَّمة أمامها، والحشائش تنبت وتفرّش في عرصاتها، والحجرات التي كانت مئات من الأسرة اللينة تسوى وترتب فيها، تؤجر للأيرلنديين بشلن ونصف شلن في الأسبوع، وخمارة سوء في مكان الحانة القديمة، وبوابات مخازن المركبات تحرق للوقود، وكلب أعوج الساق واقف في المدخل.

واستطردت إلى خانات باريس، والحجرة الجميلة ذات القطع الأربع، بعد أن نصعد إليها خمسًا وسبعين ومائة درجة مصقولة بالشمع، وتدق الجرس النهار طوله فلا ترى أنك استطعت أن تؤثر في جسم إنسان أو عقله، سواك، وتتناول عشاء دون شِبَعك، إذا اعتبرت الثمن، وتحولت عن هذه إلى خانات الريف بفرنسا حيث تطل بروج الكنائس على الأفنية، وترن أجراس الخيل وهي تضرب الأرض بقوائمها، والساعات من كل ضرب وعلى كل صورة، في كل غرفة، وليس بينها واحدة مضبوطة، إلا إذا اتفق أن تكون قد سبقت الوقت الصحيح أو تأخرت عنه اثنتي عشرة ساعة لا تزيد أو تنقص دقيقة. ومضيت من هذه إلى الخانات الصغيرة على الطريق في إيطاليا، حيث تجد كل الثياب القذرة التي

في البيت (غير الملبوسة!) كومًا في غرفة الاستقبال، وحيث يُحيل البعوض وجهك في الصيف خبيصة محشوة بالزبيب، ويحيل برد الشتاء لونك إلى زرقة السماء عن حمرة الورد، وحيث تأخذ ما يتيسر، وتنسى ما يتعذر، وحيث أشتهي مرة أخرى أن أغلي الشاي في وليقة إذ لا إبريق هناك! ومن ثم انتقلت إلى القصور القديمة والأديرة العتيقة التي صارت خانات، في مدن هذه البلاد المشرقة، وسلاليمها الضخمة، ومنها تستطيع أن تصعّد طرفك من خلال العُمُد المتقاربة، إلى قبة السماء الزرقاء، وارتسمت أمامي قاعات المآدب الفخمة، والمقاصف الرحيبة، وحجرات النوم المحيرة، ولمحات خواطف من شوارع رائعة ليس لها مظهر من الحقيقة، ومن هناك وثب بي الخيال إلى الخانات الصغيرة في المناطق الموبوءة بالملاريا، وخدمها الصفر الوجوه ورائحتها الخاصة المعهودة في كل مكان لا يدخل إليه الهواء، ثم إلى خانات البندقية المهولة العجيبة، وصياح النواتي تحتها وهم يجرون زوارقهم وينعطفون بها، وروائح البحر التي تتشبث بأنفك ولا تعفيك ما دمت هناك، وجرس كتدرائية سان مارك، وهو يدق نصف الليل. وعرجت بعد ذلك على خانات الرين المضطربة، التي لا تأوي فيها إلى فراشك إلا كان هذا إيذانًا بنهوض كل امرئ سواك، وفي حجرة الطعام وإلى طرف من مائدتها الطويلة يجلس لفيف من الرجال الضخام الأبدان المستديري الكروش، يلبسون الحلي والأقذار ليس إلا، فما على أبدانهم سوى ذلك فيما

تـرى العـين، ويُحيـون الليـل كلـه سـاهرين يشربـون ويقرعـون الـكأس بالـكأس ويتغنـون بالنهـر الـذي يجـري، والـدوالي التـي أينعـت، ونبيـذ الريـن الـذي تطيـب نشـوته، ونسـاء الريـن اللـواتي يتبسـمن، وهـات لي كأسًـا، وخـذ كأسًـا يـا صاحبـي، واشرب، واشرب، يـا أخـي، إلى آخـر ذلـك. وكان طبيعيًّـا أن أذكـر خانـات ألمانيـة أخـرى تُسغسـغ فيهـا الآكال بـما يجعـل مذاقهـا جميعًـا واحـدًا، ويزعـج المـرء فيهـا أن تقـدم لـه الولائـق السـخنة، والعُنّـاب المغـلي، والحلـواء، عـلى ترتيـب غـير متوقـع بـين الألـوان الأخـرى. وبعـد أن كرعـت — بخيـالي — كرعـة رويـة مـن الجعـة مـن قـدح مزبـد، وألقيـت نظـرة عـلى مشـارب الجعـة التـي يختلـف إليهـا الطلبـة في هيدلـبرج وغيرهـا، ركبـت البحـر إلى خانـات أمريـكا حيـث يبلـغ عـدد الغـرف المفـردة في الواحـد منهـا أربعمائـة، وحيـث يجتمـع عـلى العشـاء كل يـوم ثمان مائـة أو تسـع مائـة مـن السـيدات والسـادة. فرأيتنـي أقـف مـرةً أخـرى في المقصـف، وأترشـف مـن فـم الـكأس، وأصغـي ثانيـة لصديقـي «الجنـرال»، الـذي لم يمـض عـلى معرفتـي بـه سـوى خمـس دقائـق اسـتطاع في خلالهـا أن يوثـق أواصر الـود والإخـاء إلى آخـر العمـر بينـي وبـين «صاغـين» اسـتطاعا همـا أيضًـا أن يجعـلا منـي صديقًـا حميـمًا مـدى الحيـاة لثلاثـة «لـواءات» صرت بفضلهـم أخًـا لاثنـين وعشريـن مـن المدنيـين غـير المحاربـين، كل ذلـك في خمـس دقائـق ليـس إلا، أقـول إني أصغيـت مـرةً أخـرى إلى صديقـي الجنـرال وهـو يـشرح لي مزايـا الخـان ومـا فيـه مـن أسـباب الراحـة والـترف وكيـف أن فيـه حجـرات عـدة

للجلوس والاستقبال، للرجال وللسيدات، في النهار والليل، وأخرى للموسيقى والمطالعة، وأربع مائة غرفة نوم، كل هذا وضعت رسومه وتم بناؤه وتجهيزه في اثني عشر شهرًا؛ تبدأ من اليوم الذي أزيلت فيه أنقاض البناء العتيق الذي كان قائمًا، وكيف أن جملة التكاليف بلغت نصف مليون ريال. وألفيتني وأنا أكر بخيالي إلى هذا، أذهب إلى أنه كلما كان المنزل أضخم وأفخم وأبهظ تكاليف، كان ذلك أبعث على الزهد فيه وأقل استحثاثًا للرغبة في المقام به. على أني مع ذلك شربت على البعد نخب صديقي الجنرال، وإخواني الصاغات واللواءات والمدنيين جميعًا، فإنهم على الرغم من كل قذى رأته عيناي في عيونهم، أبناء شعبٍ عظيم رقيق كريم القلب.

وكنت وأنا أتذكر هذا أغذ السير في رجعتي القهقرى إلى ما مضى وفات، لأنفي الشعور بالوحدة وأخفف ثقل الوحشة، ولكني أضمرني الكلال فانقطعت من الإعياء وكففت عن متابعة هذه الخواطر. وصار السؤال الملحّ: ماذا أصنع؟ وماذا عسى أن يحل بي؟ أأفعل كما فعل البارون «ترِنْك» وأبحث عن جرذ أو عنكبوت حتى إذا وجدت واحدًا منهما تسليت في سجني هذا بتدريبه ورياضته؟ ولكن هذا لا يخلو من خطر إذا اعتبرنا المستقبل، فقد آلف ذلك وأُشغف به حتى إذا رفع الثلج عن الطريق وخرجت فيه مرةً أخرى، فمن يدري؟ لعلي حينئذٍ أبكي وأتوسل — كسجين الباستيل

الـذي أفـرج عنـه في شـيخوختـه — أن يعـودوا بي إلى هـذه النوافذ الخمـس والسـتائر العـشر والأفرشـة السـميكة المتينـة.

وألـح عـلي خاطـر أغـراني بـه اليـأس. ولـو كنـت في أحـوال غـير هـذه لتمـردت عليـه وأبيتـه، ولكنـي، وأنـا في هـذا المـأزق، تعلقـت بـه فهـل أسـتطيع أن أغالـب حيائـي الفطـري الـذي صـدني عـن مجلـس صاحـب الفنـدق وحرمنـي مـا عسـى أن أجـد مـن الأنـس عنـده، وأدعـو إليّ البسـتاني وأرجـو منـه أن يتنـاول كرسـيًّا — وشـيئًا مـن الـشراب أيضًـا — وأن يحادثنـي؟ نعـم أسـتطيع ... وسـأفعل ... وقـد فعلـت!

## (٢) الفرع الثاني: «البستاني»

أأسـأل أيـن كان في زمانـه؟ أعـاد الرجـل السـؤال لمـا ألقيتـه عليـه، وقـال: إنـه كان في كل مـكان. ومـاذا كان عملـه؟ لقـد كان يعمـل في كل شيء يخطـر عـلى البـال ذكـره.

أتـراه رأى كثـيرًا في حياتـه؟ بـلى، ولا شـك في ذلـك، وإن في وسـعه أن يؤكـد لي هـذا، فليتنـي أعـرف جـزءًا مـن عشريـن ممـا صادفـه في طريقـه! ألا وإنـه لأسـهل عليـه فيـما يعتقـد أن يذكـر لي مـا لم يـر ...

ومـا أغـرب مـا شـاهده؟ مـن يـدري؟ ليـس في وسـعه أن يقـول،

مـن عفـو الخاطـر مـا أغـرب شيء شـاهده — إلا أن يكـون الغول،٤ وقـد رآه مـرة في سـوق! ولكـن إذا قيـل لي إن صبيًّـا يناهـز الثامنـة مـن العمـر، فـرَّ مع بنـت في السـابعة مـن عمرهـا الغـض ليتزوجهـا، ألا يكـون هـذا في رأيـي غريبًـا؟ لا شـك! فلأعلـم إذن أنـه شـاهد بعينيـه هـذه الأعجوبـة وأنـه نظـف لهـما الأحذيـة التـي لبسـاها حـين فـرَّا، وإن الأحذيـة كانـت مـن الصغـر بحيـث كان يتعـذر عليـه أن يدخـل يـده فيهـا!

وحكايـة ذلـك أن والـد الصبـي «هـاري وولمـرز»، كان يقيـم في ضيعـة «إلمـز» عـلى مقربـة مـن تـلال «شـوتر»، وعلى مسـافة سـتة أميـال أو سـبعة مـن لنـدن. وكان رجـلًا ألمعيًّـا حديـد القلـب وسـيم الطلعـة، يرفـع رأسـه إذ يمـشي، ويُشـعرك إذ تـراه بمثـل بـأس النـار وصولتهـا. وكان يقـرض الشـعر، ويركـب الخيـل، ويعـدو، ويلعـب «الكريكيـت»، ويرقـص، ويمثـل، ويجيـد كل ذلـك ويحذقـه. وكان مزهـوًّا بابنـه «هـاري»؛ فقـد كان وحيـده، غـير أنـه لم يفسـده بالتدليـل، فقـد كان ذا إرادة ماضيـة، وعـين لا يفوتهـا شيء، ومـع أنـه كان يتخـذ مـن ابنـه الذكـي صاحبًـا، ويـسره أن يـراه مقبـلًا عـلى كتـب الأسـاطير يعـب فيهـا عبًّـا، ولا يمـل أن يسـمعه يمـدّ الصـوت ويرجّعـه شـاديًا بأغـاني الحـب، إلا أنـه احتفـظ بسـلطانه الأبـوي عـلى فتـاه، فبقـي الصبـي كـما ينبغـي أن يكـون، فليـت كثيريـن مثلـه!

وكيـف عـرف كل هـذا؟ عرفـه لأنـه كان مسـاعد البسـتاني، ولا

يمكن أن يكونه، وأن يكون أبدًا على المكان، يجز، ويقتلع، ويطعّم، ويفعل هذا وذاك، من غير أن يلم بأحوال الأسرة ويحيط بأمورها خبرًا. وقد جاءه الصبي هاري مرة وسأله: «كُوبز، كيف تتهجّى نورا؟»، ثم راح يحفر الاسم على سياج الخشب!

ولم يسبق لكوبز عهد بالأطفال قبل ذلك، ولا كان يعيرهم التفاتًا، ولكنه لم يسعه إلا أن يلاحظ هذين الصغيرين وهما يتمشيان معًا، وقد غرقا في الحب إلى الرأس! ويا لشجاعة الغلام وشهامته! لقد كان يبدو لي أنه لا يتردد أن يرمي قبعته، ويشمّر عن ساعديه الصغيرين، ويهجم على أسد لو اتفق لهما أن يلتقيا بواحد، وأن تفزع الفتاة منه! وقد وقف مرةً وهي معه، حيث كان كوبز يعمل وقال: «كوبز، إني أستلطفك.» فقال كوبز: «صحيح يا سيدي! إني فخورٌ بذلك.» فقال الغلام: «نعم، أستلطفك فهل تعرف لماذا يا كوبز؟» فقال: «لا أدري.» قال الغلام: «لأن نورا تستلطفك يا كوبز!» فقال الرجل: «صحيح يا سيدي! إن هذا من بواعث الاغتباط.» فقال الغلام: «من بواعث الاغتباط يا كوبز؟ إنه خير من ملايين من أنفس الماسات، أن تستلطفك نورا.» فقال الرجل: «لا شك يا سيدي.» فسأله الغلام: «إنك ستترك عملك هنا، أليس كذلك؟» قال الرجل: «نعم يا سيدي.» قال الغلام: «أتحب أن أجد لك عملا آخر؟» قال الرجل: «لا مانع عندي إذا كان حسنًا موافقًا.» قال

الغـلام: «إذن سـتكون البسـتاني الأول عندنـا، بعـد أن نتـزوج.» وضـم عليهـا شـملتها الزرقـاء وأحاطهـا بذراعـه، ومـضى بهـا!

وأقسـم كوبـز أن هـذا المنظـر كان أبهـى وأوقـع في النفـس مـن صـورة مرسـومة وأنـه كان أشـبه بالروايـة أن يـرى هذيـن الطفلـين بشـعرهما الطويـل اللامـع المتلـوي، وعيونهـما البراقـة، وخطوتهـما الخفيفـة الجميلـة، يتمشـيان في الحديقـة، وقـد عمـر الحـب المتبـادل قلبيهـما الصغيريـن. وقـال لي: كوبـز إنـه يعتقـد أن العصافـير ظنتهـما عصفوريـن فغـردت لهـما لتسرهمـا. وكانـا ربـما جلسـا في ظـل شـجرة، وذراع كل منهـما عـلى عنـق الآخـر، وخداهمـا الأسـيلان يتلامسـان مـن فـرط التـداني، وراحـا يقـرآن قصـة الأمـير والتنّـين، أو السـاحرين الطيـب والخبيـث، أو بنـت الملـك الفاتنـة. وكان يسـمعهما أحيانًـا يلهجـان ببيـت ينويـان أن يبنيـاه في الغابـة ويتخـذا فيـه خليَّـة للنحـل، وبقـرة ويجتـزآن مـن الطعـام باللبـن والعسـل. ومـرّ بهـما مـرة وهمـا عـلى البركـة فسـمع الغـلام «هـاري» يقـول: «نـورا، يـا معبـودتي، قبلينـي، وقـولي إنـك تحبيننـي حبًّـا يزدهـف لبـك، وإلا ألقيـت نفـسي في البركـة.» ولم يخالـج كوبـز أي شـك في أنـه كان حقيقًـا أن يرمـي نفسـه في المـاء لـولا أنهـا أجابـت سـؤله. قـال كوبـز: وقـد كان هـذا يخيـل إليـه أنـه هـو أيضًـا قـد أمسـى عاشـقًا، لـولا أنـه لا يـدري لمـن!

وقال له هاري ذات مساء، وكان يسقي الزهر: «إني ذاهب في هذا الصيف لزيارة جدتي في يورك.»

فقال كوبز: «أَوَفاعل أنت يا سيدي؟ أرجو إذن أن يطيب مقامك، وأن تنعم بما يسرك. أنا أيضًا ذاهب إلى مقاطعة يورك بعد أن أغادر هذا المكان.»

فسأله الغلام: «أذاهبٌ أنت إلى جدتك يا كوبز؟»

فقال: «كلا، يا سيدي، ليس لي شيء كهذا.»

– «لا جدة لك يا كوبز؟»

– «كلا يا سيدي.»

فصوب الغلام عينه إلى الأزهار التي يسقيها البستاني، ثم قال: «سيكون من أقوى بواعث السرور لي أن أذهب يا كوبز، فإن نورا ذاهبة.»

فقال كوبز: «ستكون بخيرٍ إذن يا سيدي، ما دام إلى جانبك حبيبتك الجميلة.»

فاضطـرم وجـه الغـلام وقـال: «كوبـز، إني لا أسـمح لأحـد أن يمازحنـي في هـذا إذا وسـعني أن أمنعـه.»

فقـال كوبـز بلهجـة المتطامـن: «لم يكـن هـذا مزاحًـا يـا سـيدي، لم أقصـد إلى ذلـك.»

– «يـسرني هـذا يـا كوبـز، فـإني أسـتلطفك، كـما تعلـم. ثـم إنـك سـتعيش معنـا. كوبـز!»

– «نعم يا سيدي!»

– «ماذا تظن جدتي ستعطيني حين أذهب إليها؟»

– «ليس في وسعي أن أخمّن يا سيدي.»

– «ورقة بخمسة جنيهات يا كوبز!»

فزام كوبز وقال: «هذا مبلغ يا سيدي!»

– «إن المـرء يسـتطيع أن يصنـع كثـيرًا بمبلـغ كهـذا، أليـس كذلـك يـا كوبز؟»

– «صدقت يا سيدي.»

وقال الغلام: «سأفضي إليك بسر، يا كوبز؟ إنهم في بيت نورا يعابثونها ويركبونها بالمزاح من أجلي، ويتظاهرون بالضحك منا، لأنا خطيبان، ويهزءون ويسخرون يا كوبز.»

فقال كوبز: «هذا بعض مظاهر النقص والعيب في الطبيعة الإنسانية.»

فوقف الغلام برهة — وهو صورة مصغرة إلا أنها دقيقة، من أبيه — ومحياه المتقد إلى الشمس، ثم مضى وهو يقول: «عم مساءً، يا كوبز، إني داخل.»

ولا يدري كوبز كيف اتفق أن يغادر البيت في ذلك الوقت، وعنده أنه لو شاء أن يبقى هنالك إلى الآن، لبقي، ولكنه كان شابًّا، وكان يبغي أن يغير عمله عسى أن تنتقل به الأحوال، وقد قال له المستر وولمرز لما أبلغه كوبز أنه اعتزم ترك العمل: «أهناك ما تشكو منه؟ إني أسأل لأني أحب إذا كان لأحد من رجالي شكاة، أن أزيل أسبابها.» فقال كوبز: «كلا يا سيدي، وشكرًا لك، وإني هنا لعلي خير ما أرجو أن أكون في أي مكان، ولكن الحقيقة يا سيدي أني راحل لأجرب حظي في التماس الثراء.» فقال المستر وولمرز: «صحيح يا كوبز؟ إذن أرجو لك التوفيق.» وأكد لي كوبز وهو يقص علي ذلك أنه لم يوفق بعد.

تـرك كوبـز ضيعـة «إلمـز»، وذهـب الغـلام هـاري إلى جدتـه العجـوز في يـورك، وكانـت لا تضـن عـلى حفيدهـا بالأسـنان التـي في فمهـا (لـو كان في فمهـا شيء) فقـد كانـت مجنونـة بـه. ولكـن مـاذا تظـن أن هـذا الطفـل صنـع؟ فـإن لـك أن تسـميه طفـلًا وألا تخشـى الغلـط؟ لقـد فـر مـن جدتـه مـع نـورا وقصـدا إلى «جريتنـا جريـن» ليتزوجـا هنـاك!

وكان كوبـز يعمـل في هـذا الفنـدق عينـه — فنـدق شـجرة الميـلاد — (وكان كثـيرًا مـا يتركـه ليحسـن حالتـه ولكنـه كان يعـود إليـه دائـمًا لسـببٍ مـا) وفي مسـاء يـوم مـن أيـام الصيـف وقفـت المركبـة ونـزل منهـا الطفـلان! وقـال الحـارس لصاحـب الفنـدق: «إن أمـر هذيـن الراكبـين الصغيريـن يبـدو لي كاللغـز، ولكـن الغـلام قـال لي إنـه يريـد أن آتي بهـما إلى هنـا.»

... ينـزل الغـلام، ويمـد يـده إلى فتاتـه ليعينهـا. وينفـح الحـارس بـشيء عـلى سـبيل التجزيـة، ثـم يلتفـت إلى رب الفنـدق ويقـول لـه: «سـنبيت هنـا الليلـة، مـن فضلـك ... وسـنحتاج إلى حجـرة جلـوس وغرفتـي نـوم ... وهـات كفايـة اثنـين مـن اللحـم المـشرح والفالـوذ بالعنـاب.» ويضـم عـلى حبيبتـه شـملتها السـماوية الزرقـة، ويحيطهـا بذراعـه ويدخـل ثابـت الجنـان!

وقـال كوبـز: إنـه يـترك لي أن أتصـور الذهـول الـذي اسـتولى

على كل من في الخان حين رأوا الصغيرين يجيئان وحدهما، ويفعلان ما فعلا! وكان كوبز يراهما ولا يريانه، فلم يكتم رب الفندق رأيه، في بواعث هذا السلوك والغاية من هذه الرحلة، فقال صاحب الفندق: «إذا كان الأمر كذلك يا كوبز فسأركب إلى يورك لأُطَمْئِن آلهما. ويجب عليك أن تجعل عينيك عليهما، وأن تسليهما وتلهيهما حتى أعود. ولكني أحب قبل أن أقدم على هذه الرحلة، أن تستوثق منهما لتعرف أمصيبٌ أنت في رأيك أم مخطئ.»

فقال كوبز: «سيكون ما تريد حالًا.»

وصعد كوبز إليهما، فألفى الغلام هاري على أريكة عظيمة، وإنها لعظيمة وكبيرة في كل حال وفي كل وقت، ولكنها بدت أعظم وأضخم لما اتكأ عليها هاري ليكفكف لنورا دموعها ويمسحها بمنديله، وكانت أرجلهما معلقة في الهواء وقد أعرب كوبز لي عن عجزه عن وصف صغرهما وضآلتهما.

وصاح السيد هاري: «هذا كوبز ... هذا كوبز.» وأقبل عليه يعدو، وتناول يده، وجرت إليه الآنسة نورا أيضًا، ووقفت إلى جانبه الآخر، وتناولت يده الثانية، وجعلا يتوثبان وينطان من الفرح.

فقال كوبز: «لقد رأيتكما من المركبة، فعرفتكما، وهل كان يمكن أن أغلط أو أنسى؟ ماذا وراء هذه الرحلة يا سيدي؟ الزواج؟»

فقال الغلام: «سنتزوج يا كوبز في جريتنا جرين. وقد فررنا لهذا الغرض. إن نورا مكتئبة قليلًا يا كوبز، ولكنها جديرة بأن يسعدها الآن أنّا وجدناك فإنك لنا صديق.»

فقال كوبز: «أشكرك يا سيدي، وأشكرك يا آنسة، على حسن ظنك بي. والآن هل معكما أشياؤكما؟»

وإذا صدق كوبز الذي أقسم أن الأمر كما يصف، فقد كان مع نورا شمسية وزجاجة نوشادر، وخبزات يابسات مدهونات بالزبدة، وثماني نعناعات وفرشاة أسنان يخيل إليك أنها مصنوعة للعبة، أما الغلام فكان معه حوالي ست ياردات من الخيط، ومبراة، وثلاث ورقات أو أربع مطوية، وقدح عليه اسمه.

فقال كوبز: «وماذا أعددت من التدابير يا سيدي؟»

قال الغلام، وما أبهر شجاعته: «أن نمضي إلى غايتنا في الصباح فنتزوج غدًا.»

قـال كوبـز: «هـو كذلـك يـا سـيدي. فهـل يوافقكـما أن أرافقكـما؟»

فلـما سـمعا هـذا السؤال جعـلا ينطـان مـن الفـرح ويصيحـان: «نعـم، نعـم، يـا كوبـز، نعـم.»

فقـال كوبـز: «إذا سـمحتما لي باقـتراح فهـذا هـو ... إني أعـرف فرسًـا يمكـن أن نشـده إلى مركبـة أسـتطيع أن أسـتعيرها فتحملكـما (وأكـون أنـا الحـوذي إذا وافقتـما) إلى آخـر رحلتكـما في أوجـز وقـت. ولسـت واثقًـا مـن أن هـذا الفـرس سـيكون غـدًا رهـن مشـيئتنا، ولكـن إذا احتجنـا أن ننتظـر إلى مـا بعـد الغـد، فـإن الفـرس جديـر بالانتظـار. أمـا الفنـدق، ونفقـات الإقامـة فيـه، فـلا تفكـرا في ذلـك إذا لم يكـن معكـما الكفايـة مـن المـال؛ فـإني شريـك في هـذا المحـل، ومـن السـهل إرجـاء الحسـاب إلى وقـتٍ آخـر.»

ويحلـف كوبـز أنـه لمـا رآهمـا يصفقـان سرورًا وينطـان ويدعوانـه: «كوبـز الطيـب» و«كوبـز العزيـز» ويتعانقـان ويتلاثـمان وهمـا جـذلان مطمئنـان واثقـان، أحـس أنـه أنـذل مـن ولدتـه أم في هـذه الدنيـا، لأنـه خدعهـما وغشـهما.

وقـال كوبـز، وبـه وخـز الضمـير ما بـه: «هـل تريـدان الآن شـيئًا يا سـيدي؟»

فقال الغلام وهو يطوي ذراعيه على صدره، ويمد إحدى ساقيه، ويحدق في وجه كوبز: «نريد بضع كعكات بعد العشاء، وتفاحتين ... ومربى ... ومع العشاء خبزًا محمرًا ... واسمع يا كوبز، إن نورا قد اعتادت أن تشرب مع الفاكهة قليلًا من شراب الزبيب ... وأنا مثلها.»

قال كوبز: «سأعد لكما ذلك.» وخرج.

وحدثني كوبز أنه، وهو يروي لي هذه التفاصيل، يشعر، كما يشعر حينئذ، بأنه كان آثر عنده، وأحب إليه، أن يلاكم صاحب الفندق في بضع جولات، من أن يتواطأ معه على هذين الطفلين، وأنه كان يتمنى من أعماق قلبه لو أن في الدنيا مكانًا يستطيعان فيه أن يتزوجا، ويعيشان بعد ذلك سعيدين. ولكن هذا لا سبيل إليه، فلم يسع كوبز إلا أن يأتمر بهما مع رب الفندق، فركب هذا إلى يورك بعد نصف ساعة.

ويرى كوبز أن من العجائب أن كل أنثى في الفندق — ذات بعل، أو عزبة أو عذراء — صغت بقلبها إلى هذا الغلام لما سمعت قصته. وقد عانى كوبز جهدًا جاهدًا في صد هؤلاء النسوة عن اقتحام الغرفة واحتضان الغلام وتقبيله. وكنّ يخاطرن بحياتهن ويصعدن فوق الأشياء لينظرن إليه من

وراء الزجاج. وكان سبعة منهن يتزاحمن على ثقب الباب لينظرن في وقت معًا! فقد طارت عقولهن وفَتنتهن جرأته.

وفي المساء دخل كوبز على الهاربين ليرى كيف حالهما. وكان الغلام على حافة النافذة، وبين ذراعيه فتاته. وكانت العبرات على خديها، ولكنها كانت متعبة وأقرب إلى النوم منها إلى اليقظة، ورأسها على كتفه.

وقال كوبز: «هل السيدة متعبة يا سيدي؟»

قال: «نعم، متعبة يا كوبز، فما اعتادت أن تنأى عن البيت، وقد عاودها الاكتئاب، فهل تستطيع أن تجيئني بمنعش؟»

فقال كوبز: «معذرةً يا سيدي، ولكن ما تبغي؟»

قال: «شيءٌ ينعشها، ويرد إليها روحها.»

فخرج كوبز ينشد المنعش المطلوب فلما عاد به، قدمه الغلام إلى الفتاة وأعانها، ولكن النعاس كان يثني رأسها ويثقله، فجعلها ذلك شكسة جافية. وقال كوبز: «ما قولك يا سيدي في شمعدان لغرفة النوم؟» فوافق، وسارت الخادمة في الطليعة، والفتاة في شملتها السماوية الزرقة بعدها، ووراءهما،

وفي حراستهما هذا الغلام الشهم. وعانقها عند الباب، ثم ارتد إلى غرفته، فأوصدها عليه كوبز بخفة.

ولم يكن يسع كوبز إلا أن يزداد شعوره حدة بأنه غشاش وضيع، لما سأله الغلام في الصباح وهما يتناولان طعام الإفطار (وكانا قد أمرا أن يعد لهما لبنًا وخبزًا محمرًا ومربى) عن الفرس، وكان يجد مشقة في النظر إليهما وهو يعلم كيف يخدعهما بالأباطيل، غير أنه واصل الكذب وأخبرهما أن من سوء الحظ أن القوم يقصون للفرس شعره، ولكنهم لم يقصوا سوى جانب، ولو خرج على هذه الصورة لأصابه سوء، ولكنهم سيفرغون من القص في هذا النهار، وفي الساعة الثامنة من صباح الغد تكون المركبة معدة. ومن رأي كوبز، وهو يحدثني بهذا في غرفتي، أن الفتاة بدأت في ذلك الوقت تتراجع وتندم؛ فقد نامت من غير أن يُرَجَّل لها شعرها، ولم تكن بحيث تستطيع هي أن تمتشط، وصار الشعر يدخل في عينيها فيغيظها ويحنقها، ولكن الغلام ظل ثابتًا شديد القلب، وكان وهو جالس إلى المائدة وأمامه فنجان الشاي يلتهم المربى، فيخيل إليك أنه أبوه.

ويميل كوبز إلى الاعتقاد أنهما بعد الإفطار جعلا يتسليان برسم الجنود على الورق، فقد وجدت جنود كثيرة مصورة على الورق في الموقد، وكلها على ظهور الخيل. ودق هاري

الجرس وسأل كوبز، وما أعجب ثباته: «أليس في جوار هذا المكان ميادين صالحة لأن يمشي فيها المرء؟»

قال كوبز: «نعم يا سيدي، طريق العشاق.»

فصاح الغلام به: «رح. رح. إنك تمزح.»

فقال كوبز: «عفوًا يا سيدي، ولكن هناك طريقًا اسمه طريق العشاق. وإنه لجميل، وإنه ليكون من دواعي فخري أن أريكه أنت والسيدة.»

فقال هاري: «يا عزيزتي نورا، إن هذا لاتفاق عجيب، وينبغي أن نرى طريق العشاق هذا. فالبسي قبعتك يا حبيبتي ولنذهب إليه مع كوبز.»

ودعاني كوبز أن أتصور قوة شعوره بنذالته ولؤمه لما قال له هذان الطفلان الغريران، وهما يمشيان إلى جانبه، إن عزمهما صح على أن أكون البستاني الأول لهما، بألفي جنيه في العام، لأني صديق وفيٌّ لهما. وقد تمنى كوبز في تلك اللحظة أن تنشق الأرض فتبتلعه؛ فقد أحس بشدة الضعة والحقارة وهما ينظران إليه بعيونهما البراقة، ولا يخالجهما شك في صدقه! فاحتاج أن يغير موضوع الحديث، ويعطفه عن

مجراه، ومضى بهما في طريق العشاق إلى البحيرة، وكاد هاري يغرق فيها وهو يحاول أن يقطف لفتاته زنبقة، وأخيرًا تعبا، وأضناهما الجهد، فاستلقيا على الأرض المخضرة، والأقاحي ترف عليهما، وناما.

ولا يدري كوبز — ولعلي أنا أدري، ولكن دع هذا فما له قيمة — لماذا يرق قلب المرء حين يرى هذين الطفلين الجميلين راقدين تحت السماء الصافية في النهار المشمس، لا يحلمان بشيء وهما نائمان، كما يحلمان وهما مفتوحا العيون، ويذهب كوبز إلى أن المرء لا يسعه إلا أن يفكر في نفسه، وفيما كان من سيرته وتقلب الأحوال به مذ كان في المهد، وكيف أنه لم يبلغ في الحياة مبلغًا، وليس له إلا الذكرى، والأمل ولا حقيقة بينهما.

واستيقظا أخيرًا، وتبين كوبز أن الفتاة بدأت تشمس وتعسر، فلما طوق هاري خصرها بذراعه قالت إنه يضايقها، فلما قال لها: «يا نورا، يا قمر الربيع، هل يضايقك هاري؟» قالت: «نعم. وأريد أن أعود إلى البيت!»

على أن دجاجة مسلوقة، وشيئًا من الحلواء، فترّا من حدتها، وردا إليها سجاحة الطبع، ودماثة الخلق، ويقول كوبز إنه كان يود لو أنه رآها أعظم عناية بالصوت الهاتف بحبها

منهـا بالحلـواء التـي نسـيت نفسـها وهـي تلتهمهـا. أمـا هـاري فلـم يزعزعـه شيء، وظـل قلبـه الكبـير يخفـق بالحـب، كـما كان. ودخلنــا في الغســق فخفــق رأس الفتــاة وشرعــت تبكــي ... ولهــذا أوت إلى فراشــها كــما فعلــت في الليلــة الســابقة ... ولم ينـس الفتـى أن يقـوم بواجـب المرافقـة والتوديـع، عـلى نحـو مـا كان منـه البارحـة.

وحـوالي منتصـف الليـل أقبـل صاحـب الفنـدق في مركبـة، ومعه المسـتر وولمـرز وسـيدة عجـوز، وكان المسـتر وولمـرز يبـدو عليـه الجـد الصـارم، والتفكـه في آن معًـا وقـد قـال لزوجـة الفندقـي: «إننـا مدينـون لـك يـا سـيدتي بالشـكر عـلى عنايتـك بولدينـا وإنا لعاجـزون عـن تجزيتـك. أيـن الغـلام يـا سـيدتي؟» فقالـت: «إن كوبـز يسـهر عـلى الولـد العزيـز ويرعـاه يـا سـيدي. أره الغرفـة الأربعـين يـا كوبـز.»، فقـال المسـتر وولمـرز: «إني مـسرور بـأن أراك يـا كوبـز. فقـد علمـت أنـك هنـا.» فقـال كوبـز: «نعـم يـا سـيدي، ومـا زلـت خادمـك المطيـع.»

ويقـول كوبـز: إني قـد أسـتغرب منـه أن يذكـر لي أن قلبـه كان يـدق كالمطرقـة وهـو يصعـد درجـات السـلم، ولكـن هـذه هـي الحقيقـة، وقـد قـال المسـتر وولمـرز، وهـو يفتـح لـه البـاب: «معـذرة يـا سـيدي، ولكنـي أرجـو ألا تكـون حانقًـا عـلى السـيد هـاري. إنـه غـلام شـهم يـا سـيدي، وسـيكون مفخـرة لـك.»

ويؤكد لي كوبز أن نفسه كانت جائشة في تلك اللحظة، فلو أن المستر وولمرز ذهب إلى العناد، للكمه واحتمل ما عسى أن يكون من نتائج ذلك.

ولكن المستر وولمرز قال: «كلا يا كوبز ... لا يا صاحبي. وشكرًا لك.» وكان الباب قد فتح، فدخل.

وتبعه كوبز وفي يده الشمعة، فرأى المستر وولمرز يمشي إلى السرير ويحنو عليه في رفق، ويلثم ذلك المحيا الصغير، ثم يعتدل، ويُثيره النظر لحظة، فيعظم الشبه بين الوجهين (ويقال إن المستر وولمرز فر مع من تزوجها)، ثم يهز كتف الغلام برفق ويناديه: «هاري ... يا ولدي العزيز ... هاري!»

فيتنبه هاري وينظر إليه، وإلى كوبز أيضًا، كأنما أراد أن يتبين هل أوقعه كوبز في ورطة.

ولكن المستر وولمرز يقول له: «لست غاضبًا يا بني، وكل ما أريد منك هو أن تلبس ثيابك لتعود إلى البيت.»

فيقول الغلام: «نعم يا أبي.»

وينهض فيرتدي ثيابه بسرعة، ويعلو صدره وهو يكاد يفرغ من ارتدائها ويزداد علوًّا حين يقف أخيرًا، ناظرًا إلى أبيه، وأبوه واقفٌ ينظر إليه، وكلاهما صورةٌ دقيقة من الآخر.

ويقول الغلام، وهو يتشدد ويتجلد ويرد الدموع التي تهم بالتحدر: «من فضلك يا أبي ... هل تسمح لي ... أن أقبل نورا قبل أن أذهب؟»

فيقول المستر وولمرز: «لك ذلك يا بني.»

ويتناول يد الغلام، ويمضي به، وكوبز أمامهما بالشمعة حتى يبلغوا الغرفة الأخرى فإذا السيدة العجوز متكئة على السرير والفتاة غارقة في النوم. فيرفع الوالد غلامه إلى الوسادة، فيسند خده الصغير لحظة إلى جانب خد الفتاة الذاهلة ثم يدني محياها منه ويلثمه، ويبلغ من وقع هذا المنظر في النفوس أن تصيح الخادمة، وكانت تنظر من ثقب الباب: «من العار أن تفرقوا بينهما.» ولكن هذه الخادمة كانت معروفة برقة القلب، وإن لم تكن امرأة سوء ... حاشا لله!

قال كوبز، وانتهى الأمر بذلك. ركب المستر وولمرز عائدًا إلى بيته، ومعه ابنه. أما السيدة العجوز، والفتاة التي لم يقسم

لها أن تكون المسز وولمرز (لقد تزوجت بعد ذلك ضابطًا في الجيش وماتت في الهند) فعادا في اليوم التالي. وقد سألني كوبز في ختام كلامه هل أوافقه على رأيين له؛ الأول: أنه قل أن يكون هناك اثنان على وشك الزواج، في مثل طهر هذين الطفلين. الثاني: أن من الخير لكثيرين ممن يهمون بالزواج أن يؤخذ عليهم الطريق، ويحال بينهم، فيرتد كل منهم إلى بيته على حدة؟

## (٣) الفرع الثالث: «الحساب»

لبثت في الفندق محصورًا، من جراء الثلج المتساقط، أسبوعًا كاملا. وكانت الأيام تمضي سراعًا، فيما أحس، فلولا وثيقة موضوعة على المنضدة أمامي لما صدقت أني قضيت هنا أسبوعًا.

وكان الثلج قد رفع عن الطريق في اليوم السابق، أما الوثيقة التي أمامي فهي حساب الفندق. وهي تشهد شهادة حاسمة بأني أكلت، وشربت، وادّفأت، تحت الأغصان الورقية الوريفة الظليلة لشجرة الميلاد سبعة أيام كاملة.

وكنت قد آثرت أن أدع الطريق يتحسن أربعًا وعشرين ساعة أخرى لأني احتجت إلى هذه المسافة من الزمن لإتمام عملي. وأمرت أن يُبَيَّن لي الحساب وأن تكون المركبة معدة أمام

الباب «في الساعة الثامنة من مساء الغد.» وكانت الساعة قد بلغت الثامنة من «مساء الغد» لما جمعت أدوات الكتابة التي أتخذها في أسفاري وطويتها في حقيبتها الجلدية، وأديت الحساب، وتعطفت بأرديتي الدافئة، وتلفَّعت بشملتي. وكان الوقت قد صار أضيق من أن يسمح بالذهاب لإضافة عبرة متجمدة إلى بلورات الثلج التي تكسو البيت الريفي الذي رأيت فيه أنجيلا أول مرة. ولم يبق إلا أن أغذ السير في أقصر طريق إلى ثغر ليفربول وهناك آخذ حقائبي الكبيرة وأركب السفينة. وكفى بهذا عملًا، ولا سبيل إلى إرجائه ساعة واحدة.

وودعت كل من عرفت في الفندق — وكدت أودع حيائي أيضًا — ووقفت بالباب أراعي الخادم وهو يلف الحبل الذي يشد به حقيبتي إلى المركبة وإذا بمصابيح تقترب سراعًا من الفندق. وكان الطريق مغطى بالثلج فلم نسمع للعجلات صوتًا، ولكنا جميعًا رأينا المصابيح تقبل علينا وتدنو منا بسرعة، بين جدارين من الجليد الذي رفع عن الأرض وصار كومًا على كل جانب. وتنبأت الخادمة وصاحت: «توم ... هذه رحلة إلى جريتنا.» وكان توم يعرف أن لها قدرة فطرية على التنبؤ بالزواج وما إليه، فانطلق يعدو ويصيح: «أعدوا الجياد الأربعة الأخرى.» وفي لحظةٍ واحدة صار المكان كله هرجًا ومرجًا.

وشعرت برغبة في رؤية ذلك السعيد، المحب المحبوب، فتلكأت على الباب حتى بلغه القادمان. ووثب من المركبة رجل برَّاق العين متلفع — ومتلثم — بشملة، فكاد من شدة الوثبة والسرعة فيها يلقيني على الأرض، فالتفت إليّ ليعتذر وإذا به «إدوين!»

فصاح وهو يتراجع: «شارل! يا إلهي، ماذا عساك تصنع هنا؟»

فقلت وأنا أتراجع أيضًا: «إدوين! ماذا تصنع أنت هنا؟»

وضربت جبيني وأنا أقول ذلك، فأحسست أن لسانًا من النار لا يطاق خطف أمام عيني.

فأدخلني إلى القاعة (وكان في موقدها دائمًا نار فاترة، ولا محرك هناك) حيث وقف المسافرون ينتظرون تغيير الجياد، وقال وهو يرد الباب: «سامحني يا شارل!»

قلت: «إدوين! هل كان هذا جميلًا منك؟ وأنا الذي أحبها كل هذا الحب؟ وأنا الذي طويت أضلاعي على هواها كل هذا الزمن؟»

ولم أستطع أن أزيد على ذلك. فراعه أن يقرأ في وجهي ما أكن من الألم والأسى، وقال وهو لا يدري ما في ذلك من القسوة: إنه ما كان يحسب أن يبلغ من قلبي الحزن هذا المبلغ.

فنظرت إليه — أقصرت عن العتاب — ولكن نظرت إليه.

وقال: «شارل، يا صديقي العزيز الأثير، أرجو ألا تظن بي سوءًا، وإني لأعلم أن لك حقًّا في أن أطلعك على دخيلة قلبي. وصدقني حين أقول إني ما ضننت قط من قبل عليك بالثقة بك والاطمئنان إليك، وإني لأمقت الكتمان فإنه لؤم لا يطاق، ولكني أنا وفتاتي حرصنا على الكتم من أجلك.»

هو وفتاته! لقد جعل ذلك قلبي حجرًا.

وقلت وأنا أتعجب لوجهه الصريح كيف وسعه أن يلقاني به: «حرصت على الكتمان من أجلي أنا يا سيدي؟»

قال: «نعم، ومن أجل أنجيلا أيضًا.»

فأحسست أن الأرض تدور بي، وتضطرب، كالنحلة[٥] وقلت وأنا أعتمد على الكرسي بيدي: «هل لك أن تفسر معنى ذلك؟»

فقال إدوين بلهجته الودية: «يا عزيزي شارلي. فكر! لقد كنتَ على خير حال وأسعده مع أنجيلا، فكيف أزج بك في ورطة مع أبيها بإشراكك في العلم بأمر خطبتنا، وبما عزمنا عليه سرًّا، بعد أن رفض؟ من المحقق أنه خير لك أن تستطيع أن تقول، وأنت صادق: «إنه لم يستشرني قط، ولم يخبرني بشيء، ولم ينبس بكلمة على مسمع مني.» وإذا كانت أنجيلا قد فطنت إلى الباطن من أمري، وأولتني كل ما في طاقتها من العطف والتأييد، بارك الله فيها من فتاة منقطعة النظير، وزوجة يُعيي الزمانَ مكانُ ندها، فما كان لي في هذا حيلة، وما قلنا لها — لا أنا ولا إميلين — شيئًا، كما لم نقل لك شيئًا، وقد توخينا الكتم عنها، كما توخيناه عنك، لنفس السبب، فثق بي، وصدقني.»

كانت إميلين بنت عم أنجيلا، وكانت تعيش معها، وقد شبا معًا، وكان والد أنجيلا قيمًا عليها، فإن لها مالًا.

فقلت وأنا أعانقه عن أحر عاطفة: «هل إميلين في المركبة يا إدوين؟»

فقال: «وهل تحسبني ذاهبًا إلى جريتنا جرين بغيرها؟»

فخرجت أعدو مع إدوين، وفتحت باب المركبة، وعانقت

إميلين، وضممتها إلى صدري، وكانت ملفوفة في فراءٍ أبيض ناعم كهذا الوادي المكسو بالثلج، ولكنها كانت كاعبًا جميلة حارة. وقد ربطتُّ الجوادين المقدمين إلى مركبتهما بيدي، ونفحت الخادم بخمسة جنيهات، وحييتهما أحر تحية وهما يمضيان، ثم ركضت بي الخيل في الطريق إلى لندن.

لم أذهب إلى ليفربول، ولم أرحل إلى أمريكا، وإنما رجعت إلى لندن وتزوجت أنجيلا، ولم أكشف لها إلى هذه الساعة عن سري، ولا قصصت عليها كيف كلفني الغلط هذه الرحلة، وسيجيء يوم تقرأ فيه هي، وهما — أعني — إدوين وإميلين — وأبناؤنا الثمانية، وأبناؤهما السبعة (وقد صارت كبراهم تشابه أمها) هذه الصفحات — وأين المفر من ذلك؟ — فيعرفون جميعًا ما كان خافيًا عليهم، لا بأس؛ فإن في مقدوري أن أحتمل ذلك، ولقد بدأت في الفندق — بمحض المصادفة — أقرن وقت عيد الميلاد بالعوامل الإنسانية، وأعنى بالبحث في حياة من ألفيتني محوطًا بهم، وفي مرجوي ألا أكون قد خسرت بذلك، وألا يكون أحد — قريبًا كان أو بعيدًا مني — قد خسر بذلك، وإني لأدعو أن تزدهر شجرة الميلاد الوريفة النضيرة، وأن تضرب جذورها وتغوص وتتقرر في أرضنا الإنجليزية، وأن تنفض طيور السماء لقاحها على العالم قاطبة.

# وليم ويلكي كولنز

## السرير الرهيب

بعد أن أتممت تحصيلي في الكلية بقليل، اتفق لي أن أقيم في باريس مع صديق إنجليزي. وكنا يومئذ في عنفوان الشباب، وأعترف أننا كنا نسيم سرح اللهو في هذه المدينة البهيجة ونركب الحياة بشبابنا، فحدث ذات ليلة أن كنا نتمشى على مقربة من «الباليه رويال»، وكنا حائرين لا نستقر على رأي فيما نشغل به أنفسنا من لهو، فاقترح صاحبي أن نذهب إلى محل «فراسكاتي» ولكن اقتراحه لم يرقني، فقد كنت أعرفه — كما يقول الفرنسيون — عن ظهر قلب. وقد خسرت وربحت فيه كثيرًا، ابتغاء التسلي، حتى لم يبق فيه لا تسلية ولا تلهية، ومللت مظاهر السَّمت والأبهة لذلك الشذوذ الاجتماعي الذي ينطوي عليه محل مقامرة. وقلت لصاحبي:

«نشدتك الله إلا ما ذهبنا إلى حيث نجد قمارًا حقيقيًّا عنيفًا على الرغم من الفاقة، ليس فيه تمويه ... لندع فراسكاتي الوجيه إلى مكان لا يأنف أصحابه أن يُدخلوا فيه ذا ثوب خلق لبيس، أو من لا ثوب له، لبيسًا كان أو غير لبيس.» قال صاحبي: «حسن، على أنه لا داعي للإبعاد والخروج من نطاق الباليه رويال، للفوز ببغيتك، هذا هو المحل أمامنا. وإنه، فيما تتواتر به الرواية عنه، لكما تشتهي أن يكون ضعة وخشونة.»

وبلغنا الباب، ودخلنا البيت الذي رسمتَ ظهره.[١]

وصعدنا بعد أن تركنا القبعتين والعصويين مع البواب، فمضوا بنا إلى قاعة القمار الكبرى، فلم نجد فيها كثيرين، ولكن القليلين الذين كانوا فيها والذين رفعوا رءوسهم لينظروا إلينا ونحن ندخل، كانوا جميعًا نماذج — صادقة دقيقة لسوء الحظ — من طبقاتهم.

لقد جئنا وفي مرجونا أن نرى جماعة من الطغام والهمج، فوقعنا على شر من ذلك، وإن لكل ضرب من الضعة لجانبها الفكاهي المضحك، أما هنا فما تحس النفس سوى المأساة ... مأساة خرساء لا فكاك منها ولا حيلة فيها، وكان السكون في الغرفة فظيعًا؛ هنا فتى نحيل متهضم الوجه،

طويل الشعر، يرشق بعينيه الغائرتين أوراق اللعب، ولا ينطق بحرف. وهنا آخر مترهل خرج البثرُ بوجهه الغليظ، وهو يخرق ورقة أمامه ليحصي كم مرة كسب الأسود، وكم مرة كسب الأحمر، ولا ينطق بحرف. وها هنا شيخ قذر مغضّن الوجه، له عين الصقر، وعليه ثوب طال تردداه إلى الرفو، وقد خسر آخر فلس، ومع ذلك يأبى إلا أن يراقب اللعب الذي لا يستطيع أن يشترك فيه، ولكنه لا ينطق بحرف! حتى صوت الضريب[٢] كان مكتومًا مخنوقًا وغليظ الجرس في جو هذه الغرفة. وقد كان رجائي وأنا أدخل هذا البيت أن أجد فيه ما يضحك، فإذا أمامي منظر يبعث الأسى ويغري بالبكاء. فلم يسعني إلا أن ألتمس معاذًا من هذه الكآبة التي تستولي عليّ بسرعة، وشاء سوء الحظ أن أقبل على أول ما وجدت، فذهبت إلى المائدة وشرعت ألعب. وأبى لي الحظ السيئ، كما سترى، إلا أن أربح ... أربح مقادير جسيمة ... مقادير يخطئها الحساب، ولا تدخل في عقل عاقل ... حتى أحاط بي اللاعبون، وراحوا يحدجون مكاسبي على المائدة بعيون ناطقة بالنهم والروعة، ويتهامسون فيما بينهم بأن الإنجليزي سيخرب «البنك.»

وكان القمار على «الأحمر والأسود» وقد جربت حظي في هذه اللعبة في كل مدينة بأوروبا، ولكن من غير أن أعنى «بنظرية الحظ» التي تعد «حجر الفلاسفة» عند المقامرين. وما كنتُ قط مقامرًا بالمعنى الصحيح، فقد سلمت من

هـذه الشـهوة الجائحـة فلعبـي للتسـلية وتزجيـة الفـراغ، ومـا أعرفنـي قامـرت بدافـع مـن الحاجـة أو الـضرورة، لأني لم أعـان قلـة المـال أو النقـص فيـه. وكنـت إذا قامـرت لا أعكـف حتـى أُمنـى بخسـارة لا قِبَـلَ لي باحتمالهـا، أو أفـوز بمكسـب يدير رأسي ويخـرج بي عـن طـوري مـن الاتـزان. وأقـول بإيجـاز إني كنـت أختلـف إلى أنديـة القـمار كـما أختلـف إلى المراقـص والمسـارح لأني أجـد فيهـا تلهيـة، ولا أدري بـأي شيء آخـر أشـغل نفـسي وأزجّـي الفـراغ.

ولكـن الحـال في هـذه المـرة كان مختلفًـا جـدًّا، الآن — وللمـرة الأولى في حيـاتي — جربـت شـهوة القـمار الحقيقيـة وعرفـت كيـف يكـون عصفهـا بالنفـس، واسـتحواذها عـلى اللـبّ. وكانـت مكاسـبي قـد أذهلتنـي في أول الأمـر، ثـم أسـكرتني، بـأدق المعـاني الحرفيـة لهـذا اللفـظ. ومـن الحقائـق الغريبـة التـي يتعـذر تصديقهـا أني كنـت لا أخـسر إلا حـين أحـاول أن أقـدر فـرص الربـح والخسـارة، وأقامـر عـلى مقتـضى مـا تبـين لي مـن الحسـاب السـابق. أمـا حـين أدع الأمـر كلـه للحـظ، وألعـب بـلا حسـاب أو تدبـر، فالربـح لا شـك فيـه ولا مفـر منـه عـلى الرغـم مـن كل عامـل مـن عوامـل الترجيـح لكفـة «البنـك.» وكان اللاعبـون يخاطـرون في أول الأمـر بمالهـم، وهـم مطمئنـون، عـلى اللـون الـذي أختـاره، ولكنـي زدت المبالـغ التـي أقامـر بهـا إلى حـد لا يسـتطيعون أن يجـاروني فيـه، فكفـوا — واحـدًا بعـد واحـد — عـن اللعـب، واكتفـوا بالمشـاهدة وأنفاسـهم معلقـة.

وطفقت أزيد المبالغ التي أخاطر بها، وأكسب مع ذلك، فجاشت النفوس وسرت الحمى في الدماء. وصار السكون لا يقطعه إلا التمتمة كلما دُفع الذهب على المائدة إلى ناحيتي. حتى الضريب الرزين رمى بمجرافه على الأرض وقد ثارت نفسه ثورة «فرنسية» من فرط دهشته لنجاحي. ولكن رجلا واحدًا في الغرفة كان يضبط أعصابه ويحتفظ باتزانها. وأعني به صديقي. وقد جاء إليّ، وهمس في أذني بالإنجليزية بالرجاء أن أرحل عن هذا المكان وأن أقنع بما ربحت. وأنصفه فأقول إنه أعاد تحذيره ورجاءه مرات عديدة، ولم يتركني ويخرج إلا بعد أن رفضت نصحه (وكانت سورة القمار قد اشتدت بي) بألفاظ جعلت من المستحيل عليه أن يخاطبني مرة أخرى في تلك الليلة.

وبعد أن خرج صديقي ببرهة، سمعت صوتًا أجش يقول من ورائي: «اسمح لي يا سيدي العزيز، اسمح لي أن أعيد إليك جنيهين سقطا. يا له من حظ يا سيدي! إني أقسم بشرفي، أنا الجندي القديم، أني في تجربتي الطويلة للعب لم أر قط مثل حظك أبدًا. استمر يا سيدي، استمر بجرأة واخرب البنك.»

فأدرت وجهي فرأيت رجلًا مديد القامة في معطف خفيف عليه شارات عسكرية، يهز لي رأسه ويبتسم في أدب جم، ولو أن عقلي لم يعزب، لكان الأرجح أن أشتبه فيه وأستريب

به، فقد كانت عيناه جاحظتين وحمراوين كالدم وكان شارباه منفوشين متهدلين وبأنفه أثر من كسر، وكان لصوته نبرات عسكرية، ولكن من أحط طبقة. أما كفّاه فأقذر ما رأيت في حياتي، حتى في فرنسا. ولكن هذه المميزات الشخصية لم يكن لها عندي أي تأثير منفّر فقد تركني الجنون الذي أورثتنيه مكاسبي الهائلة مستعدًّا أن أُؤاخي كل من يشجعني على اللعب. فتقبلت من هذا الجندي القديم مقدار شمة من السعوط، وربتُّ له على كتفه وحلفت أنه خير من دب على الأرض، وأنه أمجد أثر تخلف من «الجيش الكبير»[٣]، فقال صديقي العسكري وهو يفرقع أصابعه مغتبطًا: «استمر استمر واربح. اخرب البنك. أي نعم يا صديقي الإنجليزي الشهم، اخرب البنك.»

وقد مضيت في اللعب، ولججت فيه حتى صاح الضريب بعد ربع ساعة أخرى: «أيها السادة. إن البنك يكف الآن وينقطع.» وصار كل ما كان في «البنك» من أوراق النقد والذهب كومًا أمامي ... رأس مال البيت كله أصبح تحت يدي ينتظر أن أفرغه في جيوبي.

وقال لي الجندي العتيق وأنا أدفع يديّ في كوم الذهب: «ضع المال في منديلك يا سيدي، صُرّه فيه. صره، واجمع أطرافه واعقدها كما كنا نفعل بطعامنا في الجيش الكبير، فإن مكاسبك أثقل من أن يحتملها جيب. هكذا ... تمامًا ...

ضع الورقات والذهب جميعًا ... يا له من حظ ... انتظر ... هذا جنيه آخر على الأرض ... والآن يا سيدي نعقد عقدتين متينتين، هكذا، بعد استئذانك، وإذا المال في أمان! تحسس المنديل ... تحسسه أيها السعيد المجدود! ناشف، ومستدير كالقنبلة. أما لو أنهم كانوا يطلقون علينا في أوسترلتز[٤] قنابل من هذا القبيل ...! ليتهم كانوا يفعلون! والآن ماذا بقي علي أن أفعل أنا المدفعيّ القديم والجندي الباسل سابقًا؟! أسألك ماذا أصنع؟ ... أتقدم برجائي إلى صديقي الإنجليزي الحميم أن يشرب معي زجاجة من الشمبانيا، لنشرب نخب ربة السعود في قدحين مُزبدين قبل أن نفترق!»

فيا له من جندي باسل! وما أطيبه وأرق حاشيته من مدفعي قديم! فلتدر الشمبانيا علينا، وليهتف الإنجليزي بالجندي الفرنسي القديم! هورا! هورا! ولنهتف مرةً أخرى بربة السعود! هورا! هورا!

وصاح الجندي: «مرحى! وأحبب بالإنجليزي العطوف الكريم الذي يجري في عروقه الدم الفرنسي المرح! أترع الكأس مرةً أخرى! أوه، إن الزجاجة فارغة! لا بأس! فليحيا النبيذ! أنا الجندي القديم آمر أن تدار علينا زجاجة أخرى ومعها نصف رطل من المسَكَّرات!»

فصحت به: «كلا، يا صديقي الباسل! ولا، أيها المدفعي القديم! كانت تلك زجاجتك، والآن هذه زجاجتي! هذه هي! انظر إليها ... وتعال نشرب أنخاب الجيش الفرنسي ... ونابليون العظيم ... وهذا الجمع ... والضريب ... وزوجته ... وبناته، إذا كانت له بنات ... والسيدات كافة ... وكل امرئ في هذه الدنيا!»

وأحسست، لما فرغت الزجاجة الثانية، كأني أشرب نارًا سائلة. فالتهب دماغي. ولم يسبق لي في حياتي كلها أن كان للشراب مثل هذا الغَوْل والخُمار عندي. فهل هذا الأذى نتيجة لفعل المسكر المنبه في كياني الفائر إلى درجة الحمى؟ أم ترى معدتي على حال من الاضطراب غير معهود؟ أم هذه الشمبانيا قوية الأخذ جدًّا؟

وصحت وبي من النشوة مثل الجنون: «أيها الجندي القديم في الجيش الفرنسي الكبير! إن النار مستعرة في بدني، فكيف حالك أنت! لقد أضرمت فيّ النار، فهل أنت سامع ما أقول يا بطل أوسترلتز؟ فلنشرب زجاجةً ثالثة لنطفئ الحريق ونخمد ألسنة اللهب.»

فهز الجندي القديم رأسه، ودوّم حدقتيه الجاحظتين، حتى لتوقعت أن أراهما تسقطان من محجريهما، ثم لمس جانب

أنفه المكسور بإصبعه القذر، وقال: «القهوة!» وذهب يعدو إلى غرفة داخلية.

وقد كان لهذه اللفظة المفردة التي نطق بها ذلك الجندي العتيق الشاذ، من الوقع ما يشبه السحر في الحاضرين، فنهضوا جميعًا دفعةً واحدة لينصرفوا، ولعلهم كانوا يطمعون أن ينالوا شيئًا بفضل ما كسبت، فلما وجدوا صديقي الجديد تأبى له شهامته ومروءة نفسه أن يدعني أسكر حتى لا أعي، ذهب أملهم فيما كانوا يتطلعون إليه من المتعة على حسابي، ومهما تكن البواعث التي حملتهم على الخروج، فإن الواقع أنهم انصرفوا معًا. ولما عاد الجندي وجلس مرةً أخرى إلى المائدة أمامي، كانت الغرفة خالية إلا منا، وكنت بحيث أستطيع أن أرى الضريب فيما يشبه الدهليز، يتناول عشاءه. وصار السكون أعمق وأرهب. وتغيّر الجندي السابق بغتة، واتخذ هيئة الجد الصارم، وصار إذا تكلم لا يزين عبارته أو يؤكدها بالأيمان، أو فرقعة الأصابع، أو الصيحات أو غير ذلك.

وقال لي بلهجة من يفضي إليّ بسر: «اسمع يا سيدي العزيز نصيحة جندي قديم. لقد ذهبت إلى ربة الدار (وهي سيدة ظريفة ونابغة في الطبخ) لأقنعها بوجوب العناية بإعداد قهوة قوية جيدة لنا. فعليك أن تشرب هذه القهوة لتذهب عنك

سورةُ الشراب قبل أن تمضي إلى بيتك، لا غنى بك عن ذلك يا صديقي الكريم. فإن عليك أن تحمل كل هذا المال معك إلى بيتك الليلة، ومن واجبك نحو نفسك أن تحتفظ بعقلك. وقد عرف جسامة مكاسبك ناس كثر كانوا هنا الليلة، وهم جديرون بالثقة ولكن الإنسان إنسان، يا سيدي العزيز، فهم لا يخلون من مواطن ضعف، وقد لا يستطيعون أن يقاوموا الفتنة ويصدوا عما يغريهم. فهل أحتاج أن أقول أكثر من ذلك؟ كلا! فإنك تفهم عني وتدرك ما أعني. والآن هذا ما ينبغي أن تفعل: تبعث في طلب مركبة حينما ترى أن نفسك قد ثابت إليك، وأغلق نوافذها كلها عندما تركب، ومُر السائق أن يجتاز بك إلى بيتك الشوارع الكبيرة المضاءة. افعل هذا تسلم ويسلم لك مالك. افعل ما أشير به، وغدًا ستدرك أنك مدين بالشكر لجندي هرم على ما أخلص لك النصح فيه.»

وما كاد الجندي السابق ينتهي من خطبته التي ألقاها بصوت شجي، حتى جاءت القهوة، مصبوبة في فنجانين. وناولني صديقي المحتفي بي أحد الفنجانين وهو ينحني لي. وكان ريقي جافًّا من الظمأ فشربت القهوة دفعةً واحدة. ولم أكد أرد الفنجان إلى مكانه حتى انتابني دوار شديد، وأحسست أني ازددت سكرًا، وصارت الغرفة تدور بي بعنف، وصار الجندي فيما يبدو لي يصعد ويهبط أمامي كأنه كبَّاس آلة بخارية. وأصمّني صوت يدوّي في مسمعي، واستولى عليّ

الشعور بالحيرة والذهول، والعجز، والغباء، فنهضت عن الكرسي، وأنا أعتمد على المائدة لأحتفظ بتوازني، وتمتمت أني مريض ثاقل ٥ فلست أدري كيف أذهب إلى بيتي.

فقال الجندي، وكان صوته أيضًا فيما يُخيّل إليّ، يضطرب ويعلو ويهبط كبدنه: «يا صديقي العزيز، إن من الجنون أن تذهب إلى بيتك وأنت على هذا الحال. فستفقد مالك على التحقيق. وقد تسرق وتُقتل أيضًا بسهولة. إني أنا سأنام هنا، فنم هنا أيضًا، فإنهم يجيدون إعداد الأسرة وتسويتها في هذا البيت. خذ سريرًا، وأفسد سورة الخمر بالنوم، ثم عد غدًا إلى بيتك، وأنت آمن، ومعك مكاسبك، في وضح النهار.»

ولم يبق في رأسي سوى خاطرين؛ الأول: أن لا أدع الصرّة المحشوة بالمال تفلت من يدي. والثاني: أنه يجب أن أرقد حالًا وأنام لأرتاح مما أعانيه، ومن أجل هذا قبلت ما اقترحه الجندي من النوم هنا، وتناولت ذراعه، وحملت الصرة بيدي الأخرى. وتقدمَنا الضريب فاجتزنا بعض الممرات وصعدنا درجات إلى الغرفة التي سأنام فيها. وهز الجندي يدي مصافحًا بحرارة، واقترح أن نفطر صباح غد معًا، ثم خرج يتبعه الضريب.

فأسرعت إلى حوض الغسيل، وشربت بعض ما في القلة من

الماء، وصببت الباقي في الحوض ووضعت وجهي فيه، ثم قعدت على كرسي وحاولت أن أستعيد وثاقة حالي. فسرعان ما أحسست أني أفيق وأن قوتي ترجع إلي، وقد كان الانتقال من الجو الفاسد في حجرة القمار إلى الهواء البارد في هذه الغرفة، ومن نور مصابيح الغاز الوهاجة إلى ضوء الشمعة الخافت الهادئ مما قوى الانتعاش الذي أفادنيه الماء البارد، فزال عني الدوار وبدأت أشعر أني قاربت حالة الأصحاء العقلاء. وكان أول ما جرى ببالي هو الخطر الذي يستهدف له من ينام الليل كله في بيتٍ من بيوت القمار، وكان الذي جرى ببالي بعد ذلك هو الخطر الأكبر الذي يتعرض له من يحاول الخروج من البيت بعد أن يوصد بابه، والذهاب إلى البيت وحده في الليل، مخترقًا شوارع باريس ومعه مبلغ ضخم من المال. ولقد نمت في شر من هذا البيت خلال أسفاري العديدة. ولذلك صح عزمي على أن أسكَّ الباب وأُضَبِّبَهُ[٦] وأترسه، وفي الصباح أرى ما يجيء به الحظ.

وهكذا اتقيت التطفل علي، ثم نظرت تحت السرير، وفي الصوان[٧] واختبرت مشابك النافذة، ولما اقتنعت بأني لم أقصر في الحيطة خلعت ثيابي الفوقية، ووضعت الشمعة على الموقد بين رماد الخشب، ورقدت على السرير، ودسست صرتي تحت المخدة.

وما لبثت أن تبينت أن النوم لن يؤاتيني، وأني لن أستطيع

حتى أن أغمض جفوني، فقد كنت تام التنبه وفيما يقارب الحمى، وكان كل عرق في بدني ينبض، وكل حاسة من حواسي مرهفة، فجعلت أتقلب، وأجرب كل رقدة، وألتمس المواضع الباردة من الفراش، ولكن بلا فائدة، وكنت تارةً أريح ذراعي على ظهارة الفراش، وتارةً تحتها، وتارةً أدفع رجليّ وأمدهما إلى آخر السرير، وطورًا آخر أطويهما إلى قريب من ذقني، ومرة أهز المخدة وأقلبها على الوجه الآخر، وأسويها وأرقد على ظهري، ومرة أثنيها وأقيمها على حدها وأسندها إلى ظهر السرير وأحاول أن أنام وأنا راقد كقاعد. ولكن هذا كله كان عبثًا فتوجعت وسخطت وأدركت أن أمامي ليلة طويلة سأقضيها مسهدًا.

وماذا أستطيع أن أصنع؟ لم يكن معي كتاب فأتسلى بالقراءة، وإذا لم أهتد إلى ما أشغل به نفسي وألهي به عقلي فإن من المحقق أن يفضي بي ذلك إلى حال أتوهم فيه كل ضرب من المخاوف والأهوال، وأتصور كل ممكن وكل مستحيل من المخاطر، أي أن أقضي الليلة وأنا أقاسي كل أنواع الفزع العصبي.

واتكأت على مرفقي وأجلت عيني في الغرفة، وكان القمر يريق عليها ضوءه اللين من النافذة، وفي مأمولي أن أجد صورة أو حلية أتأملها. وتذكرت وأنا أدور بعيني من جدار

إلى جدار، ذلك الكتاب الممتع «رحلة في غرفتي» فاعتزمت أن أحذو حذو الأديب الفرنسي، وأن أنشد من التسلية ما يخفف آلام السهاد وسآمته، وذلك أن أحصي — في رأسي — كل ما أستطيع أن أرى من متاع الغرفة وأثاثها وأن أتتبع إلى مصادرها جمهرة الذكريات التي لا يعجز عن إثارتها حتى كرسي أو مائدة أو حوض.

على أن اضطراب أعصابي جعل الإحصاء أسهل عليّ من التفكير، فما لبثت أن يئست من قدرتي على انتهاج الطريق الذي ضرب فيه صاحب «رحلة في غرفتي»، لا، بل من القدرة على أي تفكير، فأدرت عيني في الغرفة، ونظرت إلى قطع الأثاث المختلفة، ولم أزد على ذلك.

وكان هناك، أولًا، السرير الذي أرقد عليه، وله عمد أربعة، وذاك آخر ما كنت أتوقع أن أجد في باريس؛ سرير إنجليزي الطراز ذو أربع قوائم، يحيط به من فوق، سِجف منقوش، وينسدل عليه ستران مقرونان خانقان، تذكرت أني لما دخلت الغرفة رددت كل شق منهما إلى القائمة من غير أن أجعل بالي إلى السرير نفسه. وكان هناك أيضًا حوض من الرخام للغسل، هو الذي صببت فيه الماء بلا تحرز أو أناة، ولا تزال بقية مما أريق على حافته يقطر ببطء على الأرض. وثم أيضًا كرسيان صغيران ألقيت عليهما ما خلعت من ثيابي، وكرسي آخر كبير ذو ذراع، وقد طرحوا عليه حِبسًا[٨] أبيض

إلا أنه قذر، وعلى ظهره بنيقتي وربطة رقبتي، وصوّان له أدراج، مقابض بعضها منزوعة، ودواة من الصيني مزخرفة ولكنها مكسورة موضوعة على ظهر الصوان كأنها حلية، ومنضدة للزينة، عليها مرآة صغيرة جدًّا، ومدبسة كبيرة جدًّا، ثم الشباك وهو أكبر من المألوف، وكانت هناك أيضًا صورة قاتمة قديمة رأيتها على ضوء الشمعة، وهي صورة رجل على رأسه قبعة إسبانية عالية مزدانة بالريش، ووجهه وجه شرير نذل، وعيناه تنظران إلى فوق، ويده على حاجبه كأنه يستشرف، وكان يحدّق فيما فوق، فلعله كان يرمق مشنقة عالية يوشك أن يتدلى منها. ومهما يكن من ذلك، فلا شك أن هيئته كانت هيئة رجل يستحق هذا المصير بلا جدال.

وكأنما أعدتني الصورة فرحت أصعد بصري إلى ما فوق، إلى سقف السرير. ولكن منظره كان كريهًا؛ فحولت عيني إلى الصورة، ورحت أعد الريشات التي تزدان بها القبعة، فإذا هي ثلاث بيضاء، وثلاث خضراء، وتأملت قمة القبعة فألفيتها مخروطية الشكل، من الطراز الذي كان يميل إليه ويؤثره «جيدو فوكس»، وتساءلت عما ينظر إليه هذا الرجل المرسوم! لا يمكن أن تكون النجوم همه، فإن شريرًا مثله لا يكون فلكيًّا ولا منجمًا، فلا بد أن تكون عينه على المشنقة العالية التي سيرفع إليها ويتدلى منها بعد قليل! فهل يرث الجلاد قبعته العالية المريشة؟ وأحصيت الريش مرةً أخرى فألفيته كما كان؛ ثلاث ريشات بيضاء، وثلاث ريشات خضراء!

وبينما كنت أتشاغل بهذا شردت خواطري، وأذكرني ضوء القمر في الغرفة ليلة مقمرة في إنجلترا، بعد رحلة للنزهة في وادٍ ببلاد ويلز. وتمثل لخاطري كل ما شاهدته وأنا عائد مع رفاقي من هذه الرحلة؛ من المناظر الجميلة التي زادها القمر جمالًا، وأكسبها فتنة لا تكون لها بغيره، ومن العجيب أني كنت نسيت هذه الرحلة ولم أفكر فيها كل هذه السنوات الطويلة، ولو أني حاولت أن أتذكرها لكان المحقق أن لا أستعيد إلا قليلًا من مشاهدها. فيا لهذه الذاكرة التي لا تزال تعيننا على الاعتقاد بأنا خالدون على الرغم من الفناء المادي! ها أنا ذا في بيت مريب لا عهد لي به، وفي موقف قلق لا يخلو من خطر من شأنه أن ينفي التفكير الهادئ، ومع ذلك أراني أتذكر، عفوًا وبلا جهد مني، أماكن وأشخاصًا، وأحاديث ودقائق من كل ضرب، كنت أظنها قد طويت طيًّا ليس له من نشر، وما كان من الممكن أن أتذكر ذلك بإرادتي حتى في أحسن الأحوال. وما الذي أثار هذه الذكرى في لحظةٍ واحدة، وأحدث هذا الأثر العجيب المعقد الخفي السر؟ لا شيء سوى أشعة القمر الداخلة من نافذة غرفتي!

وكنت لا أزال أفكر في تلك الرحلة، وفي مرحنا ونحن عائدون منها، وفي السيدة الشابة التي تأبى إلا أن تنشد أبياتًا من قصيدة «تشايلد هارولد» — بيرون — لأن القمر كان يضيء الدنيا، وردتني هذه المناظر والملاهي المنسية إليها واستولت علي، وإذا بالخيط الذي تعلقت به ذكرياتي ينبتّ

في ثانية واحدة، وإذا بي أُرد إلى الحاضر الذي أنا فيه بقوة، وإذا بي ألفي نفسي — لا أدري لماذا؟ — أنظر بحدة إلى الصورة المعلقة مرة أخرى!

أنظر باحثًا عن أي شيء.

يا إلٰهي! لقد شد الرجل المرسوم قبعته على حاجبيه! كلا! بل اختفت القبعة كلها! أين ذهبت القبعة المخروطية الشكل؟! وأين الريشات الست؛ الثلاث البيضاء، والأخر الخضراء؟! لم يبق لها وجود! وما هذا الذي يحجب جبينه الآن وعينيه ويده المرفوعة إلى ما فوق !حاجبيه؟

أفي السرير شيء يتحرك؟

انقلبت على ظهري، وحدقت. أتراني جننت؟ أما أنا سكران؟ أم هو حلم؟ أم عاودني الدوار؟ أم سقف السرير يهبط ببطء، ولكن باطراد، وفي سكون؟ يهبط كله شيئًا فشيئًا، بطوله وعرضه، ويدنو مني قليلًا فقليلًا وأنا راقد تحته؟

وأحسست كأنما جمد الدم في عروقي، وابترد جسمي وسرى مثل الشلل في بدني، وأنا أقلب خدي على الوسادة، أنظر

إلى الرجـل المرسـوم في الصـورة وأرى هـل يهبـط سـقف السريـر حقًّـا أو هـو ثابـت لا يتحـرك؟

وكانـت نظـرة واحـدة إلى الصـورة حسـبي، فقـد كان السـجف المنقـوش المحيـط بجوانـب السريـر مـن سـقفه محاذيًـا لخنصـر الرجـل! وظللـت أنظـر وقـد احتبسـت أنفـاسي، ورأيـت الصـورة المرسـومة تختفـي، والإطـار مـن تحتهـا يغيـب، والسـقف يهبـط ببـطء، وفي اطـراد، وبـلا صـوت!

وأنـا لا جبـان، ولا ضعيـف القلـب. وقـد تعرضـت للمخاطـر والمهالـك أكثـر مـن مـرة في حيـاتي، ولم أفقـد عقـلي لحظـة واحـدة، ولكنـي لمـا أيقنـت أن سـقف السريـر يتحـرك وأنـه يهبـط عـليَّ، نظـرت إليـه وأنـا أرعـد، وقـد فاجـأني الـروع فـلا حيلـة لي تحـت هـذه الأداة القاتلـة الشـنيعة التـي تقـترب منـي لتخنقنـي وأنـا أرقـد.

خذلنـي الرشـد، وخاننـي اللسـان، وتعلقـت أنفـاسي وأنـا أنظـر، وكانـت الشـمعة قـد نفـدت فانطفـأت، ولكـن القمـر كان يـضيء الغرفـة. وكان السـقف يهبـط بـلا توقـف، ولا صـوت، وأنـا مـن الفـزع كأنـما شـددت إلى المرتبـة، وبلـغ مـن دنـو السـقف منـي أن شـممت رائحـة الـتراب الـذي في السـجف المحيـط بـه.

وفي هذه اللحظة الأخيرة تنبهت غريزة المحافظة على الذات، وأنقذتني من الذهول الذي استولى عليّ فتحركت، ولما أكد، فما كان هناك من المسافة بين المرتبة والسقف أكثر مما يسمح بالانقلاب على جنبي والتدحرج عن السرير. وبينما كنت أهوي إلى الأرض بلا ضجة أو ضوضاء لمست بكتفي سجف هذا السقف القاتل.

ولم أنتظر حتى تنتظم أنفاسي، ويثوب إليَّ جسمي، ولم أعن بأن أمسح العرق البارد الذي تصبب من وجهي، بل أسرعت فنهضت على ركبتي لأرى سقف السرير من سطحه. وأعترف أني سُحرت فسُمرت في مكاني، فلو أني سمعت حينئذ وقع أقدام خلفي لما استطعت أن أدور أو أتلفت، ولو أن وسيلة للنجاة أتيحت لي بمعجزة لما وسعني أن أتحرك لأنتفع بها، فقد صار كل ما فيَّ من قوة وحياة مركزًا في عينيّ.

ظل السقف كله يهبط، ومعه السجف الذي يدور به، حتى لم يبق بينه وبين المرتبة ما يكفي لدس إصبع، فمددت يدي وتحسست جوانب السقف، فإذا الذي كنت أحسبه، وأنا راقد، سقفًا عاديًا لسرير ذي قوائم أربعة، مرتبة سميكة عريضة يحجبها السجف ويسترها من تحتها الكلة، فصعدت طرفي فأبصرت القوائم الأربعة عارية. وفي وسط السقف الهابط بِزال[٩] عظيم خارج من سقف الغرفة، وهو ولا شك

الـذي نـزل بالسريـر، عـلى نحو مـا تفعـل المكابـس. وكانـت هذه الأدوات الضاغطـة الرهيبـة تتحـرك مـن غـير أن تحـدث أخفـت صـوت. فـما سـمعت شـيئًا وأنـا راقـد، ولا كان هنـاك أدنـى جـرس مـن الغرفـة التـي فوقـي. وفي هـذا السـكوت المـروّع، وفي القـرن التاسـع عـشر، وفي عاصمـة فرنسـا المتحـضرة، رأيـت أداة للقتـل خنقًـا، مثلهـا لعلـه كان موجـودًا في أحلـك أيـام محكمـة التفتيـش، أو في الفنـادق النائيـة المنقطعـة في جبـال الهارتـز أو في محاكـم وسـتفاليا السريـة. وكنـت، وأنـا أتأملهـا، لا أزال عاجـزًا عـن الحركـة، ولا أكاد أسـتطيع أن أتنفـس، ولكنـي اسـتعدت قـدرتي عـلى التفكـير فتجسـدت لي المؤامـرة التـي دبـرت لهلاكـي في أفظـع صورهـا.

لقـد كانـت القهـوة التـي قدمـت لي، فيها مخـدر، ولكنـه كان أقوى مـما يجـب فأنجـاني مـن المـوت اختناقًـا أني تناولـت فـوق الكفايـة مـن المخـدر، ولشـد مـا كنـت أتـبرم وأسـخط عـلى الأرق الـذي أنقـذني! ولشـد مـا وثقـت بالوغديـن اللذيـن قـاداني إلى هـذه الحجـرة، وقـد اعتزمـا أن يقضيـا عـلى حيـاتي ليظفـرا بمكاسـبي! ومـا أكثـر الذيـن ربحـوا مثـلي، ونامـوا مطمئنـين، كـما كنـت أحـب أن أنـام، عـلى هـذا السريـر ثـم لم يرهـم، ولا سـمع بهـم أحـد بعـد ذلـك! وسرت في بـدني الرعـدة وأنـا أتصـور هـذا المصـير الـذي كنـت صائـرًا إليـه.

وتعطـل كل تفكـير، مـرة أخـرى، حينـما رأيـت أداة الهـلاك

تتحرك مرة أخرى فبعد أن لبثت جاثمة على المرتبة حوالي عشر دقائق — على قدر ما استطعت التخمين — بدأت ترتفع، ولا شك أن الأوغاد الذين كانوا يحركونها من فوق اعتقدوا أنهم بلغوا غايتهم وحققوا مأربهم. وكما كانت تهبط في بطء وسكون كذلك أخذت تصعد إلى مكانها الأول، فلما بلغت أطراف القوائم الأربع للسرير كانت قد بلغت السقف أيضًا، واختفى الثقب والبزال جميعًا، وعاد السرير — كما كان يبدو للعين — سريرًا عاديًّا، وسقفه السقف المألوف الذي لا يبعث على أي استرابة.

ووسعني الآن — لأول مرة — أن أتحرك، وأن أنهض عن ركبتي وأرتدي ثيابي وأفكر في النجاة والتماس الطريق إليها. وكنت أدرك أن علي أن أتقي أن أحدث صوتًا يدل على أن الذين حاولوا خنقي أخفقوا، وإلا قتلوني على التحقيق. فهل تراني أحدثت صوتًا؟ أرهفت أذني، وجعلت عيني على الباب لأتبين ... كلا. لم أسمع وقع قدم في الدهليز، ولا صوتًا، لا خفيضًا ولا عاليًا من الغرفة التي فوقي. وكان السكون تامًّا في كل مكان، وكنت قد حرصت قبل الرقاد على السرير، على إيصاد الباب وتضبيبه، ولم يكفني ذلك فوضعت خلفه صندوقًا قديمًا من الخشب وجدته تحت السرير، فاتخذت منه مترسًا. وكان من المستحيل نقل هذا الصندوق الآن من موضعه وراء الباب بلا ضجة (وقد اقشعر بدني وأنا أفكر فيما عسى أن يكون مخبأ فيه!) كذلك كان من الجنون أن

أفكر في الخروج من البيت من بابه الموصد. فلم يبق لي إلا النافذة، فمشيت إليها على أطراف أصابعي.

وكانت غرفتي في الطابق الأول فوق كُنَّة، وهي تطل على الشارع الخلفي الذي خططته في رسمك، فرفعت يدي لأفتح النافذة وأنا أعلم أن سبيل النجاة رهنٌ بهذا؛ فإن بيتًا كهذا يقتل فيه الناس لا بد أن يكون عليه حُراس لا ينامون، وإني لجدير بأن أقضي نحبي على نحوٍ ما، إذا أَطَّ الشباك أو صوّت نجرانه. ١٠ وقد قضيت خمس دقائق — في حساب الزمن — وخمس ساعات فيما كنت أحس، في فتح هذا الشباك، ووفقني الله إلى فتحه في سكون، كما كان يمكن أن يفعل أمهر اللصوص وأحذقهم، ثم أشرفت على الشارع وأدرت عيني فيه، فوجدت أن إلقاء نفسي من النافذة، يكون فيه هلاكي المحقق، فأجلت طرفي في جوانب البيت، فرأيت على الجانب الأيسر منه أنبوبة الماء الغليظة التي رسمتَها، وكانت قريبة من الشباك، وما كدت أراها حتى أيقنت من النجاة، فخلصت أنفاسي لأول مرة مذ رأيت سقف السرير يهبط عليّ!

وقد يرى بعض الناس أن وسيلة النجاة التي اهتديت إليها خطرة، ولكن انزلاقي على الأنبوبة إلى الطريق، لم يتمثل لي فيه أي خطر، فقد استطعت بالمواظبة على الرياضة البدنية أن أحتفظ بقدرتي على التسلق وبراعتي فيه، وكنت واثقًا

أن رأسي ويـديَّ ورجـليَّ لـن تخونني. لهـذا لم أتـردد في الإقـدام، فركبت حافة النافذة، ولكنـي تذكـرت صرة المكاسب المدسوسة تحت الوسادة، وكان في وسعي أن أدعها، ولكني آليت ألا أتـرك لأشرار هـذا البيـت مـا كانـوا يمنّـون النفس باستلابه، ولهـذا عـدت إلى السريـر، وربطـت الـصرة الثقيلة برباط رقبتي، وألقيتها عـلى ظهـري.

وخيـل إليَّ، بعـد أن فرغـت مـن ذلـك، أني سـمعت حسيس أنفاس وراء الباب، فسرت رعـدة الفـزع في بـدني مـرةً أخـرى، وأنـا أنصـت وأتسـمّع. كلا! لا ركـز، ولا شيء غـير السكون في الدهليـز، وإنـما كان مـا سـمعته هسيس الهـواء الداخـل في الغرفـة، ولم أضـع وقتًـا، فوثبـت إلى حافـة النافـذة، ومـن ثـم تعلقـت بأنبوبـة المـاء بيـديَّ وركبتـيَّ.

وانحـدرت إلى الشارع بسـهولة وبغير ضجـة، كـما كنت أتوقع، وذهبـت أعـدو بأقـصى مـا يسـعني مـن السرعـة إلى مركـز الشرطـة، وكنـت أعـرف أنـه في جـوار هـذا الحـي. وكان هنـاك ضابـط وبعـض الجنـود يحكمـون تدبـير خطـة، عـلى مـا أعتقـد، للاهتـداء إلى مـن ارتكـب جريمـة خفيـة كانـت باريـس كلهـا تلغـط بهـا يومئـذ، فلـما شرعـت أقـص قصتـي، بسرعـة، وبلغـة فرنسـية محطمـة، كان مـن الجـلي أن الضابـط يحسبني إنجليزيًّـا مخمـورًا سـطا عـلى بعضهـم وسرقـه، ولكـن سرعـان مـا غـير

رأيه بعد أن مضيت في قصتي، وقبل أن أتمها كان قد دس ما أمامه من الأوراق في درج، ولبس قبعته، وأعارني قبعة (فقد كنت عاري الرأس) وأمر صفًّا من العسكر أن يستعدوا، وطلب من الصناع أن يهيئوا كل ضروب الآلات اللازمة لفتح الأبواب عنوة ورفع بلاط الأرض، وتناول ذراعي كأني صديق حميم، وخرج بي. وأجازف فأقول إن الضابط، لما كان طفلًا صغيرًا، وحمله أهله أول مرة إلى الملعب لم يكن فرحه بذلك كفرحه الآن بما يتوقع أن يجد في البيت الذي هربت منه.

واجتزنا الشوارع والضابط يستجوبني ويهنئني في وقت معًا ونحن سائران على رأس القوة التي صحبتنا، ولما بلغنا البيت وضع الحراس أمامه وخلفه ثم أهوى على الباب يدقه ويقرعه فظهر نور في نافذة، فأمرني أن أتوارى وراء الشرطة، وتلت ذلك قرعات أخرى أشد وأقوى، وصيحة «افتحوا باسم القانون.» فانفتحت المزاليج والمغاليق أمام هذه الصيحة المرعبة، وما كاد المصراع يتحرك حتى كان الضابط في الدهليز يواجه خادمًا ممتقع اللون في نصف ثيابه فدار بينهما هذا الحوار الوجيز:

– «نريد أن نرى الإنجليزي النائم في هذا البيت.»

– «قد خرج منذ ساعات.»

– «لم يفعل شيئًا من ذلك، انصرف صاحبه وبقي هو. فاذهب بنا إلى غرفته.»

– «إني أقسم لك يا سيدي الضابط أنه ليس هنا ... إنه ...»

– «إني أقسم لك يا سيدي الخادم إنه هنا. نام هنا ثم لم يجد سريركم مريحًا فجاء إلينا يشكو — هذا هو بين رجالي، وهذا أنا جئت لأبحث عن هناة أو اثنتين في سريركم! يا رينو دان (أحد أعوانه) شد وثاق هذا الرجل واربط يديه وراء ظهره. والآن فلنصعد.»

وقبضوا على كل رجلٍ وكل امرأة في البيت، وفي طليعتهم ذلك «الجندي القديم» وأريتهم السرير الذي رقدت عليه ثم صعدنا إلى الغرفة التي فوقه. فلم نر أي شيء فيها يمكن أن يستغرب أو يلفت النظر، فأجال الضابط عينه فيها وأمر الحاضرين أن يلزموا الصمت وضرب الأرض برجله مرتين ودعا بشمعة.

وفحص الموضع الذي ضربه برجله، وأمر بأن ينزع البلاط، فكان ما أراد في أوجز وقت، وجيء بالأنوار الكافية فرأينا

فجـوة عميقـة مدعمـة بالخشـب بـين أرض الغرفـة وسـقف الغرفـة التـي تحتهـا، وفي هـذه الفجـوة صنـدوق قائـم مـن الحديـد عليـه شـحم كثـير وفي جوفـه البـزال المتصـل بسـقف السريـر، ووجدنـا عـدا ذلـك ضروبًـا أخـرى مـن البـزال حديثـة التزييـت، وروافـع مكسـوة بالمخمـل، وكل مـا تركـب منـه آلـة ضاغطـة ثقيلـة، وهـي جميعًـا مصنوعـة بحيـث يسـهل وصلهـا بـما أُعـد في الغرفـة التحتيـة، وبحيـث تفـك وتوضـع في أضيـق مـكان. وبعـد قليـل مـن العنـاء اسـتطاع الضابـط أن يركـب هـذه الآلـة، ثـم تـرك رجالـه ليديروهـا وانحـدر هـو إلى الغرفـة التـي فيهـا السريـر، وأُنـزل السـقف الخانـق ولكـن نزولـه أحـدث صوتًـا لم أسـمعه وأنـا راقـد، وقـد ذكـرت هـذا للضابـط فـكان جوابـه العظيـم الدلالـة: «إن رجـالي يسـتعملون هـذه الآلـة للمـرة الأولى، أمـا الذيـن ربحـت ماهـم فـإن خبرتهـم أطـول ومرانتهـم أوفى.»

وغادرنـا البيـت في حراسـة اثنـين مـن رجـال الشرطـة فقـد نقـل كل مـن كان فيـه إلى السـجن. وبعـد أن دون الضابـط أقـوالي في مكتبـه ذهـب معـي إلى فندقـي لـيرى جـواز سـفري. وقـد سـألته وأنـا أقدمـه لـه: «أتظـن أن أحـدًا خنـق حقيقـة عـلى هـذا السريـر كـما حاولـوا أن يخنقـوني؟»

فقـال: «لقـد رأيـت عـشرات مـن جثـث الغرقـى في معـرض

المجهولين، وقد وجدت معهم إقرارات بأنهم انتحروا في نهر السين لأنهم خسروا مالهم على مائدة القمار. ومن أدراني أنهم لم يدخلوا البيت الذي دخلته؟ وربحوا كما ربحت؟ وناموا حيث رقدت؟ واختنقوا فيه؟ ثم ألقوا بهم في النهر وفي ثيابهم إقرار كتبه القتلة؟ إنه ما من أحد يستطيع أن يقول كم لقوا الحتف الذي نجوت أنت منه.

وقد كتم أهل هذا البيت سر آلتهم عنا نحن الشرطة، وتكفل الموتى بكتمان باقي السر. والآن عم مساءً، أو على الأصح عم صباحًا يا سيد فولكنر. وأرجو أن تعود في الساعة التاسعة، وإلى الملتقى!»

ولم يبق من قصتي إلا قليل، سئلت مرة وأخرى، وفتش كل مكان في البيت، واسْتُجْوِبَ المقبوضُ عليهم، كل واحد منهم بمفرده، واعترف اثنان منهم. وتبينت أنا أن «الجندي القديم» هو صاحب بيت القمار، وأظهر التحقيق أنه طرد من الجيش من سنين لسوء سيرته، وأنه اقترف كل ضروب الآثام بعد ذلك، وأن عنده مسروقات شتى عرفها أصحابها، وأنه هو والضريب وشريك آخر والمرأة التي وضعت لي المخدر في القهوة، يعرفون جميعًا سر السرير، وكان هناك شك في أن غيرهم ممن يعملون في هذا البيت يعرفون شيئًا عن الأداة الخانقة المركبة فيه، فانتفعوا بهذا الشك، وعدهم

القضاء لصوصًا ومتشردين. أما الجندي القديم وشريكاه فحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، وأما المرأة فكان نصيبها السجن سنواتٍ نسيت عددها. وعُد الذين يختلفون إلى هذا البيت بانتظام «مشتبهًا فيهم» ووضعوا تحت المراقبة ولبثت أسبوعًا كاملًا (ما كان أطوله!) وأنا أبرز رجل في المجتمع الباريسي. واتخذ ثلاثة من مشاهير الروائيين، حادثتي موضوعًا لقصصهم المسرحية، ولكنها لم تر الضوء ولم تمثل منها واحدة لأن الرقابة منعت أن تظهر على المسرح صورة صادقة لهذا السرير.

على أن الحادثة أثمرت خيرًا لا شك أن أية «رقابة» لا يسعها إلا أن تحمده. ذلك أنها شفتني وزهدتني في لعبة «الأحمر والأسود» وبغضت إليّ التسلي بها، وسيظل منظر الغطاء الأخضر، وعليه أوراق اللعب، وأكوام الفلوس، مقرونًا عندي بمنظر سقف سرير يهبط عليّ ليخنقني في ظلام الليل وسكونه.

## هوامش

(١) المفروض أن صاحب الحادثة يقص القصة على المصور الذي يرسمه.

(٢) الضريب هو: الموكل بالقداح في الميسر (موظف نادي القمار)، وقد رأيت أن أترجم بها كلمة reipuorC.

(٣) جيش نابليون.

(٤) موقعة انتصر فيها نابليون في ألمانيا.

(٥) الثاقل: الذي أثقله المرض.

(٦) السك والتضبيب، لفظان صحيحان ومعناهما معروف (إغلاق الباب بشدة)، والمترس ما يوضع خلف الباب.

(٧) ما تصان فيه الثياب.

(٨) الحِبس: مفرش السرير.

(٩) البزال: البريمة.

(١٠) النجران: ما يدور عليه الباب أو الشباك، والأطيط صوت الخشب أو الجلد وما أشبههما.

# وليم هيل هوايت (مارك روذرفورد)

## نفس رضية

منذ أربعين سنة خلت كنت «كاتبًا» في ديوان للحكومة في «هوايتهول» وكنت قد قضيت في عملي هذا ثلاث سنوات. وكان أبي على شيء من الخفض في العيش وله ألف وخمس مائة فدان، ولما لم يكن له من الولد سوى بنت وغلام فقد وسعه أن يدخلني في مدرسة «هارو» التي تعلم هو فيها، وقد انتقلت من «هارو» إلى «كمبردج» وأديت الامتحان الخاص بالخدمة المدنية بنجاح، وما لبثت أن خطبت «مرغريت راشورث» بنت راعي الكنيسة ببلدة «همسورث» على مسافة خمسة أميال من بلدتنا، وفي سنة ١٨٧٠ بنيت بها. وكان أبي يوسع عليّ بمائة جنيه في العام غير ما أتقاضاه من عملي، وكان لمرغريت خمسون جنيهًا في العام، فاتخذنا لنا بيتًا في «بلاك هيث.»

ولم تكن مرغريت ذات ولوع بالقراءة، وإن كانت تجيد تحصيل ما تقرأ وقد حدثت نفسي أنها ستتفتح، أعني أن تُشغف بالأدب وتُغرى بالاطلاع عليه ولكنها لم تفعل ولم يصدق ظني، ولعله كان لا يسعها إلا أن تنمو وتنضج وفق طبيعتها، وعسى أن يكون الله قد شاء — وإن كانت هي لا تدري — أن تبقى طبيعتها الخاصة غير مشوبة أو متأثرة بطبيعة أخرى. أما أنا فكنت على نقيضها ولم تكن لي حياة إلا في الكتب، وكنت أيام كمبردج قد دخلت في الأدب دخولًا ثابتًا فأصبحت أمقت اللهو ولا أطيق الفراغ. وكان حبي للكتب هو الذي يرجع إليه بعض ما فيَّ من عيوب، ومن بينها فقدان الشعور بالتناسب، والإدراك الصحيح للقِيَمَ الحقيقية للأشياء. فقصيدة قصيرة من ثلاثة مقاطع أو أربعة، أو بضعة أبيات من قصة «اغتصاب خصلة الشعر» ترجح عندي بأخبار الحوادث الجسام، بل كان خيرًا عندي، وأولى بي في رأيي، أن أعرف كيف كان شكسبير يربط حذاءه من الإلمام بأحكام قانون ثوري كقانون الإصلاح. وكان الحديث لا يطيب لي إلا إذا دار على ما أقرأ، ولا شك أن كثيرين كانوا يعدونني مغرورًا مفتونًا متحذلقًا، وأعترف أن مخالطتي كانت لا رضية ولا مطلوبة، وكان الهزالون والفارغو القلوب والرءوس يضحكون مني ويتهكمون عليَّ، لأن الرجل الجاد مثلي يكون لأمثالهم عرضة استهزاء من العسير عليهم أن يصدوا أنفسهم عن ركوبه بالعبث والمجانة.

على أن هذه الطبيعة الخاصة لم تتكشف إلا بعد الخطبة بقليل. وقد كنت يومئذ أطمع في السعادة مع مرغريت، وأحلم بأن أقضي الأمساء الطويلة ونحن معًا ندرس شيللي (الشاعر) ونبحث سياق قصته «ثورة الإسلام» وهي مسألة كانت لا تزال مستعصية الحل عليّ. وكنت عضوًا في ناد يسمى، لغير داع خاص، «نادي السبت» وقوامه اثنا عشر رجلا من أترابي وأشباهي في النزعة يجتمعون في اليومين الثاني والخامس عشر من كل شهر للاستفادة وتفتيش الكلام والنظر في المعارف. وما من ريب في أن كثيرين يستغربون ذلك، ولكنه لا يبدو لي غريبًا، حتى الآن أن يجلس اثنا عشر من أبناء هذا العالم المبتذل، إلى مائدة وأن يحاولوا، بغير معونة من شراب أو طباق أو قهوة، أن يجيلوا النظر ويتبادلوا الرأي في موضوعات يعدها الأكثرون ثقيلة منفرة. وقد عدت مرة إلى البيت ورأسي مكتظ بأسلوب الشاعر ملتون في النظم، فشرعت أصب على رأس مرغريت ما دار في اجتماعنا، وأفضي إليها بآرائي وملاحظاتي على الخصوص، ولكن لما كانت لم تقرأ قط قصيدة «الفردوس المفقود» ولا تعرف شيئًا عن البحر المرسل، فقد أقصرت، وشعرت بخيبة الأمل. وأسفت هي أيضًا، وانقضى المساء، كما تنقضي الأمساء في أخريات سبتمبر/ أيلول الذي قل أن توقد فيه النار، ومع ذلك يجيء فيه المطر البارد مع الظلام المتكاثف. وكانت عادتنا إذا وقع الثاني أو الخامس عشر من الشهر، في يوم سبت، أن نجتمع في الساعة الرابعة، فاتفق مرة أن حاولنا أن نتبين

حقيقة ما حدث للزورق المسحور في قصيدة «أَلاسْتور» فإن الماء المائج يرتفع «درجة فوق درجة» والزورق يستولي عليه الموج المتسامي. فحيرني ذلك واشتقت إلى الفهم، وعدت إلى البيت فلم أستطع أن أصد نفسي عن عرض المعضلة التي تحيرني، على مرغريت، فقرأت لها من قصيدة «ألاستور» كل ما له علاقة بحركة الزورق، وأفضت في الشرح والبيان وكنت أراها تجشم نفسها أن تتبعني وأن تستوضح مجرى الماء ولكنها لم توفق، وأغضبني ما تقوله مما لا دخل له في الأمر، وسألتني من عسى أن يكون هذا المطوّف، وما الغرض من رحلته؟ فلم أطق صبرًا وقلت لها وأنا معتمد بمرفقيّ على المائدة، ورأسي بين كفي من الغم: «لشد ما أتمنى يا مرغريت أن أجد عندك أكثر من هذا العطف قليلًا! وما أخلقني بالسعادة لو أنه كان يعنيك ما يعنيني!» فلم تقل شيئًا، وتركتها وخرجت ولكني، وأنا خارج، خيّل إليّ، أن الدمع متحيّر في عينها، ففزعت! فقد كنت أحبها حبًّا جمًّا، وحدثت نفسي أن هذا لعله بداية الفتور في حبي لها. فماذا ينبغي أن أصنع؟ وكيف أكون إذا حلت بيننا الجفوة، ووقعت النبوة؟ وشعرت بالفزع القريب من الجنون الذي يشعر به الناس حين تزلزل الأرض وترتج تحت أقدامهم.

وفي تلك الليلة تعشى معنا صديق قديم من أيام الدرس، وكنت لم أره منذ سنتين. واسمه روبرت باركلي. وكان أبوه قسيسًا درس اللاهوت في مدرسة سيميون، فهو لهذا

من الإنجيليين، وكذلك كان ابنه روبرت الذي تعلم في كمبردج، ولكنه تغير لما بلغ الخامسة والعشرين، كأنما أفاق من سبات، وشرع يتساءل، وكانت النتيجة أن العقيدة التي رُبِّي عليها بدت له كأنها غير ذات أساس، وكأنما هي معلقة في الفضاء. وظل هكذا حتى أصبح لا يستطيع أن يقول شيئًا غير «لا أدري.» غير أنه كان من المستحيل أن يطمئن إلى هذا ويرضى به، فقد كان ممن تغريهم فطرتهم بالنزوع إلى التقرير والحسم، فما لبث أن تحول إلى العقيدة الكاثوليكية وحل بهذه الطريقة، على نحو يرضيه، المعضل الناشئ عن إيجاد سند للسلطان البابوي، يرجع إلى المركز الذي أعياه أن يجده في المذهب السيميوني. وقد اقتنع بأن يقف حيث وقف نيومان: «إنه لا حيلة في ذلك، فإما أن نرفض الإيمان بالكنيسة باعتبارها إلهية وإما أن نقر لها ونعترف بها في النظام الذي يرأسه البابا. وعلينا أن نتقبل الأشياء كما هي كائنة. فإنك إن تؤمن بالكنيسة تؤمن بالبابا.»

وكان باركلي كثيرًا ما يزورنا في بيت أبي قبل هذا التحول، فأحب فيرونيكا — أخت مرغريت — وكانتا في ضيافة أمي. وبادلته فيرونيكا حبًّا بحب، فخطبها، وإذا به بعد ذلك تستولي عليه الرغبة، شيئًا فشيئًا، أن يكون قسيسًا، ويعمق في نفسه الإيقان، بأن من واجبه أن يفعل ذلك، وكانت فيرونيكا قد صارت كاثوليكية أيضًا، وساعفتها قوة النفس فكانت تحضه على أن يلبي ما كان كلاهما يعتقد أنه

نداء إلهي. وليس في وسع إنسان أن يحيط بهما قاساه واحتمله هذان، الله وحده هو العليم بهما. وكنت أنا ألمح، بين آونة وأخرى، آيات المجاهدة النفسية، والصراع الذي يدفع الدم في مسام الجلد.

ولم تكن الصعوبة في عملٍ ما كانا يعتقدان أنه الصواب، بل في الاهتداء إلى الصواب مًا هو؟ فقد كان يبدو لهما أحيانًا أن ما يدعوهما إلى الحب، جلي الصوت لا خفوت به ولا غموض فيه، ولا تردد، وقد كان كلاهما حارًّا، مشبوب العاطفة، قوي الخيال. فهل من الممكن أن يتصور الإنسان أن هذا الهاتف القوي ليس من الله؟ أما ما يهيب بروبرت أن يكون قسيسًا فلم يكن له مثل هذا الجلاء وذلك الوضوح، غير أن كلًّا من روبرت وفيرونيكا كان أذكى وأعلم من أن يغيب عنه أن الوضوح ليس شرطًا في التوجيه، وأن الطريق القويم قد توحي به همسة خافتة ولكن لها مثل قوة النفخ في النفير، فينهج المرء النهج ولو إلى البوار والتلف. على أني لا أدري ماذا جعل الفراق بين فيرونيكا وروبرت أشق وأقسى، وقد يكون في هذه السطور التي أنقلها من رسائل روبرت إليَّ، بعض البيان قال:

إن في هذه المأساة ما لا قِبَل لي بالعبارة عنه، فإنه الكشف التام عن كل ما تنطوي عليه كلمة «أبدًا» والتجسيد الدقيق لحقيقة معناها.

وهـل يسـتطيع الإنسـان أن يعـبر بالألفـاظ عـن منديـل أبيـض يخفـق مـن نافـذة قطـار، أو عـن رصيـف خـال كانـت تقـف عليـه قبـل عـشر دقائـق امـرأة معينـة لا تـزال صورتهـا ماثلـة وإن غـاب عـن العـين شـخصها؟ إن في هـذا شيئًا غـير الأسى بمجـرده، عسـى أن يكـون تفتـح الهاويـة الرهيبـة الكائنـة تحـت حيـاة الإنسـان. وقـد كانـت إحـدى نتائـج هـذه المحنـة الإخـلاص الصـافي مـن كل شـائبة، فقـد هذّبـه الامتحـان، وصفّـت نـارُ التجربـة معدنـه مـن الأخـلاط، وصـارت ألفاظـه تقـوم مقـام الحقائـق وتغنـي غناءهـا، ولعـل إخلاصـه هـذا هـو الـذي أكسـبه ذلـك السـلطان عـلى نفسي، وقـد عجـز عـن حمـلي عـلى اعتنـاق المذهـب الكاثوليكـي، ولكـن الفضـل في ذلـك يرجـع إلى مرغريـت التـي ردتنـي عـن متابعتـه، فقـد كانـت هـي الوحيـدة التـي تسـتطيع أن تمكننـي مـن المقاومـة.

وقـد أعجـب روبـرت بـما حدثتـه بـه مرغريـت — عـلى العشـاء — مـن أسـلوبها في معونـة جيرانهـا الفقـراء، فـما كانـت تعطيهـم مـالًا، أو ثيابًـا، أو طعامًـا، أو تكتفـي بالزيـارة، وإنـما كانـت تدخـل بيوتهـم، وتعمـل فيهـا، فتطبـخ لهـذه، وتغسـل ثيـاب تلـك، أو تنظـف الغـرف، أو تمسـح البـلاط. ولم تكـن هـذه معونـة حقيقيـة فحسـب، وإنـما كانـت كذلـك فرصـة تغتنمهـا مرغريـت لتعليـم هـؤلاء النسـوة كيـف ينبغـي أن يعملـن عملهـن ويؤديـن واجباتهـن، وقالـت مرغريـت وهـي تصـف مسـاعيها تلـك: «وقـد يتـاح لي مـن حـين إلى حـين أن ألحـن بكلمـة تنفعهـن،

فإني واثقة أن الكلمة تلقى عرضًا، أفعل في نفوس هؤلاء النسوة وأجدى عليهن. ومن العبث أن تتحدث إليهن في مسائل نظرية أو عامة، أو أن تعظهن وتفيض في الكلام على الخطيئة وفظاعتها. ولكن إذا كان جار إحداهن قد ضرب امرأته، أو كان يشرب ولا يعطيها شيئًا مما يكسب فإن في وسعك أن تقول في سوء سيرته ما يعن لك، وأن ترجو أن يكون لكلامك وقعه. أما الدين كما نفهمه حين نركع ونصلي، فذلك ما لا سبيل إلى تعليمهن إياه. وإنه ليتطلب موهبة سماوية كالتي لا بد منها للشاعر العظيم، ألا وإن ردّ اليد عن النشل والسرقة لعسير ...»

ونهضت مرغريت إلى فراشها؛ فقد كانت بطفلتنا، التي بلغت من العمر ستة شهور، حاجة إلى عنايتها. وبقينا نحن صامتين بضع دقائق، ثم قال روبرت فجأة وبلا تمهيد: «مرغريت آية ... عبقرية ... ولقد شرفتك بزواجها فكانت بركة عليك، وليقل الأغبياء ما شاءوا، فإن الابتكار والعبقرية في الزوجة من أكبر الأنعم وأعظم البركات. ولكن هناك مع ذلك ما هو أكبر وأعظم.» وكان صوته يرتجف ويضطرب وهو يقول ذلك.

عبقرية! ابتكار! هذا ما لم يخطر لي من قبل. وتذكرت الزورق في قصيدة «ألاستور» ولكن سلطان روبرت كان أقوى من الذكرى، وكان له من الصولة والسطوة ما يكفي

لا لتغيير رأي ما، فقط، بل لتغيير وجوه الأمور تغييرًا تامًّا شاملًا. كما أدرك Saul في مثل لمح البصر، وبلا جدال، أنه كان مخطئًا. وهكذا كشف لي روبرت عن حقيقة مرغريت التي كانت محجوبة عني، وكان هذا منه أشبه بالمعجزة، إذا اعتبرنا الأداة والوسيلة وقسناهما إلى النتيجة والأثر.

ودخلت غرفتها؛ فتحت الباب برفق فرأيتها نائمة وإلى جانبها الطفلة، ولكن مصباح الليل كان مضاءً، فخلعت نعلي عند الباب وتسللت على أطراف أصابعي إلى المنضدة الصغيرة الموضوعة إلى جانب السرير، فإذا عليها نسخة من ديوان شيللي وأرتني علامة فيه أنها كانت تدرس الأبيات التي قرأتها لها عن الزورق، فعدت إلى غرفتي، ولكنني لم أنم. وفي بكرة الصبح ذهبت إلى غرفتها، فتبينت أنها استيقظت في الليل، فقد أرتني العلامة أنها قلبت صفحة. ولكن عينيها كانتا مغمضتين، وكان ذراعها على الغطاء. فركعت وتناولت راحتها الجميلة الصغيرة ولثمتها لثمة خفيفة. فتنبهت، واعتدلت وحنت عليّ، وأحسست شفتيها على رأسي، وتهدل شعرها الوحف فكساني. وقد ماتت منذ عشر سنين، ولكن المحيا الذي يطالعني ويتراءى لي دائمًا، سعيد، والحمد لله.

# ريتشارد جارنت

## أناندا: صاحب المعجزات

لما أرسل بوذا رسله ليدعوا إلى دينه وينشروه في الهند، لم يفته أن يزودهم بالوصايا لهدايتهم، وناشدهم أن يتوخوا الوداعة والتواضع والرحمة والقصد، وأن يخلصوا في بث دعوته، وأمرهم أن لا يأتوا — في حال من الأحوال — بمعجزة.

ويروون أن رسله كانوا يعانون عناءً شديدًا، ويكابدون مصاعب جمة في العمل بأوامره، وأنهم كانوا أحيانًا يخفقون، إلا النهي عن المعجزات، فما خالفوا ذلك قط ولا مرة واحدة، ما خلا أناندا التقي الورع الذي نورد فيما يلي سيرته في العام الأول من رسالته.

ذهب أناندا إلى «مجادا» وشرع يفقه الأهالي في دين بوذا، ولما كان المذهب مقبولًا، وكان هو رطب اللسان، مقنع البيان، فقد أقبل عليه الناس يصغون طائعين، وانصرفوا شيئًا فشيئًا عن البراهمة الذين كانوا يوقرونهم من قبل ويعدونهم هداة مرشدين.

«ألا بارك الله في رسول ينشر الحق بقوة الإقناع والقدوة الحسنة والبيان المشرق لا بالخطأ والدجل والشعوذة كما يفعل أولئك البراهمة التعساء!»

ولم يكد يدور في شدقه هذا الزهو حتى تضاءل جبل فضائله، وهجرته الفصاحة والبراعة والفضيلة، فلما خطب الجمهور مرة أخرى بعد ذلك سخروا منه واستهزءوا به ثم رشقوه بالحجارة.

ولما صار الأمر إلى هذا الحال رفع أناندا عينيه فأبصر عددًا من البراهمة، من طبقة دنيا، حافين بغلام مصروع على الأرض، وكانوا يحاولون عبثًا أن يردوا إليه نفسه بالرقى والعزائم وما إلى ذلك من وسائل الشفاء المقررة، ثم قال أحكمهم: «فلنترك بدن هذا المريض مَسكنًا غير حميد للشيطان، فلعله حينئذ يزهد فيه ويهجره.»

وعلى أثر ذلك شرعوا يكوون الغلام بالحديد المحمي، وينفخون الدخان في منخريه، ويفعلون ما وسعهم غير ذلك لإزعاج الشيطان المتطفل. فكان أول ما خطر لأناندا «أن الغلام مصاب بنوبة صرع.» وكان الخاطر الثاني «أن إنقاذه من معذبيه عملٌ طيب.» والخاطر الثالث «إذا أحسنت التدبير فقد يخرجني هذا من المأزق الذي أنا به، ويعلو به اسم بوذا المقدس.»

ولَانَ للإِغراء، فتقدّم وطرد البراهمة بصوت الآمر المسيطر، ورفعَ وجههُ إلى السماء وتَلاَ أسماء الشياطين السبعة. ولما لم يُحْدث هذا أثرًا تلا أسماء سبعة آخرين، ثم غيرها وغيرها. واتفق أن زالت النوبة من تلقاء نفسها، وانقطع اضطراب الغلام وتلوّيه، وفتح عينيه، فرده أناندا إلى أهله. ولكن الناس صاحوا بأعلى صوت: «معجزة! معجزة!» فلما عاد أناندا يعظهم أصغوا له، واعتنق كثيرون منهم مذهب بوذا. فسر أناندا سرورًا عظيمًا، وأثنى على نفسه لما كان من براعته وحضور ذهنه، وقال: «لا شك أن الغاية تبرر الوسيلة.»

وما كاد ينطق بهذا الكفر حتى تضاءل جبل فضائله ومزاياه، وصار في القدر قرية من قرى النمل، وفقد قيمته ووزنه في عيون القديسين، ما عدا بوذا الرحيم الواسع المغفرة.

وذاع حديث المعجزة في طول البلاد وعرضها، حتى بلغ مسامع الملك، فدعا به وسأله هل أخرج الشيطان وطرده حقًّا؟

قال: «بلى.»

قال الملك: «هذا يسرني، فإني أريد منك أن تشفي ابني، فقد غشيه سبات لا يفيق منه منذ تسعة وعشرين يومًا.»

فقال أناندا بلهجةٍ وديعة: «وا أسفاه يا مولاي! إن الفضائل التي لا تكاد تكفي لشفاء منبوذ تعس، كيف تجدي في إبراء ابن ملك هو فيل بين أفيال الصيد؟»

فسأله الملك: «وبماذا تُكتَسَب هذه الفضائل؟»

قال أناندا: «بالتكفير عن الذنوب، ورياضة النفس على النسك، وبفضل هذا يستطيع الناسك المتبتّل أن يُركد الرياح، ويُرقد الموج، ويجادل ويقنع النمور، ويحمل القمر في كمه، ويفعل غير ذلك كل ما يُطمع فيه من ساحر متجول.»

فقال الملك: «أما والأمر كما تقول، فإن من الواضح أن

عجـزك عــن شـفاء ابنــي سـببه نقــص الفضــل، والنقـص في الفضـل سـببه نقـص في التكفـير، لهـذا سـأكِل أمـرك إلى براهمتـي ليسـاعدوك عـلى سـد هـذا النقـص.»

وعبثًـا حـاول أنانـدا أن يبيـن لـه أن التكفـير الـذي يعنيـه عقـلي وروحـي ليـس إلا. وقـد سُر البراهمــة أن يقـع بـين مخالبهـم ملحـد في رأيهـم، فانقضـوا عليـه وحملـوه إلى معبـد، وهنـاك نزعـوا عنـه ثيابـه فأذهلهـم أن لا يـروا عـلى بدنـه أثـرًا لجـرح مـن ضربٍ أو كـيٍّ. فصرخـوا: «يـا للفظاعـة! هـذا رجـل يطمـع أن يدخـل ملكـوت السـماء بجلـد سـليم!» وأرادوا أن يصلحــوا هــذا الخطــأ، فبطحوه[1] وأهــووا عليـه بالســوط يجلدونـه حتـى عفّـوا عـلى سـلامة جلـده البغيضـة. ثـم انصرفـوا عنـه عـلى وعـد بـأن يرجعـوا إليـه في اليـوم التـالي ليعيـدوا الكـرة، وأكـدوا لـه سـاخرين أن فضلـه بعـد ذلـك لـن يكـون دون فضـل القديـس «باجيراتـا» أو حتـى فيسْـوامِترا نفسـه.

وبقـي أنانـدا، حيًّـا كميـت، عـلى أرض المعبـد، وإذا بالهيـكل يضيئـه شـبح باهـر الـلألاء يقـول: «والآن أيهـا المرتـد، هـل اقتنعـت بحماقتـك؟»

فلـم يسـغ أنانـدا اتهامـه في دينـه بالفتـون، ولا الطعـن في عقلـه وحكمتـه، ولكنـه مـع ذلـك تطامـن فقـال: «معـاذ الله أن أنـدم أو أتـبرم بـما يصيبنـي في سـبيل دينـي وأداء رسـالة مـولاي.»

– «أتحب أن تبرأ أولًا، ثم تكون أداة لتحويل أهل «مجادا» جميعًا عن دينهم؟»

فسأله أناندا: «وكيف يستطاع ذلك؟»

قال الروح: «باللجاجة في طريق الغش والعصيان.»

فانتفض أناندا وارتاع، ولكنه حرص على الصمت انتظارًا للإِيضاح.

ومضى الروح في كلامه فقال: «اعلم أن ابن الملك سيفيق من سباته في نهاية اليوم الثلاثين، أي ظهر الغد، فليس عليك إلا أن تمضي في الوقت المناسب، إلى السرير الذي يرقد عليه، فتضع يدك على قلبه وتأمره أن ينهض. وسيُعزى شفاؤه إلى قواك السحرية، وسيفضي ذلك إلى تقرير دين بوذا. ولا بد قبل ذلك أن أداوي ظهرك، وما أسهل هذا عليّ، وكل ما أدعوك إليه هو أن لا تنسى أنك في هذا تخالف أوامر مولاك وأنت مدرك لذلك، ومن الواجب أن تعلم أيضًا أن إنقاذك من المأزق الذي أنت فيه الآن سيوقعك في مآزق أخرى أدهى وأمر.»

فحدث أناندا نفسه أن روحًا شفافًا ليس له بدن يحلّ فيه لا

يستطيع أن يقدر ما يحسه رسول مجلود، وقال للروح: «داوني إذا استطعت، واحتفظ بتحذيرك إلى وقت يكون أنسب من هذا.»

قال الروح: «فليكن ما تريد.» ومد راحته فأمرّها على جسم أناندا، فاكتسى ظهره جلدًا جديدًا، وزال عنه الوجع. واختفى الروح وهو يقول: «إذا احتجت إليّ فليس عليك إلا أن تعزم عليّ بهذه العزيمة «جنو إمداب إنام موا[٢]» فأظهر لك.»

ومن السهل أن يتصور المرء غضب البراهمة ودهشتهم حين عادوا ومعهم السياط والدّرات الجديدة فألفوا فريستهم سليمًا معافى في بدنه، ولعلهم كانوا خلقاء أن يعتاضوا من السياط حبالًا للشنق لولا أنه كان معهم حاجب من حجّاب الملك، فبوأ أناندا كنفه، وحمله معه إلى القصر فمضوا به من توّتهم إلى مخدع الأمير الصغير حيث كان هناك حشد كبير من الناس، ولما كان وقت الظهر لم يجئ، فقد أخذ أناندا يزجّي الوقت الباقي بالتحدث إليهم عن استحالة المعجزات إلا معجزة يأتي بها أتباع بوذا، ثم نزل عن منبره، وفي اللحظة التي توسطت فيها الشمس كبد السماء وبلغت سمتها، أراح يده على قلب الأمير فانتبه من فوره، وأجرى لسانه ببقية كلام عن لعبة النرد، كان يقوله فقطعه عليه ما انتابه من السبات.

فضج الحضور، واستخف الفرح حاشية الملك، ووجم البراهمة وامتقعت وجوههم. حتى الملك بدا عليه التأثر والاقتناع، وطلب من أناندا أن يزيده تعريفًا بالبوذية، فأجابه أناندا إلى ما طلب، ولكن الأربع والعشرين ساعة الأخيرة كانت قد علمته الحكمة وحسن النظر في عواقب الأمور، فلم ير أن يقول شيئًا عن القواعد الأصلية والأركان الرئيسية للبوذية، ولا أن يشير إلى حقارة الحياة والحاجة إلى الخلاص بالتضحية، والسبيل إلى السعادة، وتحريم إراقة الدم. واكتفى بأن يقول إن كهنة بوذا مقضي عليهم بالفقر الأبدي، وأنه بمقتضى الشريعة الجديدة تؤول كل الأملاك الكنائسية إلى أولي الأمر المدنيين.

فصاح الملك: «أما وحق البقرة المقدسة، إن هذا لدين!»

وما كاد الملك ينطق بذلك حتى أعلن رجال الحاشية اعتناقهم لدين بوذا. وتبعتهم الجماهير واقتدت بهم، وألغيت معابد البراهمة وحُرِمت ما كانت توهب، وارتُكب في يوم واحد باسم الدين الجديد الصافي من الأكدار أكثر مما ارتكب في ظل القديم الفاسد في مائة عام.

وسر أناندا إحساسه بأن في وسعه أن يعفو عن أعدائه، وارتفع قدره في عينيه تبعًا لذلك، وتمت سعادته بأن ضُم

إلى القصر ووُكلت إليه تربية الأمير ابن الملك فتولى تعليمه شريعة بوذا على وجه مرضي. وكان هذا أمرًا شاقًّا لأنه كان يتقاضاه صرف الأمير عن ملهاته المحبوبة وهي تعذيب الزواحف الصغيرة.

وبعد فترة وجيزة دعي مرة أخرى إلى حضرة الملك فألفى عنده اثنين من أفظع الأشرار أحدهما يحمل فأسا عظيمة وفي يد الآخر كلبتان.[٣]

وقال الملك: «هذا رئيس الجلّادين، وهذا رئيس المعذِّبين.»

فأعرب أناندا عن اغتباطه بمعرفة هذين الرجلين الكبيري المقام.

ومضى الملك في كلامه فقال: «يجب أن تعلم أيها التقي الورع أن الحاجة قد نشأت مرة أخرى إلى رياضة النفس على الجلد وإنكار الذات من جانبك، فقد غزا العدو بلادي وألحق الهزيمة بجنودي، وكنت خليقًا أن يروعني ذلك ويهولني لولا التعزي بالدين، ولكن اعتمادي إنما هو عليك يا أبي في الروح، ومن المحتم أن نكتسب أعظم مقدار من الفضل في أوجز زمن وأقصر مدة، ولم أستطع أن أستعين على هذه الغاية بالبراهمة أصدقائك القدماء فإنهم الآن، كما تعلم،

مغضوب عليهم. ولكني دعوت هذين الخبيرين الموثوق بهما. على أنهما قد اختلفا، فأما رئيس المعذبين فإنه رجل ليِّن رقيق القلب رحيم، ولهذا يرى أنه يكفي في البداية أن نتخذ أخف التدابير كأن نعلقك من رجليك، وندلي رأسك في دخان حطب موقد، ونملأ منخريك بالفلفل الأحمر، أما رئيس الجلادين فإنه على ما يظهر ينظر إلى الأمر نظرة فنية، ويرى أن الأولى أن نلجأ دفعة واحدة إلى الصلب أو الخازوق. ويسرني أن أعرف رأيك في الموضوع.»

فأعرب أناندا — على قدر ما سمح له الرعب بذلك — عن استنكاره الشديد لكلتا الوسيلتين.

فقال الملك بلهجة المذعن لما لا حيلة له فيه: «حسن. إذا كنا لا نستطيع أن نتفق على إحدى الوسيلتين فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نجربهما جميعا. وسنجتمع إذن لهذا الغرض صباح غد في الساعة الثانية. والآن، اذهب بسلام.»

فذهب أناندا، ولكن ليس بسلام، وكان الرعب خليقًا أن يذهب بلبه لولا أنه تذكر ما وعده به منقذه. فلما بلغ مكانًا يأمن فيه العيون نطق بالعزيمة السحرية. وما كاد يفعل حتى ظهر له، لا الروح، بل رجل من أهل النسك والتقشف رأسه معفر بالتراب والرماد وجسمه مدهون بروث البقر.

وقال الفقير: «إن الأمر لا يحتمل التلكؤ، فاتبعني والبس مراقع الفقير.»

فثارت نفس أنانـدا على هذا، فقد تلقى عن بوذا الحكيم الوديع الاحتقار الذي يستحقه هذا التقشف الفظيع الذي يحيل المرء إلى ما يشبه الجيفة المرمّة. على أن الضرورة لم تدع له حيلة يحتالها، فتبع الفقير إلى مقبرة اختارها الفقير مسكنًا له. وهناك أخذ الفقير ينعي نعومة شعر أنانـدا وقصر أظافره، ثم دهنه على مثاله، وطلاه بالطين والكلس حتى صار الرسول الوديع لأرق دين، أشبه بنمر من نمور البنغال. ثم زيّن له جيده بعقد من جماجم الأطفال ووضع في إحدى يديه جمجمة شرير، وفي الأخرى عظمة فخذ عرّاف، ومضى به بعد الغروب إلى المقبرة المجاورة حيث أجلسه على رماد جثة محروقة حديثة وأمره أن يقرع الجمجمة بالعظمة كما يفعل الطبّال، وأن يردد التعازيم التي بدأ يطلق الصوت صارخًا بها وهو متجه إلى الغرب. ويظهر أن هذه الرقى والتعازيم كانت فعّالة فقد ثار إعصار شنيع ونزل المطر كالسيل وأثخنت البروق الخاطفة بقلب السحب، وخرجت الذئاب والضباع من أوجرتها تعوي وترغو، وانشقت الأرض عن عفاريت ومَرَدة تمد أذرعتها المعروقة إلى أنانـدا وتحاول أن تجرّه فأطار لبَّه الفزعُ وراح يقلد صاحبه ويدق، ويضرب، ويصيح، حتى كاد يُشفي على التلف، وإذا بالرياح العاصفة تركد، والأشباح تختفي، بقدرة قادر، وتحل محلها

صيحات فرح، ودقات طبول ودفوف، وأصوات معازف، تنبئ بحادث سار في المدينة.

وقال الفقير: «مات الملك العدو، وتفرق جيشه، وسيعزى هذا إلى تعازيمك وهم الآن قادمون في طلبك. فوداعًا حتى تفتقر إلى معونتي مرة أخرى.»

واختفى الفقير، ودنا الموكب، وأصبح دبّ الأقدام مسموعًا، ثم ظهرت المشاعل الخافتة النور في الفجر المطلول، وترجل الملك عن فيله وألقى وجهه على الأرض بين يدي أناندا وقال: «أيها الرجل الفذ، لماذا لم تقل إنك فقير؟ لن يساورني الخوف بعد اليوم من أعدائي ما دمت مقيمًا بهذه المقبرة!»

وطردوا جماعة من أبناء آوى من قبر مهجور أفردوه لأناندا ليسكنه. ولم يسمح الملك بأدنى تغيير في هيئته ولباسه، وحرص على أن يخلو الطعام الذي يقدم له من كل ما عسى أن يفقده القداسة التي بلغ مظهرها غاية ما يطمع فيه الطامع في أقصر وقت، فتلبد شعره واختلط به الوحل، وطالت أظافره، وإذا بزائر جديد من لدن الملك ينبئه أن الراجا أصيب فجأة بمرض خطير خفي، وأن الملك على يقين من أن أناندا سيخف إلى نجدته بالرقى والعزائم.

فتناول أناندا، عظمة الساقة والجمجمة، وهو كاره لذلك، وراح يقرع هذه بتلك، وينتظر ما سيكون، ولكن العزيمة فقدت مزيتها على ما يظهر فما أخذت عينه سوى وطواط؛ فبدأ أناندا يحدث نفسه بأن الأحجى به أن يكف، وإذا برجلٍ مديد القامة له سمت ووقار، وعليه ثياب سود، وفي يدِه صولجان، يبدو له ويقف إلى جانبه كأنما خرج من جوف الأرض.

وقال الرجل الغريب: «إن المرجل مهيَّأ.»

فسأله أناندا: «أي مرجل؟»

قال: «الذي سيُلقى بك فيه.»

قال أناندا: «أنا يُلقى بي في مرجل؟ ولماذا؟»

قال الغريب: «لأن تعزيماتك عجزت عن إفادة جلالته. ولما كانت جدواها في مرة سابقة لا تسمح بأن يظن أحد بها العقم، فقد انتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأن تأثيرها السيئ هو الذي ضاعف الألم الذي يعانيه. وقد عززت له رأيه ذهابًا مني إلى أنه من مصلحة العلم أن يحل غضب الملك بمشعوذ دجال مثلك لا بطبيب عالم حاذق مثلي. ومن أجل

ذلـك أمـر جلالتـه بـأن توقـد النـار تحـت المرجـل الأكـبر طـول الليـل، عـلى أن يلقــي بــك في مائــه عــن الصبــاح مــا لم تفــده عزائمـك قبـل ذلـك.»

فصاح أناندا: «يا إلٰهي! أين المفر؟»

فقــال الطبيــب: «إنــه لا مهــرب لــك مــن هــذه المقــبرة ... فــإن عليهــا نطاقًــا مــن حــرس الملــك.»

فسأله أناندا: «إذن كيف السبيل إلى النجاة؟»

فقـال الطبيـب: «في هـذه الزجاجـة؛ إن فيهـا سـمًّا زعافًـا. فاطلـب أن تشــخص أمــام الملــك، وقــل إنــك تلقيــت دواءً شــافيًا مــن أرواح خـيرة، فيتجرعـه ويمـوت ويجزيـك خلفـه خـير جـزاء.»

فصـاح أنانـدا، وقـد استشـاط غضبًـا، ورمـى الزجاجـة: «اذهـب عنـي أيهـا الشـيطان الموسـوس! إني أتحـداك وأعـوذ مـرة أخـرى بمنقـذي ... جنـو إمـداب إنـام مـوا.»

ولكـن العزيمـة لم تحـدث أثـرًا، ولم يبـد لعينيـه مخلـوق أو شـبح سـوى الطبيـب الـذي كان ينظـر إليـه نظـرة الأسـف والمرثيـة، وهـو يضـم طيلسـانه، ويختفـي في الظـلام الشـامل.

وبقي أناندا وحده يجادل نفسه، وقد هم مرات لا عداد لها أن ينادي الطبيب ويتوسل إليه أن يجيئه بزجاجة سم كالتي رماها، ولكنه كان كلما همّ بذلك شعر بشيء يصعد إلى حلقه ويحبس صوته، حتى أضناه الاضطراب، وأعياه فنام ورأى هذا الحلم.

رأى، فيما يرى النائم، أنه واقف عند مدخل «بتالا»[٤] الشاسع المظلم، وكان هذا المكان الموحش يبدو كأنما فيه احتفال شيطاني، فقد كانت هناك جموع من الشياطين على كل صورة، ومن كل حجم، تتدافع في المدخل لتنظر إلى ما خُيل إليه أنه زينة تقام، وكانت مئات من العفاريت والأمساخ تنظم المصابيح الملونة عقودًا وأكاليل، وهي تقفز، وتُضَوْضي، وتلجلج، وتقهقه، وتتدلى من أذنابها وتتطوح في الهواء، كالقردة، وكان العمل يديره من تحت هؤلاء، شياطين كبار عليهم سمت ولهم أبهة، وفي أيديهم صولجانات تدل على منازلهم ومراتبهم يشع من أطرافها لهبٌ أصفر كانوا يلسعون به أذناب العفاريت إذا رأوا أن النظام يوجب ذلك. فلم يستطع أناندا أن يكبح نفسه عن السؤال عن الداعي إلى هذه الاستعدادات للاحتفال.

فقال الشيطان الذي تلقى سؤاله: «هذا احتفال بتكريم أناندا الورع، أحد رسل الرب بوذا ونحن ننتظر حضوره بيننا بلهفة وارتياح.»

وبعد جهد شديد استطاع أناندا المرتاع أن يجمع قواه الخائرة، ويسأل لماذا يجب أن يتخذ الرسول المذكور — يعني نفسه — مقامه في مناطق الجحيم؟

فقال الشيطان المسئول بإيجاز: «من أجل السم.»

فهمّ أناندا أن يطلب منه الإيضاح، ولكنه شُغل بجدال عنيف بين اثنين من الشياطين المشرفة على العمل.

وكان أحدهما يقول: «كاموراجا، بالطبع.»

فيقول الثاني: «بل دامبورانانا ولا شك.»

فالتفت أناندا إلى الشيطان الذي كان يكلمه وقال: «هل تسمح لي أن أستفسر عن كاموراجا ودامبورانانا، ما هما؟»

فقال الشيطان: «هما جحيمان، ففي كاموراجا يغمس النازل في القار المذاب ويطعم الرصاص المصهور، وأما في دامبورانانا، فهو يغمس في الرصاص المصهور ويطعم ذوب القار، وزميلاي هذان اللذان تسمعهما يتحاوران، يتجادلان في أي الجحيمين أولى بخطايا ضيفنا أناندا.»

وقبل أن يتدبر أناندا هذا النبأ انحدر عفريت شاب من فوق، ببراعة وخفة، وتقدم من الشياطين اللذين يتجادلان وانحنى لهما وقال: «أيها الشيطانان الجليلان، هل تسمحان لعفريت ضئيل الشأن أن يقول إن كل تكريم مهما عظم، دون ما يجب لضيفنا أناندا إذ كان هو الوحيد الذي يحتمل أن نحظى بعشرته من بين رسل بوذا أجمعين؟ لهذا أجترئ على القول بأنه لا جحيم كاموراجا تصلح مقامًا له، ولا جحيم دامبورانانا تليق به، بل يجب أن تُجمع محاسن كل جحيم من الأربع والأربعين ألفًا والمائتي ألف، وأن تُحشد جميعًا في جحيم واحدة جديدة تقام لاستقباله خاصة.»

فتعجبت الشياطين الكبار لذكاء العفريت الصغير وقالوا: «أما إنك لعفريت صغير ممتاز حقًّا؟» ثم انصرفوا ليعدوا الجحيم الجديدة ويجهزوها بما يليق بمقام الضيف الكريم.

واستيقظ أناندا وهو يرعد من الفزع ويصيح: «لماذا كنت رسولا؟ إيه يا بوذا! ما أوعر طريق الهدى والقداسة! وما أسهل أن يعثر المرء ويضل وإن حسنت نيته! وما أسخف الزهو وأحمق صاحبه!»

فناداه صوت عذب رقيق: «أَوَأدركت هذا يا بني؟»

فأدار وجهه فألفى أمامه بوذا في هالة من النور اللين، وخُيل إليه أن سحابة تقشعت عن عينه، فأدرك أن مولاه هو الروح، والفقير، والطبيب جميعًا، وأنه كان يتراءى له في هذه الصور المختلفة.

فقال وهو شديد الاضطراب: «أيها المعلم المقدس، إلى أين أذهب؟ إن خطاياي تنهاني عن الدنوّ منك.»

فقال بوذا: «إن خطاياك ليست هي التي تصدك عن الاقتراب مني يا بني، بل ما ورطك فيه العصيان والشعوذة، وقد ظهرتُ لك لأذكرك بأن رسلي يجتمعون اليوم على جبل فنديا ليؤدوا الحساب عن رسالتهم، وأنا أسألك هل أؤدي عنك الحساب أو تؤديه أنت بنفسك؟»

فقال أناندا: «بل أؤديه أنا بنفسي، ومن العدل والحق أن أحتمل ذلة الاعتراف بحماقتي وطيشي.»

فقال بوذا: «أحسنت يا بني، ولهذا أسمح لك أن تنضوي عنك مراقع الفقير، وأن تظهر في الاجتماع في الطيلسان الأصفر الذي هو رداء الرسل. بل إني لأتجاوز عن بعض قواعدي، لأجلك، وفي سبيلك، وآتي بمعجزة غير هينة فأنقلك الآن إلى قمة الجبل حيث بدأ الرسل يفدون. ذلك أنك، بغير ذلك،

تتعرض لبوار محقق وهلاك مؤكد فيمزقك الجمهور المقترب الذي شرع يقتلع ديانتي بإيعاز الملك الجديد تلميذك المرجو الغد. فقد مات الملك الهرم، سمه البراهمة!»

فبكى أناندا، بأربع، وجعل يقول وهو ينتحب: «مولاي! مولاي! وهل ضاع كل شيء؟ بخطئي، وحماقتي؟»

فقال بوذا: «إن ما يبنى على الغش والدجل لا بقاء له ولا ثبات، وهذا هو الحق، ولا تحزن، فستدعو إلى ديني، وتوفق، في بلاد أخرى. إن الحساب الذي ستؤديه عن رسالتك حسابُ سوء، ولكنك تستطيع أن تقول، وأنت صادق، إنك أطعت أمري مبنى لا معنى، فما يسع أحدًا أن يزعم أنك أتيت بأية معجزة.»

## هوامش

(١) بطحه ألقاه على وجهه.

(٢) عزيمة البوذيين، وهي هنا مقلوبة.

(٣) ما يأخذ به الحداد الحديد المحمي.

(٤) مجمع الشياطين.

# فرنسيس بِرت هارت

## في نطاق من الجمد

لما خرج المستر جون أُوكهيرست — المقامر — إلى السكة الرئيسية في «بوكر فلات» صباح اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ أحس أن جو اليوم غير جو الليلة البارحة، فقد كان هناك اثنان أو ثلاثة يتحادثون، ورءوسهم متدانية، فلما اقترب منهم أمسكوا عن الكلام وتغامزوا وتبادلوا نظرات لا تخلو من دلالة. وكان في الجو هجعة كهجعة «السبت» وهي في حلة لم تألف فتور السبت، لا تكون إلا نذيرًا.

ولم يبد على محياه الوسيم الساكن قلق من جرّاء هذه النذر.

أما أنـه كان يـدرك البواعـث عـلى هـذا التغيـير، فـشيء آخـر. وقـال يناجـي نفسـه: «أحسـبهم يطلبـون واحـدًا. وعسـى أن أكـون أنـا المطلـوب.» وردّ إلى جيبـه المنديـلَ الـذي كان ينفـض بـه الـتراب عـن حذائيـه النظيفـين، وأعفـى نفسـه مـن عنـاء التخمـين.

والواقـع أن حلـة «بوكـر فـلات» كانـت «تطلـب واحـدًا» فقـد مُنيـت أخـيرًا بخسـارة عـدة آلاف مـن الريـالات، وحصانـين عتيدين، ورجـلٍ مـن أبـرز رجالهـا، فغضبـت لهـذا، وانتابتهـا نوبـة فضيلـة، وثـارت نفوسـها ثـورة جامحـة جائحـة كالأعـمال التـي استفزتها وأخرجتهـا عـن طورهـا. واعتزمـت لجنـة سريـة أن تطهّـر الحلـة مـن الطّغـام والـرذال وغـير الصالحـين. وقـد طهرتهـا عـلى وجـه حاسـم مـن رجلـين كانـا حينئـذ معلقـين مـن جمّيـزة في بطـن الـوادي، ومـن آخريـن لا تـرضى سـجاياهم، بالنفـي. ويؤسـفني أن أقـول إن بـين هـؤلاء المنفيّـين نسـاءً. عـلى أن واجـب الإنصـاف لهـذا الجنس يقتـضي أن نذكـر أن هـؤلاء كـن محترفـات لمـا أثـار السـخط عليهـن، وأن حلـة «بوكـر فـلات» مـا اجـترأت عـلى القعـود مقعـد الحكـم إلا عـلى هـؤلاء.

وقـد أصـاب المسـتر أُوكهيرسـت في اعتقـاده أنـه داخـل في هـذه الزمـرة. وقـد ذهـب بعـض أعضـاء اللجنـة إلى وجـوب شـنقه ليعتـبر بمصـيره غـيره، وليسـتردوا مـا غنمـه مـن مالهـم في القـمار.

وقال جيم ويلو في الاحتجاج لذلك: «إنه ليس من العدل أن نسمح لهذا الشاب الذي جاء من «رورن كامب» — فهو غريب — أن يحمل مالنا ويمضي به.» ولكن الشعور بالعدل في نفوس الذين كتب لهم حسن الحظ أن يربحوا من المستر أُوكهيرست تغلب على هذا الهوى والجنف.

وتلقى المستر أوكهيرست الحكم عليه بمثل سكينة الفيلسوف، وخاصة لأنه كان يدرك ما يخالج قضاته من التردد. وقد علمه القمار أن يتقبل ما تجيء به المقادير. ولم تكن حياته إلا لعبة مجهولة العواقب، وما كان يخفى عليه مقدار حظ الموكل بالتوزيع.

ورافقت المنفيين سرية من المسلحين إلى ما وراء حدود الحلة، وكان هناك غير المستر أوكهيرست — الذي كان مشهورًا بأنه مجازف رابط الجأش، والذي أريد إرهابه بهذا الحرس المسلح — امرأة في مقتبل العمر يطلقون عليها اسم «الدوقة» وأخرى تعرف باسم «الأم شبتون» ثم «العم بيللي» وهو سكير مدمن متهم باللصوصية. ولم يثر مرور الركب أية ملاحظة من النظارة، ولا نطق الحرس بكلمة، إلا بعد أن بلغوا بطن الوادي الذي لا تتجاوزه حدود الحلة، فقد تكلم الرئيس بإيجاز وأنذرهم الموت إذا عادوا.

وما كاد الحرس يغيب عن النظر حتى انطلق ما كان محبوسًا من المشاعر فذرفت الدوقة بضع عبرات، وأجرت الأم شبتون لسانها ببضع شتيمات، وأطلق العم بيللي سيلًا من اللعنات. أما أوكهيرست الفيلسوف فقد لزم الصمت، وكان يصغي وهو وادع ساكن إلى ما تعرب عنه الأم شبتون من الرغبة في جزّ بعض الرقاب، وإلى ما أبدأت فيه الدوقة وأعادت، من أنها ستموت في بعض الطريق لا محالة، وإلى اللعنات الحرار التي كانت تخرج من فم العم بيللي وهو راكب وكأنها تُطرد من جوفه طردًا، وقد آثر أوكهيرست المساناةَ على عادة أمثاله، فأصر على أن يترك جواده للدوقة ويركب هو بغلها البليد، على أن هذه المجاملة لم تجعل الجماعة أشد تعاطفًا وأوثق مودة، فعدلت الدوقة قبعتها المريشة القذرة بدلال فاتر، ورمت الأم شبتون الجواد بالنظر الشذر، وصب العم بيللي على الجماعة كلها لعنة شاملة.

وكان الطريق إلى «ساندي بار» — وهي حلة لم تمتد إليها عوامل الصلاح من بوكر فلات، فثم أمل في أن يأوي إليها المهاجرون — على جبالٍ وعرة منقادة في الأرض، والمسافة إليها سفر يوم لا هوادة فيه، وما لبث القوم أن جاوزوا الوادي الرطب المعتدل الجو إلى الجبال الجافة الباردة المنعشة الهواء، وكان طريقهم في الجبل ضيقًا كالأنبوب، ووعرًا صعب المرتقى. ولما انتصف النهار تدحرجت الدوقة عن سرجها إلى الأرض وأعلنت أنها لن تنتقل من مكانها، فألقى الجماعة عصا التسيار.

وكان المكان الذي وقفوا فيه موحشًا إلا أنه رائع، فقد كان عبارة عن مدرج من الشجر تحيط به من جهات ثلاث صخور وعرة من الصوان العاري، وينحدر في رفق ولين إلى ذروة نجوة مشرفة على الوادي، وكان هذا بلا شك أصلح مكان للإقامة لو كان ذلك من سداد الرأي. غير أن المستر أوكهيرست كان يعلم أنهم ما قطعوا نصف المسافة إلى «ساندي بار» وأنه ليس معهم من المئونة والعدة ما يسمح بالتلكؤ، وقد نبه رفقاءه إلى هذا بإيجاز وبيّن لهم خطل الكف عن مواصلة «اللعب» قبل الفراغ منه ولكنه كان معهم خمر، وقد نابت الخمر عندهم في ذلك الموقف مناب الطعام والوقود والراحة والعقل وبعد النظر. ولم يمض غير قليل حتى كان الشراب قد فعل فعله على الرغم من اعتراض أوكهيرست وتحذيره. وانتقل العم بيللي بسرعة من حالة الشراسة إلى حالة الخمود. وأخذ الشراب في الدوقة فأصابها منه فُتار، وعلا شخير الأم شبتون. وبقي المستر أوكهيرست وحده معتدل القامة يتكئ على صخرة ويلحظهم بعينه في سكون.

وكان المستر أوكهيرست لا يشرب، لأن الشراب يفسد حرفة تتطلب الاتزان وضبط النفس وحضور الذهن، وكان على قوله لا تسمح له الحال بالمخاطرة بالشراب. وبينما كان ينظر إلى هؤلاء الرقود من رفقائه المنفيين ثقلت على نفسه، لأول مرة، وطأة الشعور بالوحدة والوحشة الناجمتين

من حرفة المنبوذين، ومن عادات حياته، وأساليب عيشه، ونقائصه. فجعل يتلهّى بنفض التراب عن ثيابه السود، وغسل يديه ووجهه، وغير ذلك مما اقتضته خصائص طباعه وشدة حرصه على النظافة وحسن السمت، فنسي شَجَنه لحظة. ولم يخطر له أن يهجر رفاقه الضعاف الجديرين بالمرثية أو يخذلهم في محنتهم، إلا أنه لم يسعه إلا أن يشعر بالحاجة إلى القمار الذي يثير نفسه ويبعثها والذي كان — ويا للغرابة — يفضي به إلى السكينة واعتدال المزاج اللذين اشتهر بهما. ومد بصره إلى الصخور التي تذهب في الهواء ألف قدم فوق أشجار الصنوبر المحيطة بالمكان، وصعد طرفه إلى السماء المكفهّرة المنذرة الرُّكام، ثم صوبه إلى الوادي الذي تتكاثف فيه الظلال، وإذا به يسمع اسمه بغتة.

ونظر فإذا فارس يرتقي في الطريق ببطء، فعرف وجهه الصابح الصريح «توم سيمون» الذي يسمونه «الغرير» في «ساندي بار» وكان قد لقيه قبل بضعة شهور وقامره فقمره، وسلب من هذا الفتى الغرير كل ما يملك — حوالي أربعين ريالًا — وبعد أن نهضا عن المائدة مضى به المستر أوكهيرست إلى ما وراء الباب وقال له: «توم، إنك فتى طيب، ولكنك لا تحسن القمار، ولا أمل لك في حذقه، فلا تحاول ذلك مرة أخرى.» ورد إليه ما ناله، ودفعه فأخرجه من الغرفة، فصار توم سيمون لهذا عبدًا مخلصًا له مدى الحياة.

وكان في الحماسة والطلاقة الصبيانية التي يحيّي بها المستر أوكهيرست ما يَشِي بذكر هذا الجميل، وقال إنه أراد أن يذهب إلى «بوكر فلات» التماسًا للشراء فسأله أوكهيرست: «وحدك؟» فقال الفتى: «لا. لا أعد وحدي. الواقع (وضحك) أني فررت مع «بَيّني وودز.» ألا تعرفها يا مستر أوكهيرست؟ تلك التي كانت تقوم بالخدمة على المائدة في «تمبرنس هوس.» وقد ظللنا خطيبين زمنًا طويلًا، ولكن أباها جاك وودز اعترض ففررنا، وكانت وجهتنا بوكر فلات لنتزوج. وها نحن أولاء قد صرنا هنا! وإنا لمتعبون، وإنه لمن الحظ أن قد وجدنا هذا المكان وهذه الرفقة!»

أفضى «الغرير» بهذا كله بسرعة، ثم برزت «بيني» — وهي فتاة وسيمة بدينة في الخامسة عشر من عمرها — من وراء الشجرة حيث كان وجهها لا يرى أحد اضطرامه من الخجل، ودنت بجوادها فحاذت حبيبها.

وكان المستر أوكهيرست قلما يعنّي نفسه بالعواطف الإنسانية، أو بما يليق وما لا يليق، وما يجب، وما لا يجب، ولكن إحساسًا غامضًا شاع في نفسه بأن الموقف خال مما يسمى حسن الحظ، على أنه كان له من حضور الذهن وسرعة الخاطر ما يكفي لإلهامه أن يرفس العم بيلي الذي كان يهم بكلام، وكان في العم بيلي بقية من الإدراك تجعله

يفطن إلى ما وراء هذه الرفسة من القوة التي لا تحتمل العبث ولا تصبر عليه. ثم حاول المستر أوكهيرست، عبثًا، أن يثني توم سيمون عما عزم عليه. ثم أنبأه أنه لا مئونة هناك ولا مأوى ولا وسيلة لمأوى. ولكن الغرير، لسوء الحظ، قابل هذا بأن أكد للقوم أن معه بغلًا مثقلًا بالزاد، وبأن أشار إلى كوخ من الخشب قريب من الطريق. وقال الغرير، وهو يومئ إلى الدوقة: «بَيْني تستطيع أن تكون مع السيدة (المسز) أوكهيرست. أما أنا فأستطيع أن أدبر أمري.»

ولولا ضغطة زاجرة من قدم المستر أوكهيرست لانفجر العم بيللي ضاحكًا مجلجلًا. وعلى أنه، على الرغم من هذا الانتهار، لم يستطع أن يكبح الضحك، فاضطر أن ينهض ويمضي إلى مجرى الوادي حتى يستعيد ضبط أعصابه. وهناك أفضى ببواعث الضحك إلى أشجار الصنوبر وهو يقرع ساقيه بكفيه وينحني بوجهه المغضن، ولا ينسى بذاءاته المألوفة. ولما عاد إلى القوم ألفاهم جلوسًا حول نار، فقد صار البرد قارسًا، وغلظ السحاب وتراكب. وكان الحديث على ما يبدو له وديًا، وكانت بيني تتحدث على طريقتها الصبيانية الفطرية إلى الدوقة التي كانت تصغي بعناية واهتمام لم تظهر مثلهما في أيام كثيرة. وكان الغرير يتحدث على هذا النحو أيضًا إلى المستر أوكهيرست والأم شبتون، فيُحدث في نفسها مثل ذلك الأثر، حتى لقد ثابت إلى الأم شبتون نفسها فتطلّق وجهها. وقال العم بيللي، عن احتقار كامن، وهو

يتأمل الجمع والنار المشبوبة والدواب المشكولة: «أترى هذه نزهة؟» ثم كأنما طافت برأسه المضطرب المخمور فكرة مغرية بالضحك فقد قرع ساقه بكفه ودس قبضته في فمه.

وارتمت الظلال شيئًا فشيئًا على الجبل، فهب النسيم بأشجار الصنوبر فحرك رءوسها وناح بين أغصانها. وأفرد الكوخ للسيدات بعد أن رمّوه وغطوه بأغصان الصنوبر، وافترق الحبيبان — الغرير وصاحبته — فتبادلا قبلة لا تكلف فيها — قبلة صريحة مخلصة من الممكن أن يُسمع صوتها فوق حفيف الشجر المترنّح ... قبلة أذهلت بما كشفت عنه من غرارة النفس وطهارة القلب، الدوقة الخوّارة، والأم شبتون اللئيمة، فدارتا ودخلتا الكوخ بلا كلام. وأُلقي الحطب في النار، ورقد الرجال أمام الباب، وما لبثوا أن ناموا.

وكان المستر أوكهيرست خفيف النوم، فقبل أن ينبلج الصبح استيقظ مقرورًا، وبجسمه خدر، وحرك النار المشفية على الخمود، فحملت الريح القوية إلى وجهه ما امتص الدمَ منه؛ الثلجَ!

فوثب إلى قدميه وفي عزمه أن يوقظ النائمين، فما بقي وقت يُضاع. والتفت إلى حيث كان العم بيللي مستلقيًا فلم يجده، فاختلج الشك في صدره، وجرى لسانه بلعنة، وذهب يعدو

إلى حيث كانت الدواب مربوطة فلم يجدها! وكان الثلج المتساقط يطمس الآثار بسرعة.

ورجع المستر أوكهيرست، بعد هذا الاضطراب الوقتي، وهو ساكن كعادته. ولم يوقظ النائمين. وكان الغرير ينام نومًا هادئًا وعلى محياه ابتسامة، وكانت بيني العذراء راقدة إلى جانب صاحبتيها الطامحتي الطرف، وكأن عليها من الأملاك حفظةً أمناء. وسحب المستر أوكهيرست غطاءه على كتفيه وراح ينتظر انبثاق الفجر، فطلع ومعه رَهَج من الثلج تَسْفِره الريح، فيزوغ البصر. وتغير ما كان باديًا من وجه الأرض كأنما مرت عليه عصا ساحر، فنظر إلى الوادي ولخص الحاضر والمستقبل في أربع كلمات «في نطاق من الجَمَد.»

ودلَّ الفحص الدقيق للزاد الموجود — وكان لحسن الحظ موضوعًا في الكوخ، فنجا من العم بيلي — على أنه مع الحرص والحكمة يكفي عشرة أيام. وقال المستر أوكهيرست للغرير: «هذا إذا كنت ترضى أن تضيفنا وتطعمنا، أما إذا أبيت — وخير لك أن تأبى — فإن في وسعك أن تنتظر حتى يعود العم بيلي بالمؤونة.» فقد عجز المستر أوكهيرست لسبب خفي أن يفضح العم بيلي ويظهر نذالته، ولهذا زعم أن العم بيلي خرج فنفَّر الدواب عفوًا، وحذّر الدوقة والأم شبتون،

وكانتا قد عرفتا الحقيقة. وقال لهما: «سيعرفان حقيقة أمرنا جميعًا، متى عرفا شيئًا. ولا خير في إرعابهما الآن!»

ولم يكتف توم سيمون بأن يجعل كل ما معه من زاد ومئونة رهن مشيئة المستر أوكهيرست، بل أظهر السرور والاستمتاع بهذه العزلة الاضطرارية، وراح يقول: «سنبقى أسبوعًا، ثم يذوب الثلج، فنعود جميعًا معًا.» وأَعْدَتْ القومَ بشاشةُ الشاب وسكينةُ المستر أوكهيرست. واستطاع الغرير، بفضل أفرع الصنوبر أن يصنع سقفًا للكوخ، وتولت الدوقة إرشاد بيني في ترتيب الحجرة، وأظهرت في ذلك من الذوق والفطنة ما فتح عيني هذه الغادة الريفية الساذجة، فقالت: «أحسبك ألفت في حياتك مناعم العيش في بوكر فلات.» فأدارت الدوقة وجهها بسرعة، لتخفي الدم القاني الذي صبغ وجهها تحت دهانه المألوف. وتقدمت الأم شبتون إلى الفتاة بالرجاء أن لا «تثرثر» ولما عاد المستر أوكهيرست بعد طول الكد والعناء في البحث عن الطريق الذي ضاع أثره، سمع أصوات الضحك ترجعه الصخور المتجاوبة به، فوقف وقد ارتاع، ووثب به الخاطر أولًا إلى الويسكي الذي حرص على أن يخبئه، ولكنه عاد فقال: «ولكن هذه الأصوات ليست من فعل الويسكي.» ولم يطمئن قلبه إلا بعد أن أبصر النار المستعرة من خلال العاصفة الثائرة، ورأى الجالسين حولها.

ولا أعلم هل خبأ المستر أوكهيرست، أو أهمل أن يخبئ أوراق اللعب أيضًا، حتى لا يجعلها في متناول الجماعة، ولكن المحقق أنه — كما قالت الأم شبتون — لم يجر لسانه بذكر الورق ولا مرة واحدة في تلك الليلة، وزُجي الفراغ بقيثارة أخرجها توم سيمون من أحرازه وهو مباه بها. واستطاعت بيني على الرغم من بعض الصعوبات أن تخرج من هذه الآلة بعض الأصوات، وكان الغرير يصحبها بصنجين يضرب أحدهما على الآخر، غير أن هذه الحفلة لم تبلغ ذروتها إلا حين رفع الحبيبان الصوت عاليًا بنشيد ديني ساذج، ويداهما متشابكتان. وأعْدَيا غيرهما، فانضموا إليهما وأنشدوا معهما: «إني فخور بأن أحيا في خدمة الرب، وأن أموت في جيشه.»

وتمايلت أشجار الصنوبر، وهاجت العاصفة، وزفزفت الرياح، ودارت فوق هؤلاء التعساء، ووثبت ألسنة النار في هذا «المعبد» نحو السماء كأنها شهود على هذا العهد.

وخفت العاصفة حوالي منتصف الليل، وتفرقت السحب المتراكمة، وتلاحمت النجوم الخفّاقة اللمعان فوق النوام. وكان المستر أوكهيرست قد تركته عادات حرفته (القمار) قليل النوم خفيفه، فلما اقتسم مع توم سيمون واجب الحراسة، استطاع بطريقةٍ ما، أن يختص نفسه بالنصيب الأوفر منها، وكان مما أقنع به الغرير قوله إنه كثيرًا ما

كان يقضي أسبوعًا كاملًا بلا نوم، فسأله توم: «وماذا كنت تصنع؟» فقال أوكهيرست: «ألعب البوكر ... متى وقع المرء على حظه فإن التعب لا يعتوره ... وما أقوى الحظ وأعجب حاله! كل ما نعرفه عنه على وجه التحقيق هو أنه لا بد أن يتغير ويتقلب، وإدراك المرء أن الحظ يوشك أن يتحول هو الذي يسعده. ولقد وقعنا على حظ سيئ بعد أن غادرنا بوكر فلات، وإذا بك تجيء وتقع معنا! وأنت بخيرٍ ما وسعك أن تصبر لأني (قال المقامر هذا بلا مناسبة؛ ولكنه كان واضح البشر) لأني فخور بأن أحيا في خدمة الرب، وأن أموت في جيشه.»

وطلع اليوم الثالث، وأطلت الشمس من خلال الغمام الأبيض، على الطُرَدَاء وهم يقتسمون بعض ما بقي من زادهم المتناقص، لطعام الإفطار، وكان من خصائص هذا الإقليم الجبلي أن أشعة الشمس تنشر فيه الدفء على وجوه الشاتية، كأنما تعرب بذلك عن عطفها وأسفها لما مضى وفات، ولكنها كشفت عن طبقة فوقها طبقة من الثلج المتراكب المتعالي حول الكوخ، عن بحر مجهول لا طريق فيه، ولا درب له، ولا أمل لسالكه، من الثلج المتراكم تحت الشطئان الصخرية التي يتعلق بها هؤلاء المقذوف بهم عليها. وكان الجو عجيبًا في صفائه، حتى لكانوا يرون الدخان المتصاعد من حلة بوكر فلات على مسافة أميال وأميال، وقد رأته الأم شبتون فقذفت الحلة، من ذروة

معقلها الصخري، بلعنة أخيرة. وكانت هذه آخر بذاءاتها، ولعلها لهذا السبب كانت على حظ من الجلال. وقد أخبرت الدوقة أن هذه اللعنة التي أطلقتها نفعتها وشفت نفسها، ودعتها أن تحذو حذوها قائلة: «اخرجي إلى هناك، والعني، ثم انظري.» ثم رجعت إلى واجب تسلية «الطفلة» كما كانت هي والدوقة تسميان الفتاة «بيني»، ولم تكن بيني ضعيفة، ولكنه كان يسر هاتين المرأتين أن تعداها كذلك، لأنها كانت لا بذيّةً صخّابة، ولا عَسُوسًا فاجرة.

وأقبل الليل مرة أخرى، فعادت ألحان القيثارة تعلو وتهبط متقطعة، وبعد فترات طويلة، حول النار الموقدة، غير أن أصوات الموسيقى لم تستطع أن تملأ الفراغ الوجيع الذي أحدثته قلة الكفاية في الطعام، فاقترحت بيني ملهاة جديدة هي أن يقص كل واحد قصته. ولم يكن لا المستر أوكهيرست ولا رفيقتاه على استعداد لذكر شيء من سِيَرهم أو تجاربهم الشخصية، فكاد الاقتراح يحبط، لولا الغرير، فقد عثر قبل بضعة شهور على نسخة من ترجمة المستر بوب (الشاعر) لإلياذة هومر، فرأى أن يقص حوادثها الكبرى باللهجة الدارجة في حلة ساندي بار، فقد نسي عبارة الشاعر وألفاظه، وإن كانت الحوادث منقوشة على صدره. وهكذا عاد أبطال هومر وأربابه فمشوا على الأرض مرة أخرى في تلك الليلة، وكان زفيف الريح كأنما يمثل صراع الطرواديين الصخابين، والأغارقة الماكرين، وكأنما كانت أشجار الصنوبر العظيمة تنحني أمام غضب ابن بلياس.

وكان المستر أوكهيرست ينصت وهو راض ساكن، وقد اهتم على الخصوص بمصير أخيل.

وهكذا — بقليل من الطعام، وكثير من هومر والقيثارة — انقضى أسبوع على هؤلاء الطرداء. وخذلتهم الشمس مرة أخرى، فاحتجبت عنهم، وألقت السماء المدجنة، رقائقَ من الثلج المنخول، على الأرض. وأخذ نطاق الثلج يزداد كل يوم ضيقًا حتى صاروا ينظرون من سجنهم إلى جدران من الجليد اللماع، ترتفع مقدار عشرين قدمًا فوق رءوسهم. وتعذر شيئًا فشيئًا تقويةُ النار بإلقاء الحطب عليها حتى من الأشجار المنقصفة القريبة التي اختفى نصفها في الجمد. ومع ذلك لم يَشْكُ منهم أحد، فكان الحبيبان ينصرفان بوجهيهما عن هذا المنظر الجهم، وينظر كل منهما في عين صاحبه فيسعد، ووطن المستر أوكهيرست نفسه على السكون إلى هذه اللعبة الخاسرة، وتولت الدوقة التي صارت أكثر بشاشة وطلاقة مما كانت من قبل، العناية ببيني، أما الأم شبتون التي كانت أقوى الجميع، فقد بدأت تفتر، وتعتل، وتدنف، وفي منتصف ليلة اليوم العاشر دعت المستر أوكهيرست إلى جانبها، وقالت له بصوت الساخط على الضعف: «سأقضي نحبي، ولكن لا تقل شيئًا، ولا توقظ الطفلين، وخذ الحزمة التي تحت رأسي وافتحها.» ففعل المستر أوكهيرست كما أمرت، فألفى نصيبها من الزاد طول الأسبوع، لم تمسه يدها. وقالت، وهي تومئ إلى بيني: «أعطه للطفلة.» فقال

المقامر: «لقد أَمَتِّ نفسك من الجوع.» فقالت المرأة بضجر: «كذلك يقولون.» واستلقت، ثم أدارت وجهها إلى الحائط، ولفظت النفس الأخير في سلام.

وأُهملت القيثارة والصنج في ذلك اليوم، ونُسي هومر، وبعد أن دفنوا رفات الأم شبتون في الثلج، انتحى المستر أوكهيرست بالغرير ناحية وأراه حذاءين للسير على الثلج صنعهما من سرج قديم، وقال: «هناك فرصة — واحد في المائة — لإنقاذها.» وأشار إلى بيني، ثم إلى ناحية بوكر فلات وقال: «إذا استطعت أن تصل إلى هناك في يومين، فإنها تنجو.»

فسأله توم سيمون: «وأنت؟»

فكان الجواب الموجز: «سأبقى هنا.»

وافترق الحبيبان بعد عناق طويل، ونظرت الدوقة إلى المستر أوكهيرست، فخيل إليها أنه ينتظر ليصحب توم، فسألت: «أأنت ذاهب كذلك؟» فقال: «إلى مجرى الوادي فقط.» والتفت إليها فجأة، وقبلها، وترك وجهها الشاحب مضطرمًا، وأعضاءها المضطربة متصلبة من فرط الذهول.

وجاء الليل، ولكن المستر أوكهيرست لم يجئ، وثارت العاصفة مرة أخرى، وراحت الرياح الدائرة تلقي الثلج، وأججت الدوقة النار، ووجدت أن بعضهم ترك إلى جانبها

كومًا من الحطب يكفي بضعة أيام؛ فاغرورقت عينها بالدموع، ولكنها أخفتها عن بيني.

وصارت الفتاة والدوقة لا تنامان إلا غرارًا. ولما أصبح الصباح قرأت كل منهما مصيرها في وجه صاحبتها. ولم تنطق إحداهما بكلمة، ولكن بيني نحلت نفسها حقَّ الذي هو أقوى، فدنت من الدوقة، وأحاطت خصرها بذراعها، وظلتا هكذا بقية النهار. وبلغت العاصفة في تلك الليلة أعنف ثوراتها. فمزقت أشجار الصنوبر التي كانت كالوقاء للكوخ، واقتحمته عليهما.

وقبيل الصبح وجدتا أنهما عاجزتان عن تقوية النار، فما لبثت أن خمدت، وبينما كانت الجمرات تسودّ، والذُّكوات تهمد اقتربت الدوقة من بيني، وخرجت من الصمت الذي ظل ساعات، وقالت: «بيني، هل تستطيعين أن تصلي؟» فقالت بيني ببساطة: «كلا، يا عزيزتي.» فأحست الدوقة لسبب ما، أن عبئًا انحط عن صدرها، وأراحت رأسها على كتف بيني، ولم تقل شيئًا بعد ذلك، وغلبهما النوم وهما على هذا الحال، صغراهما وأطهرهما، تحمل على صدرها البكرِ العفّ، رأسَ رفيقتها الملوثة.

وهدأت الريح، كأنما أشفقت أن توقظهما. ونفضت أغصان الصنوبر الطويلة ثلجها، فطار كالريش، وخفق كالحمائم

البيضاء، ثم هبط عليهما وهما نائمتان. وأطل القمر من خلل السحاب الممزق على المكان. ولكن كل لوثة، كل أثر من آثار الجهد والكد على الأرض، انطوى تحت هذا الستر الناصع النقي الذي ألقته رحمة السماء!

ونامتا طول ذلك اليوم، واليوم التالي، ولم تستيقظا لما عصفت أصوات القادمين بالسكون. وامتدت الأصابع الرحيمة، فنحت الثلج عن الوجهين، غير أنه ما كان يسع أحدًا أن يقول، وهو ينظر إليهما، أيهما كانت المخطئة، حتى أهل بوكر فلات، بقانونهم الصارم، أدركوا هذا، فمضوا عنهما وتركوهما في عناقهما. ولكنهم، على رأس الوادي، وعند شجرة من أضخم أشجار الصنوبر، وجدوا ورقة من أوراق اللعب مسمّرة إلى الجذع بمدية، وعليها ما يأتي، مكتوبًا بالقلم الرصاص، وبيدٍ ثابتة:

تحت هذه الشجرة يرقد جثمان جون أوكهيرست الذي عثر به الحظ في الثالث والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ وقد أسلم أمره لقضاء الحظ فيه في السابع من ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٨٥٠.

ووجدوا هذا الذي كان أقوى المنفيين من بوكر فلات، وأضعفهم في آن معًا، راقدًا تحت الثلج، وقد انقطع النبض وابترد الجسم، وإلى جانبه مسدس، وفي قلبه رصاصة!

# هنري جيمس

## أربع مقابلات

رأيتها أربع مرات، ليس إلا. ولكني أتذكرها كأوضح ما تكون؛ فقد وقعت من نفسي وأعجبتني طلاوتها وحسنها، وعددتها نموذجًا بارع الظرف لطراز بعينه. وقد أحزنني نعيها، ولكني أعود فأفكر في الأمر، فلا يسعني إلا أن أتساءل: لماذا يؤسفني ذلك؟ إنها على التحقيق، لم تكن في آخر مرة لقيتها فيها، ولكني سأصف مقابلاتنا على الترتيب.

### ١

كان أول لقاء لنا، في الريف، على الشاي في حفل صغير، في ليلة مثلوجة، ولا بد أن يكون ذلك منذ سبع عشرة سنة.

وكان صديقي «لاتوش» ذاهبًا لقضاء عيد الميلاد مع أمه، فدعاني إلى مرافقته، واحتفت بنا هذه السيدة الطيبة وأرادت أن تكرمنا بهذه الحفلة التي أسلفت الإشارة إليها. وقد أفدتُ من هذه الرحلة متعة حقيقية، فما سبق لي أن أوغلت في «إنجلترا الجديدة» في مثل هذا الوقت. وكانت السماء قد ظلت تثلجنا طول النهار فارتفع ما ألقته على الأرض إلى الرُّكب، ووددت أن أعرف كيف وصل السيدات إلى البيت.

وسألتني السيدة لاتوش عن الصور الشمسية وهل أستحسن أن أعرضها على الفتيات؟ وكانت هذه الصور في محفظتين كبيرتين جاء بهما ابنها الذي عاد مثلي من أوروبا في الأيام الأخيرة. فأدرت عيني في الجمع، فلاحظت أن أكثر الفتيات يشغلهن ما هو أحق بأن يستغرقهن من أية صورة شمسية مهما بلغ من دقتها وإحكامها ووضوحها. ولكن كانت هناك واحدة واقفة على مقربة من الصّفة وهي تجيل عينها في الحجرة، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة لا توائم، فيما بدا لي، العزلةَ التي آثرتها. فنظرت إليها مليًّا ثم قلت: «إني أحب أن أعرض الصور على هذه الآنسة.»

فقالت السيدة لاتوش: «أي نعم. لقد وُفقت في اختيارك فإنها رَزان.[1] لا تعبأ شيئًا بالمغازلة. سأكلمها.»

فأجبت بأنها لا تكون طلبتي إذا كانت لا تميل إلى المغازلة،

ولكن السيدة لاتوش كانت قد ذهبت لتعرض عليها الأمر.

وقالت، وقد عادت: «إنها مغتبطة. وهي طلبتك على التحقيق ... هادئة وذكية ...»

ثم أخبرتني أن اسمها الآنسة كارولين سبنسر، وقدمتني إليها وقامت بواجب التعريف.

ولم تكن الآنسة كارولين سبنسر بارعة الحسن، ولكنها كانت وضيئة رقراقة، ولا بد أن تكون قد ناهزت الثلاثين، غير أنها كانت غضة، ولها محيا الطفل، وكان رأسها دقيقًا جميلًا، وشعرها معقوصًا، على نحو ما يكون في تماثيل الإغريق، وإن كان من المشكوك فيه أن تكون قد رأت في حياتها تمثالًا إغريقيًّا. ووقع في روعي أنها «فنانة» على قدر ما تسمح جريمونتر بتشجيع الميول والنزعات الفنية. وكان في عينها لين، وفي نظرتها دهشة، وفي شفتيها رقة، ولأسنانها وضاءة وجمال. وكانت تلف جيدها بمنديل تجمع طرفيه بدبوس، رأسه من المرجان، وتحمل في يدها مروحة من القش المضفور يزينها شريط قان. وكان ثوبها القصير من الحرير الأسود. وكانت تتكلم برقة مع الضبط، وتفتح فمها الدقيق، وتفرج شفتيها الرقيقتين، فتكشف عن أسنانها البيضاء اللامعة، وقد بدا عليها السرور، بل التأثر، لرغبتي

في عـرض الصـور عليهـا. وقـد تـم ذلـك بسـهولة بعـد أن أخرجـت المحفظتـين مـن مكانهـما ووضعـت كرسـيين قريبًـا مـن مصبـاح. وكانـت الصـور رسـومًا لأشـياء أعرفهـا؛ مناظـر مـن سـويسرا، وإيطاليـا وإسـبانيا، ولقصـور وصـور وتماثيـل شـهيرة. وقـد أدليـت بـما وسـعني مـن الـشرح، وكانـت، وهـي تصغـي إليَّ، وتنظـر إلى الصـور التـي أرفعهـا لعينهـا، سـاكنة لا تتحـرك وطـرف مروحتهـا عـلى شـفتها السـفلى. وكانـت ربـما قالـت برقة وأنـا أرد إحـدى الصـور إلى مكانهـا: «هـل رأيـت هـذا المـكان؟» وكان جـوابي في الأغلـب والأعـم أني رأيتـه مـرات عديـدة (فقـد كنـت كثـير الأسـفار) وكنـت أحـس بعـد أن أقـول ذلـك أنهـا تلحظنـي بعينيهـا الجميلتـين. وقـد سـألتها في بدايـة الأمـر: هـل سـافرت إلى أوروبـا؟ فـكان جوابهـا «لا، لا» وكان صوتهـا همسًـا خافتًـا، كأنـما تُـسر إليّ شـيئًا، ولكنهـا بعـد ذلـك لم تكـد تقـول شـيئًا، وإن كانـت لم تحـول عينهـا عـن الصـور، حتـى توهمـت أنهـا ضجـرت، فلـما فرغنـا مـن إحـدى المحفظتـين اقترحـت أن أقـصر عـن عـرض مـا بقـي، إذا كانـت تؤثـر ذلـك. وشـعرتُ أنهـا لم تسـأم، ولكـن صمتهـا حـيرني، واشـتهيت أن أحملهـا عـلى الـكلام، فـأدرت وجهـي ونظـرت إليهـا فرأيـت عـلى خديهـا احمـرارًا خفيفًـا، وكانـت تـروّح عـلى وجههـا ولا تنظـر إليَّ، بـل تحـدج المحفظـة الثانيـة المسـندة إلى المنضـدة.

وقالـت بصـوت فيـه بعـض التهـدج والارتعـاش: «ألا تريننـي مـا في هـذه؟» فكـدت أعتقـد أنهـا مضطربـة، وقلـت: «يـسرني ذلـك، إذا كنـت لم تتعبـي.»

قالت: «لا، لست متعبة. إني أحب ذلك.»

وتناولت المحفظة الثانية فأراحت كفها عليها ومسحتها برقة.

وسألتني: «وهل سافرت إلى هذه البلاد أيضًا؟»

وفتحتُ المحفظة فتبين أني سافرت إلى هذه الأقطار، وكان من بين الصور الأولى منظر كبير لقصر شيلون على بحيرة جينيف.

وقلت وأنا أريها هذا: «لقد زرت هذا المكان عدة مرات. أليس جميلًا؟» وأشرت إلى الصور المنعكسة في الماء الصافي الساكن، للصخور الوعرة والصروح الذاهبة في الهواء، فلم تقل: «ما أبدع هذا» ثم تدفعه لترى الرسم الذي يليه، بل تأملته مليًّا ثم سألت: أليس هذا هو المكان الذي حُبس فيه بونيفار على ما جاء في شعر بيرون؟ فقلت: نعم، وحاولت أن أنشدها بعض أبيات بيرون في الموضوع ولكن الذاكرة لم تساعفني كما ينبغي.

فروحت على وجهها لحظة ثم أنشدت الأبيات على الوجه الصحيح بصوت لين مطرد النبرة إلا أنه حسن، واتقد

وجهها لما فرغت، فأثنيت عليها وقلت لها إنها مزودة بما يلزم لزيارة سويسرا وإيطاليا، فنظرت إليّ بمؤخر عينها لترى أجاد أنا أم أنا أمزح، فقلت لها: إذا كان المراد أن تعرف المواضع من وصف بيرون لها فإن الواجب أن تعجل بالسفر فإِن أوروبا تحول بسرعة عن العهد بها في أيام بيرون.

فسألتني: «متى ينبغي إذن أن أذهب؟»

قلت: «إني أمهلك عشر سنوات.»

قالت بلهجة متزنة: «أظن أن في وسعي أن أسافر في خلال ذلك.»

قلت: «ستستمتعين بالرحلة جدًّا، وستلقينها حافلة بالمطرب المعجب.»

وعثرت على صورة لركن في مدينة أجنبية كنت كلفًا بها، وكانت لي فيها عهود يحن القلب لذكراها، وأحسبني أفضت في الكلام عنها، وكنت فيما قلت، رطب اللسان، فقد كانت مرهفة الأذنين، وأنفاسها محتبسة.

وسألتني بعد أن أقصرت برهة: «هل طال مقامك في

البلــدان الأجنبيــة؟»

قلت: «سنين عديدة.»

قالت: «وهل رحلت إلى كل مكان؟»

قلــت: «كانــت أســفاري كثــيرة فــإِني كلــف بالتجــوال. ومــن حســن الحــظ أني كنــت قــادرًا عــلى ذلــك.»

فنظـرت إليَّ مـرة أخـرى بمؤخـر عينهـا وسـألت: «وهـل تعـرف اللغـات الأجنبيـة؟»

قلت: «إلى حدٍّ ما.»

قالت: «هل في معرفتها والكلام بها مشقة؟»

فقلت: «أعتقد أنك لن تجدي في الأمر صعوبة.»

قالت: «لا يعنيني أن أتكلم أنا، إنما يكون همي أن أنصت.»

وأمسكت ثم قالت: «يقولون إن المسرح الفرنسي بديع.»

قلت: «هو خير ما في العالم في بابه.»

قالت: «هل كثر ترددك إليه؟»

قلت: «لما كنت في باريس كنت أذهب إليه كل ليلة.»

قالت: «كل ليلة!» وفَتحت عينيها الصافيتين جدًّا «إن هذا في رأيي ...» وترددت هنيهة «رائع جدًّا» ثم سألت بعد دقائق: «أي البلاد تفضل؟»

قلت: «هناك بلاد أفضلها على كل ما عداها، وما أظن برأيك إلا أنه سيكون كرأيي.»

فنظرت إليّ قليلًا ثم قالت برقة: «إيطاليا؟»

قلت: بمثل رقتها «إيطاليا.» ورشق كل منا صاحبه بلحظه. وكان يُخيل إليَّ وأنا أنظر إلى إشراق محياها ووضاءته وصباحته كأني كنت أغازلها وأبثها حبي، ولم أكن أريها صورًا شمسية. ومما قوى هذا الوهم أن وجهها صبغه الدم فحولته عني. وساد الصمت هنيهة قالت بعدها: «هذا هو المكان الذي كنت أفكر في الذهاب إليه على الخصوص.»

قلت: «أوه ... هذا هو ... هذا هو.»

وقلبت صورتين أو ثلاثًا في صمت ثم قالت: «يقولون إن النفقة ليست باهظة.»

قلت: «كما هي في بعض البلاد الأخرى؟ نعم، وليس هذا أقل مزاياها.»

– «ولكنها غالية كلها، أليست كذلك؟»

– «تعنين أوروبا؟»

– «السفر والطواف والتنقل ... هذه هي الصعوبة إلى الآن، فإن المال عندي قليل. إني مدرّسة.»

قلت: «لا شك أن المال ضروري ولا غنى عنه، ولكن الإنسان يستطيع أن يدبر أموره بمبلغ معتدل.»

قالت: «أظن أن في وسعي ذلك، فقد ادخرت شيئًا، ولا أزال أضيف إليه ... لهذا الغرض» وسكتت برهة ثم انطلقت تتكلم بلهفة كأنما كانت مكبوتة، وكأنما كان إخباري بذلك فيه لذة نادرة إلا أنها عسى أن تكون غير بريئة «ليس

المـال كلَّ مـا عـاق ... كل شيء عـاق. كل شيء كان يصـد، وقـد انتظـرت، وانتظـرت، فـما عـدوت حـال الـذي يبنـي القصـور بخيالـه في الهـواء، وإني لأكاد أخـاف أن أتكلـم في هـذا ... وقـد خايلنـي الأمـل بالتحقيـق مرتـين أو ثلاثـًا فتكلمـت بـه، فانتسـخ الحلـم! ألا لقـد تكلمـت كثـيرًا ... أكثـر ممـا ينبغـي.» قالـت ذلـك منحيـة بـه عـلى نفسـها، وكانـت تجد في هـذا بعـض المتعـة عـلى مـا بـدا لي «ولي صديقـة عزيـزة لا تريـد أن تسـافر، ولسـت أمـل تكليمهـا في هـذا حتـى لأضجرهـا جـدًّا. وقـد قالـت لي مرة إنهـا لا تـدري مـاذا عسـى أن يكـون مـآلي، فـإِني خليقـة أن يطـير عقـلي إذا لم أسـافر إلى أوروبـا، وسـيطير عقـلي عـلى التحقيـق إذا سـافرت.»

فقلـت: «عـلى كل حـال، هـذا أنـت لم تسـافري، ولم يطـر عقلـك مـع ذلـك.»

فنظـرت إليَّ مليًّـا ثـم قالـت: «لسـت عـلى يقـين مـن ذلـك. فـما أراني أفكـر في شيء آخـر. أفكـر في السـفر دائـمًا، حتـى ليمنعنـي ذلـك أن أفكـر فيـما هـو أدنـى إليّ — فيـما ينبغـي أن أُعْنَـى بـه — وهـذا ضرب مـن الجنـون.»

قلت: «الدواء أن تسافري.»

قالــت: «إن لي ثقــة وإيمانًــا بــأني سأســافر. ولي في أوروبــا ابــن عــم!»

وقلبنــا بضــع صــور أخــرى وســألتها هــل قضــت كل حياتهــا في «جريمونــتر»؟

فقالــت: «لا يــا ســيدي. لقــد قضيــت ثلاثــة وعشريــن شــهرًا في بوســتون.»

فقلــت مازحًــا: «إنــه مــا دام الأمــر كذلــك فــإن أوروبــا ســتخيب أملهــا عــلى الأرجــح.» ولكنــي لم أزعجهــا.

وقالــت، وعــلى فمهــا ابتســامتها اللطيفــة الوديعــة: «إني أعــرف عــن أوروبــا أكثــر ممــا تظننــي أعــرف، أعنــي بالقــراءة عنهــا. فقــد قــرأت كثــيرًا، ولم أقتــصر عــلى بــيرون وحــده، بــل قــرأت كتــب التاريــخ وكتــب إرشــاد الســياح. وأنــا واثقــة أني ســأرضى عــن رحلتــي حــين يتــاح لي أن أقــوم بهــا.»

فقلــت: «إني أعــرف حالتــك، وأدرك بواعثهــا. هــو الهــوى الــذي يلــج بنفــس الأمريكــي ... هــوى الجــمال والروعــة. وأحســب أن هــذا عندنــا مقــدم عــلى كل مــا عــداه، وســابق لــكل اختيــار وتجربــة. فــإذا جــاءت التجربــة لم ترنــا إلا مــا كنــا نحلــم بــه.»

فقالت كارولين سبنسر: «أعتقد أن هذا صحيح. فقد حلمت بكل شيء. وسأعرف كل شيء حين أراه.»

قلت: «أظنك ضيعت وقتًا طويلًا جدًّا.»

قالت: «نعم وهذا شر ذنوبي.»

وكان الذين حولنا قد بدءوا ينصرفون، فنهضت ومدت إليَّ يدها في دعة ورقة ولكن عينها كانت فيها لمعة غريبة.

فقلت وأنا أهز يدها مودعًا: «إني عائد إلى هناك، وسأتطلع إلى لقائك.»

فقالت: «سأخبرك إذا خاب أملي.»

ومضت عني، وعليها أمارات الاضطراب الخفيف، وفي يدها المروحة تتحرك.

## ٢

عدت إلى أوروبا بعد هذه المقابلة ببضعة شهور، وانقضت ثلاث سنوات. وكنت مقيمًا في باريس، وفي أخريات أكتوبر/ تشرين الأول رحلت عنها إلى «الهافر» لأقابل أختي وزوجها.

وكانا قد كتبا إليَّ يقولان إنهما يوشك أن يصلا إليها. فلما بلغت الهافر وجدت أن الباخرة قد سبقتني إليها وأني تأخرت حوالي ساعتين؛ فانكفأت إلى الفندق الذي نزل فيه قريباي. وكانت أختي قد أوت إلى فراشها من الإعياء الذي سببه لها ركوب البحر، فقد عانت منه شر ما يصيب الإنسان. وكانت ترغب ألا يزعجها أحد من راحتها أو ينغصها عليها فلم أمكث معها إلا خمس دقائق. ومن أجل هذا اتفقنا على البقاء في الهافر إلى اليوم التالي. وكان زوجها من فرط قلقه عليها لا يريد أن يغادر غرفتها ولكنها أصرت أن يخرج معي ويتمشى لينفي عنه ما يشعر به راكب البحر، ويستعيد إحساسه بالوثاقة والاستقرار. وكنا في الخريف، وكان الصباح دافئًا، منعشًا، وأعجبتنا المناظر وسرتنا ونحن نجتاز الشوارع البهيجة الألوان الغاصة بالناس في هذا المرفأ الفرنسي القديم. وسرنا على أرصفة الميناء المشمسة العالية الضوضاء ثم دخلنا في شارع جميل واسع، بعضه تضيئه الشمس والبعض في الظل، وكان لقدمه، ولما عليه من الصبغة الريفية يبدو للناظر كأنه رسم بالألوان المائية، فهذه مساكن عالية كثيرة الطبقات مغبرَّة اللون، وسقوفها الحمراء الآجر على هيئة المثلث، وعلى نوافذها شبابيك خضراء وفوقها الزخرفة، وفي الشرفات الزهريات، وعلى العتبات النساء وقد لففن رءوسهن بمناديل بيضاء. وقد سرنا في الظل، وكنا نرى هذه المناظر على الجانب المشمس فكأنها صورة. وإذا بنسيبي يقف بغتة ويضغط ذراعي ويحدق! فنظرت إلى حيث ينظر،

فرأيت أننا وقفنا على مسافة قصيرة من مقهى رصت أمامه المناضد والكراسي تحت طنف.٢ وكانت النوافذ مفتوحة، وعلى جانبي الباب شجيرات ست مرصوصة في مغارسها، وقد فرش الرصيف بالتبن النظيف. وكان المقهى صغيرًا، عتيقًا، ولكنه هادئ، ورأيت بداخله، في الظلام النسبي، امرأة حسناء سمينة على قبعتها شرائط قرمزية، ووراءها مرآة، وهي تبتسم لشخص متوارٍ عن النظر. على أني لم ألاحظ هذا إلا فيما بعد. أما الذي رأيته أول الأمر فسيدة جالسة وحدها على منضدة من تلك المناضد الرخامية المبعثرة على الرصيف. وكان نسيبي قد وقف لينظر إليها، وكان أمامها شيء على المنضدة، ولكنها كانت مضطجعة، وساعداها مطويان على صدرها، وعينها إلى الناحية الأخرى من الشارع. ولم أر منها سوى لمحة جانبية ومع ذلك كبر في ظني أني رأيتها من قبل.

وقال نسيبي: «سيدة الباخرة!»

فسألته: «أكانت على الباخرة معكم؟»

قال: «من الصباح إلى الليل. ولم يصبها الدوار. وكانت تجلس على جانب السفينة وساعداها مطويان كما تراها الآن، وترسل لحظها إلى الأفق الشرقي.»

فسألته: «أتنوي أن تكلمها؟»

قال: «لست أعرفها ... لم نتعارف ... وكنت سيئ الحال من الدوار، ولكني كنت أراقبها، ولا أدري لماذا كنت معنيًّا بها. وإنها لأمريكية صغيرة رشيقة. وأكبر الظن أنها مدرسة، وأنها في إجازة، وهي تتنزه بما ادخرته من تلاميذها.»

وأدارت في هذه اللحظة خدها قليلًا ونظرت إلى المساكن العالية المغبرة الجدران فقلت: «سأكلمها أنا.»

فقال نسيبي: «لو كنت مكانك لما فعلت فإنها حِيِّيَّةٌ جدًّا.»

قلت: «يا صديقي العزيز، إني أعرفها. وقد أريتها مرة بضع صور شمسية في حفلة شاي.»

وقصدت إليها، فلفتت وجهها ونظرت إليّ، فأيقنت أنها الآنسة كارولين سبنسر، ولكنها لم تعرفني بمثل هذه السرعة، فقد بدت عليها دهشة المفاجأة، وقلت، وقد سحبت كرسيًّا وقعدت: «أرجو ألا يكون أملك قد خاب.»

فحدقت فيّ، وقد احمر وجهها قليلًا، ثم انتفضت قليلًا انتفاضة المعرفة والإدراك وقالت: «أنت الذي أراني الصور الشمسية في جريمونتر؟»

قلت: «نعم، أنا هو بعينه، هذه مصادفة جميلة فإني أحس كأن عليّ أن أقيم لك استقبالًا وترحيبًا رسميين. فقد كلمتك كثيرًا عن أوروبا.»

فقالت بلهجة رقيقة: «لم تقل أكثر مما يجب. وإني لسعيدة.»

وكانت السعادة بادية عليها، ولم يكن ثمّ ما يدل على أن سنها زادت وأنها صارت أكبر، واحتفظت وسامتها بمزايا الرزانة والوداعة. وإذا كانت قد بدت من قبل زهرة من أزاهير الطهر على عودها الأملود، وببهجة ألوانها الرقيقة، فما كانت نضرة هذه البهجة الرقيقة أقل ظهورًا، الآن، وكان إلى جانبها رجل كهل يحتسي شراب «الأبسنت» ووراءها السيدة ذات القبعة المزدانة بالشرائط القرمزية، تصيح «أَلِسبْياد!» «أَلِسبْياد!» للخادم ذي الفوطة الطويلة الملفوفة على وسطه، وأخبرت الآنسة سبنسر أن زميلي كان معها على السفينة، وأنه زوج أختي، فتقدم وعرفته بها فنظرت إليه كأنها ما وقعت عليه عينها من قبل، ولا عجب فقد حدثني أنها كانت لا تنفك تنظر إلى الأفق الشرقي، ومن الجلي أنها لم تفطن إلى وجوده على الباخرة. وابتسمت له ابتسامة حيّة ولم تحاول أن تزعم أنها رأته من قبل، وبقيت معها في المقهى، ورجع هو إلى الفندق وزوجته. وقلت للآنسة سبنسر: إن مقابلتي لها بُعَيد نزولها من السفينة اتفاق عجيب جدًّا،

ولكني مغتبط بذلك ويسرني أن تخبرني عن وقع السفر في نفسها.

قالت: «لا أدري! ولكني أشعر كأني في حلم. وإن لي هنا لساعة، ولست أريد أن أتحرك. كل شيء جميل. ومن يدري؟ لعل القهوة أسكرتني، والحق أنها كانت لذيذة!»

قلت: «إذا كان هذا مبلغ سرورك بمرفأ الهافر الممل وكنت تفيضين عليه كل هذا الإعجاب، فإنك لا تبقين شيئًا من السرور والإعجاب بما هو خير منه. كلا، لا تنفقي كل ذخرك من الإعجاب في أول يوم. واذكري أن هذه وثيقة الاعتماد الأدبية ... تذكري كل البلدان والأشياء الجميلة التي تنتظرك. تذكري إيطاليا الفاتنة!»

فقالت بلهجة الجذل، وعينها على المساكن أمامها: «لست أخشى الإفلاس وإن في وسعي أن أجلس هنا طول النهار، وأقول لنفسي إني صرت ها هنا أخيرًا. كل شيء قاتم، وقديم، ومغاير لمألوفي!»

فسألتها: «على فكرة، كيف اتفق لك أن تقعدي هنا؟ ألم تقصدي إلى فندق من الفنادق؟» فقد استغربت سذاجة القلب التي جعلت هذه المرأة الحسناء الرقيقة تتخذ مكانها في هذه العزلة البارزة على حافة الطريق.

فكان جوابها: «جاء بي ابن عمي إلى هنا. أتذكر أني قلت لك إن لي ابن عم في أوروبا؟ استقبلني هذا الصباح على الباخرة.»

قلت: «لم تكن به حاجة إلى تجشيم نفسه عناء الاستقبال إذا كان سيهجرك بهذه السرعة.»

قالت: «إنما تركني مسافة نصف ساعة. ذهب ليجيء بمالي.»

فسألتها: «وأين مالك؟»

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت: «إني أشعر بأن لي شأنًا حين أخبرك أنها كلها أوراق نقد.»

فسألتها: «وأين أوراقك النقدية؟»

قالت: «في جيب ابن عمي.»

قالت هذا بهدوء، ولكن الخبر — لا أدري لماذا؟ — أجرى في بدني قشعريرة البرد، ولو أني سئلت في تلك اللحظة عن الباعث لعجزت عن تعليل هذا الشعور فما كنت أعرف شيئًا عن ابن عمها فالمفروض أن يكون أمينًا، ولكنه أقلقني

فجـأة أن تكـون مواردهـا القليلـة قـد انتقلـت إلى يديـه بعـد نصـف سـاعة مـن نزولهـا مـن السـفينة.

وسألتها: «أتراه سيسافر معك؟»

قالـت: «إلى باريـس فقـط. فإنـه يـدرس الفـن فيهـا. وكنـت قـد كتبـت إليـه أني قادمـة ولكنـي لم أكـن أتوقـع أن يجـيء إلى هنـا ليسـتقبلني، ولم أطمـع في أكثـر مـن أن يلقـاني عـلى المحطـة في باريـس. وإنهـا لمـروءة منـه. ولكنـه ذو مـروءة، وذكـي أيضًـا.»

فشـعرت برغبـة ملحـة في أن أرى ابـن عمهـا الذكـي الـذي يـدرس الفــن.

وسألتها: «هل ذهب إلى المصرف؟»

قالـت: «نعـم، إلى المـصرف. ذهـب بي إلى فنـدق، مـكان صغـير غريـب ولكنـه جميـل، وفي وسـطه سـاحة، تحيـط بهـا مـن فوقهـا شرفـة تـدور بهـا، وصاحبـة الخـان سـيدة ظريفـة تلبـس ثوبًـا محبـوك التفصيـل عـلى قدهـا. وبعـد قليـل خرجنـا لنتمشـى إلى المـصرف لأنـه ليـس معـي شيء مـن النقـود الفرنسـية، ولكنـي كنـت دائـرة الـرأس مـن ركـوب البحـر فاسـتحسـنت أن أقعـد، فجـاء بي إلى هنـا وذهـب هـو إلى المـصرف، وسـأنتظر حتـى يعـود.»

وقد يبدو هذا مني إغراقًا في التخيل، ولكنه مر بخاطري أنه لن يعود أبدًا. فاعتدلت على الكرسي وقد صممت على البقاء إلى جانبها حتى أرى ما يكون. وكانت دقيقة الملاحظة لا يفوت عينها شيء، مما تعرضه علينا حركة الشارع؛ غرابة الثياب، وأشكال المركبات، والخيل النورماندية الجسيمة، والقساوسة الضخام الأبدان، والكلاب الحليقة. وتحدثنا عن هذه الأشياء، فوجدت متعة من جدة مشاهدتها وكيف كان ذهنها الواسع الاطلاع يدرك الأشياء ويغتبط بها.

وسألتها: «وبعد أن يرجع ابن عمك، ماذا تنوين أن تصنعي؟»

فترددت لحظة ثم قالت: «لا ندري تمامًا.»

قلت: «ومتى تذهبين إلى باريس؟ إذا ركبت قطار الساعة الرابعة فإنه يكون من دواعي سروري أن أكون في خدمتك في هذه الرحلة.»

قالت: «لا أظن أننا سنفعل ذلك فإن ابن عمي يرى أن أبقى هنا بضعة أيام.»

فقلت: «أوه» ولبثت خمس دقائق لا أبس بحرف. وكنت

أتعجب لابن عمها هذا ماذا يبغي من وراء ذلك؟ وأدرت عيني في الشارع وأرسلت لحظي فيه إلى آخر مدى البصر، ولكني لم أر أحدًا يمكن أن يعد أمريكيًّا ذكيًّا من طلاب الفنون. وأخيرًا سمحت لنفسي أن ألاحظ أن الهافر ليس بالمكان الذي يختاره من يطوّف في أوروبا ليتلبث فيه ويعجب به. فما هو بأكثر من استراحة، ومعبر ومجاز ينبغي أن ينفذ منه المرء بسرعة، ونصحت لها أن تسافر إلى باريس على قطار العصر، وأن تتسلى في أثناء ذلك بالركوب إلى القلعة القديمة عند مدخل الميناء، ذلك البناء الدائر الجميل الذي يحمل اسم فرنسيس الأول ويبدو للعين كأنه قصر صغير من قصور سنت أنجلو.

وكانت تصغي بعناية، ثم بدا عليها الجد وهي تقول: «أخبرني ابن عمي أنه بعد عودته سيحدثني في أمر خاص، وقال إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا أو نقرر أمرًا إلا بعد أن أستمع إلى ما عنده، ولكني سأحمله على الإسراع في إخباري، ثم نذهب بعد ذلك إلى القلعة القديمة. ولا داعي للتعجيل بالسفر إلى باريس، فإن الوقت فسيح.»

وكانت تبتسم بشفتيها الرقيقتين الحادتين قليلًا وهي تقول هذا، ولكني كنت أتفرس في وجهها، فلمحت طيفًا من الخوف في عينيها.

وقلت: «لا تقولي إن هذا الرجل التعس سيفضي إليك بأخبار سيئة!»

قالت: «أحسب أنها ستكون سيئة قليلًا، ولكني لا أعتقد أنها سيئة جدًّا. على كل حال لا بد من الاستماع.»

فنظرت إليها هنيهة ثم قلت: «ما أظنك جئت إلى أوروبا لتصغي إليه أو لغيره، إنما جئت لتنظري!»

وأيقنت أن ابن عمها سيعود، ما دام أن لديه أخبارَ سوء يريد أن يطلعها عليها فلا بد أن يرجع. وسألتها عن البلدان التي تنوي أن تزورها، فألفيتها قد رتبت رحلتها على أدق نحو، وسردت لي أسماء البلاد بلهجة الجد، فهي ستذهب من باريس إلى ديجون وأفينيون، ومن ثم إلى مارسيليا وطريق الساحل «الكورنيش» ثم إلى جنوة، وسبيزا، وبيزا، وفلورنسة، ورومية. ويظهر أنه لم يخطر لها قط أن في السفر وحدها وبلا رفيق أيَّ عناء، ولما كان لا رفيق لها؛ فقد حرصت على اجتناب إقلاقها أو إضعاف شعورها بالاطمئنان والثقة.

وأخيرًا جاء ابن عمها. رأيته يخرج علينا من زقاق جانبي، وما كادت عيني تأخذه حتى أيقنت أنه هو الأمريكي الذكي الذي يدرس الفن في باريس. وكان يلبس قبعة ناعمة عريضة

الحافة، وسترة لبيسة[3] من المخمل الأسود، رأيت أمثالها كثيرًا في «شارع بونابرت»، وكان قميصه ينفرج عن جانب كبير من عنق لم يبد لي على البعد جميلًا. وكان طويلًا نحيفًا وشعره أحمر، وفي وجهه حَطاط،[4] وقد لاحظت هذا كله وهو يدنو من المقهى ويحدق فيَّ مستغربًا وجودي. ولما صار معنا عرفته بنفسي وقلت إني صديق قديم للآنسة سبنسر، فأحدَّ النظرَ إليَّ بعينيه الضيقتين المحمرتين. ثم انحنى لي على الطريقة الفرنسية ملوّحًا بقبعته العريضة.

وقال: «أكنت على السفينة؟»

قلت: «كلا، لم أكن هناك، فإني في أوروبا منذ ثلاث سنوات.»

فانحنى مرة أخرى بتؤدة وأومأ إليَّ أن أجلس كما كنت، فقعدت لأراقبه وأفحصه قليلًا، فقد آن لي أن أعود إلى أختي، وبدا لي أن ابن العم هذا غريب، فما خلقه الله في صورة يلائِمها زي بيرون أو روفائيل، ولا كانت سترته المخملية، وعنقه العاري على اتساق مع خصائص وجهه، وكان شعره مقصوصًا إلى قريب من جلدة الرأس، وأذنه عظيمة مقبلة على الوجه، متباعدة عن الرأس. وكان في هيئته فتور، وفي قامته انحناء يناقضان ما في عينه الغريبة اللون من الحدة والشدة. ولعلي كنت متحاملًا عليه، ولكنه خُيل إليَّ أن في

عينيه غدرًا. وظل لحظة لا يقول شيئًا، وكان يعتمد بيديه على عصاه ويصعِّد طرفه ويصوِّبه في الشارع، وأخيرًا رفع عصاه ببطء وأشار بها وهو يقول: «هذا حسن.» وكان يُميل رأسه ويُداني بين جفونه وهو ينظر، فوجهت عيني إلى حيث كان يومئ بعصاه، فرأيت خرقة حمراء معلقة من شباك قديم. وقال: «لون حسن.» وحوَّل إليّ لحظه من غير أن يحرك رأسه وقال: «يكون جميلًا في الرسم.» وكان صوته ناشفًا جامدًا خاليًا من الصقل.

فقلت: «أرى أن لك لنظرًا. وقد أخبرتني ابنة عمك أنك تدرس الفن.»

فنظر إليَّ بعينه المغضية ولم يجب، فمضيت في كلامي بلطف متكلف: «أحسبك تعمل مع واحد من هؤلاء العظماء.»

فظل ينظر إليّ ثم قال برقة: «جيروم.»

قلت: «أحسبك مغتبطًا هناك؟»

قال: «هل تعرف الفرنسية؟»

قلت: «إلى حد ما.»

فأبقى عينيه على وجهي ثم قال بالفرنسية: «إني أعبد التصوير.»

فقلت: «أوه. إني أستطيع أن أفهم هذا حين تقوله.»

ووضعت الآنسة سبنسر راحتها على ذراع ابن عمها، وكان في حركتها اضطراب خفيف من السرور، وكأنما أعجبها أن يكون المرء ذرب اللسان في اللغات الأجنبية! ونهضت لأودعهما، وسألت الآنسة سبنسر أين في باريس يتاح لي أن أتشرف بلقائها؟ وإلى أي فندق تنوي أن تقصد؟

فالتفتت إلى ابن عمها مستفسرة، فشرفني مرةً أخرى بنظرة فاترة بمُؤخر عينه وسألني: «أتعرف فندق الأمراء؟»

قلت: «أعرف مكانه.»

قال: «سآخذها إليه.»

فقلت لكارولين سبنسر: «إني أهنئك. فإني أعتقد أن هذا خير فندق في العالم. وإذا اتفق أني استطعت أن أختلس من وقتي هنا لحظة أراك فيها، فأين أجدك؟»

فقالت بلهجة الجذل: «ما أحلاه من اسم ... أَلَا بِلْ نورماند!»

ولما غادرتها انحنى لي ابن عمها ملوحًا بقبعته في دائرة واسعة.

## ٣

تبين أن أختي لم تعد إليها نفسها إلى حد يسمح بأن تغادر الهافر على قطار العصر، فلما كان الغسق ألفيت نفسي في فسحة من الوقت، وأن في وسعي أن أزور فندق «ألا بل نورماند.» ويجب أن أعترف أني قضيت وقتًا طويلًا أفكر فيما عسى أن يكون هذا القريب الرَّذْل لصديقتي الجميلة قد أفضى إليها به من أخبار السوء. وكان «ألا بل نورماند» خانًا صغيرًا في سكة ظليلة مريبة، لا يرتاح المرء حين يتصور أن الآنسة سبنسر لا بد أن تكون قد صادفت فيها كثيرًا من «اللون المحلي»، وكان هناك — في الخان — فناء ضيق يتخذ للسمر، وسلم إلى غرف النوم، دَرَجه على ظاهر الحائط، ونافورة صغيرة يقطر منها الماء وفي وسطها تمثال من الجص، وغلام يلبس طاقية بيضاء ويلف وسطه بفوطة، ينظف بعض الأواني النحاسية في مدخل المطبخ الظاهر، وربة الفندق وهي سيدة ثرثارة، في شفوف نظيفة، ترتب الكمثرى والعنب على هيئة الهرم في طبق قرمزي. فأجلت

عيني في المكان فرأيت كارولين سبنسر على دكة خضراء، خارج باب مفتوح كتب عليه: «حجرة الطعام»، وما كادت عيني تأخذها حتى تبينت أن شيئًا حدث بعد أن تركتها في الصباح؛ فقد كانت مضطجعة على الدكة، ويداها متشابكتان في حجرها، وعينها على ربة الخان في الناحية الأخرى من ساحة البيت وهي ترتب الكمثرى.

ولكني أدركت أيضًا أنها لم تكن تفكر في الكمثرى، وإنما كانت تشخص وهي ذاهلة عما حولها، مفكرة في خلافه، ودنوت منها فتبينت أنها حديثة عهد بالبكاء. وقعدت على الدكة إلى جانبها قبل أن تراني، فلما أبصرتني لم تزد على أن تلتفت بلا دهشة، وأن تريح عينها على وجهي. ولا بد أن ما وقع كان غاية في السوء، فقد تغيرت جدًّا.

ولم أتوان في مصارحتها برأيي فقلت: «إن ابن عمك قد أبلغك خبرًا سيئًا فإني أراك في كرب شديد.»

فلبثت لحظة لا تقول شيئًا، وخيل إليَّ أنها تخشى أن تتكلم لأن الدموع تتحير في عينيها. ولكني ما لبثت أن تبينت أنها أراقت كل عبرة في الفترة الوجيزة التي غبت عنها فيها، وأنها استرجعت، واستردت جلدها وسكينتها.

وقالــت أخــيرًا: «إن ابــن عمــي المســكين مكــروب، وقــد كان مــا أبلغنيــه ســيئًا.» وتــرددت قليــلًا ثــم قالــت: «كانــت حاجتــه شــديدة إلى المــال.»

فقلت: «تعنين حاجته إلى مالك؟»

قالــت: «إلى أي مــال يمكــن أن يحصــل عليــه، بطريقــة شريفــة! وكان مــالي كل مالــه إلى وســيلة.»

فسألتها: «وأخذ ما معك؟»

فــترددت مــرة أخــرى، وكانــت عينهــا تتوســل إليَّ وتــضرع، ثــم قالــت: «أعطيتــه مــا عنــدي.»

ومــا زلــت أذكــر نــبرة صوتهــا وهــي تنطــق بهــذه الكلــمات، ومــا فتئــت أعدهــا أشــبه مــا ســمعت، بأصــوات الملائكــة، ولكنــي حــين ســكت أذني هــذه الألفــاظ انتفضــت قائــمًا كأنــما أصابتنــي مســاءة شــخصية وقلــت: «يــا لله! هــل تســمين هــذا حصــولًا عــلى المــال بوســيلة شريفــة؟»

وكان هــذا شــططًا مني، فقــد اتقــد محياهــا وقالــت: «دع الــكلام في هــذا؟»

فقلت وأنا أقعد ثانية: «بل يجب أن نتكلم في هذا! إني صديقك، ويخيل إليَّ أن بك حاجة إلى صديق. فما خطب ابن عمك؟ ماذا دهاه؟»

قالت: «إنه مدين.»

قلت: «لا شك، ولكن ماذا يجعل من حقه أن تؤدي عنه دينه؟»

قالت: «قص علي قصته كلها، وأنا آسفة جدًّا له.»

قلت: «وأنا مثلك، ولكني أرجو أن يردّ إليك مالك.»

قالت: «لا شك في ذلك ... متى وسعه أن يفعل.»

فسألتها: «ومتى يكون هذا؟»

قالت: «بعد أن يُتم رسم الصورة العظيمة التي يعمل فيها الآن.»

فصحت: «يا سيدتي العزيزة، لعنة الله على صورته العظيمة! أين ابن العم السادر هذا؟»

فترددت ترددًا واضحًا ثم قالت: «يتعشى.»

فتلفت ونظرت من الباب المفتوح في «حجرة الطعام»، فأبصرت ذلك الشاب الذكي، طالب الفنون في باريس، وموضع عطف الآنسة سبنسر، قاعدًا إلى طرف مائدة طويلة. وكان مقبلًا على الطعام فلم يرني في بادئ الأمر، ولكنه — وهو يضع على المائدة قدحًا أفرغ ما كان فيه من النبيذ في جوفه — لاحظ أني أراقبه. فتوقف عن الأكل، وأمال رأسه إلى ناحية، ورشقني بلحظه كما أرشقه، وفكاه يتحركان ببطء. ثم مرت بنا ربة الخان وعلى يديها طبق الكمثرى.

فقلت: «وهذه الفاكهة اللذيذة له؟»

فنظرت إلى الطبق برقة وقالت: «إنهم يحسنون تقديم ما عندهم.»

فسخطت وأحسست أنه لم تبق لي حيلة، وقلت: «تعالي، تعالي! هل توافقين على أن يأخذ منك هذا الشاب الطويل القوي مالك؟»

فحولت وجهها عني، وكان من الواضح أني أؤلمها. وخامرني اليأس، فما من شك في أن هذا الشاب الطويل القوي «يعنيها.»

وقلت: «اغفري لي أن أتكلم عنه بلا كلفة. ولكنك أسخى يدًا مما ينبغي أن تكوني، وهو أقل تعففًا مما يجب. لقد جرّ على نفسه الدين، فحقيق به أن يؤديه ويرده بنفسه ومن موارده.»

فقالت: «لقد كان أحمق. أعرف ذلك، فقد قص عليّ كل شيء. وطال حديثنا في هذا صباح اليوم. وقد قصد إليّ في حاجته. فقد وقّع سندات بمبالغ جسيمة.»

قلت: «ما أعظم حماقته!»

قالت: «إنه يعاني همًّا ثقيلًا. وليس الأمر بقاصر عليه وحده، فإن هناك أيضًا زوجته المسكينة.»

قلت: «آه! أَوَله زوجة مسكينة؟»

قالت: «لم أكن أعرف هذا حتى أقرَّ لي به. تزوجها منذ سنتين سرًّا.»

وتلفتت كارولين سبنسر حولها كأنما كانت تخشى أن يسترق السمع أحد، ثم قالت برقة، وبنبرة مؤثرة: «لقد كانت كونتيسة.»

فسألتها: «أواثقة أنت من ذلك؟»

قالت: «لقد كتبت إليَّ رسالة ما أجملها!»

قلت: «تطلب منك فيها قرضًا حسنًا؟»

قالت: «بل تلتمس الثقة والعطف، فقد حرمها أبوها حقوقها. وقد خبرني ابن عمي بقصتها، وفصلتها هي لي في رسالتها. إنها أشبه بالقصص القديمة. فقد رفض أبوها أن يوافق على هذا الزواج، ولما عرف أنها خالفت أمه سرًّا رمى بها. الحقيقة أنها حادثة مؤثرة. وأسرتها أعرق الأسر في مقاطعة بروفنس.»

وكنت أنظر وأصغي وأنا أتعجب. وبدا لي أن هذه المسكينة تجد لذة حقيقية في هذه الرواية التي تدور وقائعها على كونتيسة منبوذة يتزوجها ابن عمها، وقد بلغ من استغراق هذه الرواية لها أن صرفتها عن التدبر في أمرها وفيما يجره عليها ضياع مالها.

وقلت: «يا سيدتي العزيزة، هل تريدين أن تخربي في سبيل الخيال؟»

قالت: «لن أخرب! وسأعود بعد قليل لأقيم معهما. فإن الكونتيسة تلح في ذلك وتصر عليه.»

فسألت: «تعودين؟ هل تعنين أنك راجعة إلى بلادك؟»

فغضت طرفها هنيهة، ثم قالت وهي تجاهد أن تخفي اضطراب صوتها: «ليس معي مال للسياحة.»

قلت: «أَوَأعطيته كل ما معك؟»

قالت: «احتفظت بما يكفي للإياب.»

فتوجعت من الغيظ، وفي هذه اللحظة خرج من غرفة الطعام ابن عمها السعيد الذي استحوذ على مدخرها، وعلى يد الكونتيسة أيضًا! ووقف لحظة على العتبة، يقشر كمثراة، ثم دسها في فمه، وتركها فيه ملتذًّا بها، وجعل ينظر إلينا وساقاه متباعدتان، ويداه في جيبي سترته. فنهضت الآنسة سبنسر، ورمت إليه نظرة لم تفتني، واشية بالاستسلام والافتتان، بل بالنشوة. وقد كان هذا الشاب قبيحًا، وسوقيًّا، ودعيًّا خائنًا، في رأيي، ولكنه استطاع أن يخلب لبها ويسحر خيالها. وقد كان حنقي عليه شديدًا، وتقززي منه عظيمًا، ولكنه لم يكن لي حق في الدخول في الأمر، وعلى أنه لم يغب عني أن الدخول في هذا عبث لا طائل تحته.

ولـوَّح الشـاب بيـده تلويحًـا مسرحيًّـا وقـال: «سـاحة جميلـة. ومـكان طيـب. هـذه الآجـرة لونهـا حسـن. وهـذا السـلم الملتـوي أيضًـا!»

فنفـد صـبري، ولم تعـد لي طاقـة عـلى الاحتـمال، ومـددت يـدي إلى كارولـين سـبنسر مـن غـير أن أرد عـلى ابـن عمهـا، فنظـرت إليّ بوجههـا الدقيـق وعينيهـا الواسـعتين وبـدت لي أسـنانها، كأنـما أرادت أن تبتسـم وقالـت: «لا تأسـف مـن أجـلي، فـإني واثقـة أني سـأرى شـيئًا مـن هـذه القـارة العتيقـة يومًـا مـا.»

فقلـت لهـا إني لا أودعهـا، وإني سـأعود إليهـا في صبـاح الغـد. وكان ابـن عمهـا قـد لبـس قبعتـه العريضـة، فنزعهـا ولـوَّح لي بهـا عـلى سـبيل التحيـة، فانصرفـت.

ورجعـت في صبـاح اليـوم التـالي إلى الخـان حيـث التقيـت بربتـه، وكانـت أقـل عنايـة بثيابهـا ممـا كانـت في المسـاء، فلـما سـألتها عـن الآنسـة سـبنسر قالـت: «سـافرت يـا سـيدي. غادرتنـا في السـاعة العـاشرة البارحـة مع ... مع ... إنـه ليـس زوجهـا، هـه؟ عـلى كل حـال مـع السـيد ... وذهبـا إلى الباخـرة الأمريكيـة.»

فانصرفـت. فيـا لهـا مـن مسـكينة! لم تقـض في أوروبـا إلا حـوالي ثـلاث عـشرة سـاعة!

# ٤

وكنت أسعد حظًّا منها فقضيت في أوروبا حوالي خمس سنوات. وفي هذه المدة فقدت صديقي لاتوش، فقد أصيب بحمى الملاريا أثناء رحلة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فقضى نحبه. وكان أول ما صنعت بعد عودتي إلى أمريكا أن قصدت إلى بلدة «جريمونتر» لأعزي أمه المسكينة، وكانت شديدة الحزن، فجلست معها الصباح كله (وكنت قد وصلت في ساعة متأخرة من الليلة السابقة) أصغي لحديثها الباكي، وأتغنى بسجايا صديقي. ولم يكن لنا كلام في غير ذلك، ولم يقطع حديثنا إلا وصول سيدة صغيرة خفيفة تسوق مركبتها، وقد رأيتها ترمي الأعنة على ظهر الجواد بمثل سرعة النائم أفزعه شيء فرمى الغطاء ونهض. ووثبت من المركبة، ودخلت الغرفة وثبًا من فرط النشاط في حركتها والخفة فيها. وعرفت أنها زوجة القسيس، وأنها «راوية» البلدة، وكان يبدو عليها أن لديها نخبة متخيرة من الأحاديث تتلهف على الإفضاء بها، وكنت على يقين من هذا، كيقيني من أن السيدة لاتوش لا يمنعها جزعها على وحيدها وثكلها له أن تصغي إلى صاحبتها. ورأيت أن الانصراف أكيس فقلت: إني سأذهب لأتمشى قبل الغداء، وسألت قبل الخروج: «وعلى فكرة، إذا استطعت أن تدليني على بيت الآنسة سبنسر، ذهبت إليها.»

فـردت زوجـة القسـيس وأخبرتنـي أن الآنسـة سـبنسر تسـكن في البيـت الرابـع بعـد الكنيسـة، وهـي عـلى اليمـين، وفـوق بابهـا طَنَـف محمـول عـلى عمودـيـن، تـراه هـي أشـبه بإطـار السريـر.

وقالـت السـيدة لاتـوش: «نعـم، اذهـب وزر كارولـين المسـكينة، فسـيرد إليهـا نفسـها أن تـرى وجهًـا غريبًـا.»

وقالـت زوجـة القسـيس: «أحسـبها رأت فـوق الكفايـة مـن الوجـوه الغريبـة!»

فأصلحـت السـيدة لاتـوش العبـارة وقالـت: «إنـما أعنـي أن تـرى زائـرًا.»

فعـادت صاحبتهـا تقـول: «وأحسـبها شـبعت مـن الـزوار! ولكنـك أنـت لا تنـوي أن تبقـى عـشر سـنين؟»

فقلت وأنا متحير: «أَوَعندها زائر من هذا الضرب؟»

قالـت: «سـترى ضربـه. ومـن السـهل أن تـرى زائرتهـا، فإنهـا تجلـس عـادة في السـاحة المقدمـة أمـام البيـت، وعليـك أن تكـون لبقًـا وشـديد الحـذر في كلامـك، وتـوخ الأدب عـلى الخصـوص.»

فقلت: «آه، حساسة جدًّا، أليست كذلك؟»

فوثبت زوجة القسيس إلى قدميها، وانحنت لي، انحناء سخر وتهكم، وقالت: «هي كما تقول، من فضلك، فإنها كونتيسة!»

ونطقت اللفظ بلهجة لاذعة، حتى لخيل إليّ أنها تضحك ساخرة، في وجه الكونتيسة، فوقفت لحظة أحدّق، وأتعجب، وأتذكر.

ثم قلت: «أوه ... سأكون مؤدبًا جدًّا.» وتناولت قبعتي وعصاي، وانصرفت.

ولم أجد مشقة في الاهتداء إلى بيت الآنسة سبنسر، فقد عرفت الكنيسة بلا جهد، وكان البيت الصغير الحائل البياض، ذو المدخنة الكبرى والنباتات الزاحفة، أخلق مسكن بعانس مقتصدة لها ذوق وخيال.

وتباطأت لما دنوت من البيت، فقد سمعت أن بعضهم لا يفتأ جالسًا في الساحة المقدمة، فأحببت أن أستطلع وأتبين أولًا، ورفعت رأسي محاذرًا ونظرت من فوق السور الأبيض الواطئ الذي يفصل الحديقة الصغيرة عن الطريق، ولكنني لم أر كونتيسة أو سواها، وكان هناك ممر مستقيم يؤدي إلى عتبة الباب وعلى الجانبين رقعة صغيرة من الحشيش حولها إطار من شجيرات العنب الجافة وفي وسط الرقعة

— في كلا الجانبين — شجرة كبيرة، حافلة بمظاهر الشظف والقفول.٥ وتحت إحدى الشجرتين منضدة صغيرة، وكرسيان. وعلى المنضدة شقة من النسيج لم ينته العمل فيها، وكتابان أو ثلاثة مجلدة بورق زاهي الألوان. فدخلت من البوابة، ووقفت في منتصف الممر، ونقضت المكان عسى أن أبصر ما يدل على حال ساكنته التي ترددتُ فجأة، بلا داع أعرفه، أن أقدم نفسي إليها. ثم خطر لي أن البيت رث، وأنه ليس من حقي أن أتطفل، فقد كان الشوق إلى استطلاع طلعها هو كل باعثي، ولكن هذه الرغبة بدت لي الآن غير لائقة. وبينما كنت مترددًا ظهرت سيدة في مدخل الباب ووقفت تنظر إليّ، فعرفت أنها كارولين سبنسر، ولكنها هي كانت تنظر إليّ كأنها ما رأتني قط من قبل، فتقدمت بتؤدة وإشفاق إلى الباب، ثم قلت وأنا أتكلف اللهجة الودية: «لقد انتظرت هناك عودتك ولكنك لم تجيئي أبدًا.»

فقالت برقة، وقد زادت عيناها اتساعًا: «انتظرت أين يا سيدي؟»

لقد كبرت، وظهر عليها التعب، والتلف.

وقلت: «انتظرت في الهافر.»

فحدّقت فيّ، ثم عرفتني، وتبسمت، واحمر وجهها، وضمت

راحتيها وقالت: «الآن تذكرتك، وتذكرت ذلك اليوم.» ولكنها ظلت واقفة، لا تخرج إليّ، ولا تدعوني أن أدخل، وكانت مرتبكة.

وكنت أنا أيضًا مرتبكًا. فغرزت عصاي في الأرض وقلت: «ظللت أترقب مجيئك عامًا بعد عام.»

فهمست: «أتعني في أوروبا؟»

قلت: «في أوروبا، طبعًا. أما هنا فإن من السهل أن يهتدي إليك المرء، على ما يظهر.»

فأراحت رأسها على جانب الباب غير المدهون، ونظرت إليّ لحظة بلا كلام، وخيل إليّ، أني اجتليت في وجهها ما يرتسم على وجه المرأة حين تشفى على البكاء، وإذا بها فجأة تخطو إلى الحجرة أمام العتبة، وتغلق الباب وراءها، ثم بدأت تتبسم، وقد بقيت أسنانها كأجمل ما عهدتها، ولكنه كان هناك دموع أيضًا، ولا شك.

وسألت بصوت كالهمس: «أَوَكنت هناك طول الوقت منذ ذلك اليوم؟»

قلت: «عدت منذ ثلاثة أسابيع، وأنت؟ ألم تذهبي قط؟»

وكانت تنظر إليّ، وعلى ثغرها ابتسامتها الثابتة، ثم مدت

يدها من خلفها وفتحت الباب وقالت: «إني أهمل واجب الضيافة، ألا تدخل؟»

قلت: «أخشى الإثقال عليك وإزعاجك.»

قالت: «كلا» وهي تبتسم، ودفعت الباب، وأومأت إليّ أن أدخل.

فدخلت وتبعتها، فمضت بي إلى غرفة صغيرة على يسار الردهة الضيقة، أحسبها غرفتها، وإن كانت في الناحية الخلفية، ومررنا بباب غرفة أخرى، موصد، تطل، فيما قدرت، على رقعة الحشيش والشجرة، وكانت الغرفة التي دخلناها تشرف على خص من الخشب، ودجاجتين تصيحان، وكانت الغرفة جميلة جدًّا، ولكن ما فيها مما يكسبها معنى الأناقة والرشاقة، ينبئ بشدة التدبير ودقة الاقتصاد، وقد زاد هذا في حسنها، فما رأيت من قبل أثاثًا باهتًا، وصورًا قديمة في إطارات من أوراق الخريف المموهة، مرتبة على خير من هذا النظام أو آنق وأحلى. وقعدت الآنسة سبنسر على حرف الأريكة، ويداها متشابكتان في حجرها. وكانت تبدو أسن بعشر سنين، ولو قلت إنها وسيمة لكان هذا القول الآن غير سائغ، ولكنها كانت في عيني وسيمة، أو على الأقل لهيئتها وقع في النفس. وكانت مضطربة، فحاولت أن أتكلف

الإغضاء ولكني قلت لها فجأة وبلا أدنى تدبر، وبدافع لا يقاوم من ذكرى صداقتنا في الهافر: «إني أثقل عليك، فإنك مهمومة.»

فرفعت يديها إلى وجهها، وأبقته مدفونًا فيهما لحظة، ثم ردتهما وقالت: «ذاك لأنك تذكرني ...»

قلت: «أتعنين أني أذكرك بذلك اليوم المشئوم في الهافر؟»

فهزت رأسها وقالت: «لم يكن مشئومًا؛ كان حسنًا.»

فقلت: «لم أُصدم قط كما صُدمت ساعة ذهبت إلى الخان في صبيحة اليوم التالي لأسأل عنك فإذا بك قد سافرت.»

فلبثت قليلًا لا ترد، ثم قالت: «أرجو أن تعفيني من الكلام في هذا.»

فسألتها: «هل عدت إلى هنا مباشرة؟»

قالت: «عدت إلى هذه البلدة بعد ثلاثين يومًا ليس إلا من سفري منها.»

– «وبقيت هنا بعد ذلك دائما؟»

فقالت برقة: «نعم.»

– «ومتى تذهبين إلى أوروبا كرة أخرى؟»

وكان السؤال عن هذا لا يخلو من قسوة وإيلام، ولكن طراوة استسلامها استفزتني، وأغرتني بأن أنتزع منها عبارة تدل على الملل والتبرم.

فصوبت عينها إلى دائرة ضيقة من نور الشمس على السجادة، ثم نهضت وأرخت الشباك قليلًا لترد هذا النور، وقالت، بلهجتها اللينة، ردًّا على سؤالي: «لن أذهب أبدًا.»

– «عسى أن يكون ابن عمك قد رد إليك مالك؟»

فحولت وجهها عني وهي تقول: «لست أبالي هذا الآن.»

– «ألا تحفلين بمالك؟»

– «للسفر إلى أوروبا.»

– «أتعنين أنك لن تذهبي ولو قدرت على السفر؟»

فقالت: «لا أقدر — لا أقدر — انتهى الأمر ... ولست أفكر في هذا أبدًا.»

فقلت: «إذن لم يرد إليك مالك؟»

فبدأت تقول: «أرجو ... أرجو ...»

ثم أمسكت، وكانت تنظر إلى الباب، فقد تأدى إلينا من ورائه حفيف ثوب، ووقع قدم.

ونظرت مثلها إلى الباب، وكان مفتوحًا؛ فظهرت فيه سيدة أخرى على عتبته، وجاء وراءها شاب، وأحدّت السيدة النظر إليّ جدًّا، وطال لحظها حتى وسعني أن أنقش صورتها على لوح صدري، ثم التفتت إلى كارولين سبنسر، وقالت بنبرة أجنبية واضحة: «اغتفري لي تطفلي، لم أكن أعرف أن معك أحدًا؛ فقد دخل السيد في سكون تام.»

وردت إليّ لحظها مرة أخرى.

وكانت غريبة حقًّا. ومع ذلك كان أول ما وقع في نفسي أني

رأيتها من قبل، ثم أدركت أني إنما رأيت سيدات يشبهنها، ولكني رأيتهن بعيدًا جدًّا من جريمونتر، فأحدثت لي رؤيتها هنا إحساسًا غريبًا، فإلى أين يحملني مرآها؟ إلى باب مفتوح على غرفة مقدمة قذرة، وإلى سيدة تميل على درابزين وعلى ذراعها مشملة باهتة الألوان، وهي تصيح بالخادمة أن تصعد إليها بالقهوة.

وكان ضيفة الآنسة سبنسر سيدة ضخمة، جاوزت ميعة الشباب، ووجهها السمين في مثل صفرة الموت، وشعرها مسرح إلى الخلف على الطريقة الصينية، وعينها صغيرة، ولكن نظرتها حادة نافذة، ولها ما يسميه الفرنسيون ابتسامة مرضية، وكانت ترتدي طيلسانًا قديمًا قرمزيًّا من الكشمير موشى بنقوش بيض. وكانت — كالصورة التي رفعتها ذاكرتي لعيني — تضم طرفيه أمامها بذراع عارية مستديرة، ويد بضة كثيرة الحطاط.

وقالت للآنسة سبنسر: «إنما جئت لأذكرك بقهوتي، فإني أرجو أن ترسل إليّ في الحديقة تحت الشجرة الصغيرة.»

وكان الشاب الذي خلفها قد دخل الغرفة ووقف ينظر إليّ، مثلها، وهو شاب جميل المحيا، وعليه سيما الريفي المتأنق، وله أنف دقيق معتدل القصبة، وذقن صغيرة حادة، وقدمان

لم أر أصغر منهما أو أدق، وكان ينظر إليّ كالأبله وفمه مفتوح.

وقالت الآنسة سبنسر وعلى خديها جمرتان طافئتان: «ستجيئك القهوة.»

وقالت السيدة ذات الطيلسان: «حسن» والتفتت إلى الشاب وقالت: «هات كتابك.»

فأدار عينه في الغرفة وقال بصوت من لا حيلة له: «أتعنين أجروميتي؟»

وكانت السيدة ترشقني بلحظها متعجبة، وتضم طرفي كسائها بذراعها البيضاء وتقول: «هات كتابك يا صديقي.»

فقال وهو يرميني بعينه: «هل تعنين ديوان الشعر؟»

فقالت صاحبته: «لا بأس! دع الكلام، ولنتمش اليوم. وستتحدث. ولكنه لا ينبغي لنا أن نقطع عليهما حديثهما، تعال.» واستدارت وهي تقول للآنسة سبنسر على سبيل التذكير: «تحت الشجرة الصغيرة.»

ورمت إليّ ما يشبه التحية، وكلمتي «أيها السيد» وانصرفت،

والشـاب في إثرهـا.

ووقفت كارولين سبنسر وعينها على الأرض.

فسألتها: «من هذه؟»

– «الكونتيسة، زوجة ابن عمي.»

– «ومن هذا الشاب؟»

– «تلميذها، المستر مِكستَر.»

فأغـراني وصـف العلاقـة بـين هذيـن الشـخصين اللذيـن غـادرا الغرفـة، بالضحـك، فنظـرت إليّ الآنسـة سـبنسر بجـد وقالـت: «إنهـا تـدرس اللغـة الفرنسـية، فقـد فقـدت ثروتهـا.»

قلـت: «يظهـر أنهـا مصممـة عـلى ألا تكـون حميلـة عـلى أحـد، وهـذا هـو الواجـب.»

فصوبـت كارولـين عينهـا إلى الأرض مـرة أخـرى وقالـت: «يجب أن أذهـب لأعـد لهـا القهوة.»

فسألتها: «هل لها تلاميذ كثيرون؟»

قالت: «المستر مكستر تلميذها الوحيد، وهي تهبه وقتها كله.»

ولم أستطع أن أضحك من هذا، وإن كنت قد أحسست بالاستفزاز، فقد كانت الآنسة سبنسر جادة جدًّا، وما لبثت أن قالت ببساطة: «إنه يدفع أجرًا حسنًا، فهو غني جدًّا، ورقيق وعطوف جدًّا، يخرج بها في مركبته للتنزه.»

وهمت بأن تمضي فسألتها: «أذاهبة أنت لإعداد قهوة الكونتيسة؟»

– «إذا أذنت لي ... بضع دقائق.»

– «أليس هنا أحد غيرك يستطيع أن يعدّها لها؟»

فرمت إليّ نظرة عذبة السكون وقالت: «ليس لي خدم.»

فسألتها: «ألا تستطيع أن تخدم نفسها؟»

– «لم تتعود هذا.»

فقلت بأرق لهجة أقدر عليها: «مفهوم. ولكن قبل أن تذهبي، خبريني من هذه السيدة؟»

– «لقد أخبرتك من قبل، في ذلك اليوم. زوجة ابن عمي الذي رأيته.»

– «السيدة التي نبذتها أسرتها على إثر زواجها؟»

– «نعم. ولم ترها أسرتها بعد ذلك أبدًا. نبذتها كل النبذ.»

– «وأين زوجها؟»

– «مات»

– «وأين مالك؟»

فانتفضت المسكينة من حز الألم، فقد كانت أسئلتي واضحة السياق، جلية الغاية. وقالت بضجر وتعب: «لا أدري.»

وألححت في خطتي فسألتها: «وبعد أن مات زوجها جاءت السيدة إلى هنا؟»

– «نعم، جاءت ذات يوم.»

– «وكم لها هنا؟»

– «سنتان.»

– «وبقيت مذ جاءت؟»

– «طول الوقت.»

– «وكيف رضاها عن مقامها هنا؟»

– «ليست راضية.»

– «وكيف رضاك أنت؟»

فأخفت وجهها بين كفيها لحظة، كما فعلت قبل عشر دقائق، ثم خرجت مسرعة لتعد قهوة الكونتيسة.

وبقيت وحدي في الغرفة، فقد أردت أن أرى فوق ما رأيت، وأن أعرف أكثر مما عرفت. وبعد خمس دقائق أقبل الشاب الذي قالت الآنسة سبنسر إنه تلميذ الكونتيسة، ووقف

ينظـر إليّ وشـفتاه متباعدتـان، فلـم يخالجنـي شـك في أنـه شـاب غريـر جـدًّا.

وأخيرًا قال: «إنها تريد أن تعلم هل تحب أن تخرج إليها؟»

– «من هو الذي يريد أن يعلم؟»

– «الكونتيسة ... تلك السيدة الفرنسية.»

– «هل طلبت منك أن تجيئها بي؟»

فقال بضعف وهو يتأمل قامتي الطويلة: «نعم يا سيدي.»

فخرجـت معـه فألفينـا الكونتيسـة جالسـة في ظـل شـجرة مـن الأشـجار الصغـيرة المغروسـة أمـام البيـت. وكانـت تعمـل بالإبـرة في رقعـة النسـيج التـي كانـت عـلى المنضـدة، وتلطفـت فأومـأت إليّ أن أقعـد عـلى الكـرسي إلى جانبهـا، ففعلـت. وتلفـت المسـتر مكسـتر ثـم قعـد عـلى الحشـيش عنـد قدميهـا. ورفـع عينـه، وراح ينقلهـا مـن وجـه الكونتيسـة إلى وجهـي.

وقالـت الكونتيسـة وهـي ترشـقني بعينيهـا الصغيرتـين البراقتين: «إني واثقـة أنـك تتكلـم الفرنسـية.»

فقلت بالفرنسية: «نعم يا سيدتي إلى حد ما.»

فصاحت: «أرأيت! لقد فطنت إلى ذلك من أول نظرة؛ لا شك أنك أقمت في بلادي.»

– «زمنًا طويلا.»

– «وتعرف باريس؟»

«أتم معرفة يا سيدتي.» وتعمدت أن أنظر إليها، في عينيها.

فما لبثت أن حولت عينيها وصوبتهما إلى تلميذها المستر مكستر، وسألته: «في أي شيء كنا نتكلم؟»

فرفع ركبتيه، وقلع بعض الحشيش، واضطرم وجهه وهو يقول: «إنكما تتكلمان بالفرنسية.»

فقالت الكونتيسة: «لي عشرة أشهر وأنا أدرس له. لا تخف أن تقول إنه أبله، فلن يفهم.»

فقلت: «أرجو أن يكون تلاميذك الآخرون أبعث على رضاك.»

– «ليس لي تلميذ غيره، فإنهم لا يعرفون ما اللغة الفرنسية، ولا يحفلونها هنا ولا يريدون أن يعرفوها، ففي مقدورك أن تتصور سروري بلقاء من يتكلمها مثلك.»

فأجبت بأن سروري ليس دون سرورها، وأقبلت على النسيج تعمل فيه إبرتها وخنصرها مثني، وكانت كل بضع دقائق تدني عينها مما تصنع على نحو ما يفعل قصيرو النظر. فوقع في نفسي منها أنها شخص بغيض، فقد كانت خشنة غير مصقولة، ومتكلفة خائنة، وليست كونتيسة ولا شيئًا من هذا القبيل، كما أني أنا لست خليفة.

وقالت: «حدثني عن باريس. فإن ذكر اسمها بمجرده يحرك نفسي. كم لك مذ تركتها؟»

– «شهران.»

– «ما أسعدك! حدثني عنها. قل لي ماذا يصنعون هناك؟ إيه ما أشوقني إلى ساعة واحدة في البوليفار؟»

– «إنهم يصنعون ما لا يزالون يصنعون، يتسلون على قدر ما يسعهم!»

فتنهدت وقالت: «في المسارح؟ وفي المراقص؟ وحول المناضد الصغيرة أمام الأبواب؟ يا لها من حياة! إنك تعرف أني باريسية من رأسي إلى قدمي.»

فتشجعت وقلت: «إذن كانت الآنسة سبنسر مخطئة حين قالت لي: إنك من بروفنس.»

فحدقت أمامها لحظة ثم دست أنفها فيما تنسج، وقالت: «أنا من بروفنس مولدًا، ولكني باريسية هوى.»

فقلت: «وتجربة أيضًا فيما أظن؟»

فتفرست هنيهة في وجهي بعينيها الحادتين وقالت: «التجربة! في وسعي أن أتحدث عن التجربة إذا شئت، فما كنت أتوقع مثلًا أن تدخر لي التجربة هذا»، وأشارت بكوعها العاري وبهزة من رأسها إشارة تشمل كل ما يحيط بها البيت الصغير، والشجرة، والسياج، والمستر مكستر أيضًا.

فقلت بابتسامة: «إنك في منفى.»

– «يمكنك أن تتصور أي منفى هو! السنتان اللتان قضيتهما هنا عشتهما ساعة فساعة، والمرء يعتاد الأشياء والحالات،

ويخيل إِليّ أحيانًا أني ألفت هذا. ولكن هناك أشياء ولا تزال تبدأ من جديد، قهوتي مثلًا.»

فسألتها: «أتشربين القهوة دائمًا في هذه الساعة؟»

فرمت رأسها إلى الوراء وراحت تفحصني وتزنني.

وقالت: «في أية ساعة تفضل أن أشرب قهوتي؟ إنه لا بد لي من فنجان قهوة بعد الإفطار.»

– «آه! الإفطار في هذه الساعة؟»

– «في منتصف النهار، هنا يفطرون بعد الساعة السابعة بربع ساعة ... وقت ظريف!»

فقلت بلهجة العطف: «ولكنك كنت تحدثينني عن قهوتك؟»

فقالت: «إنها (تعني كارولين) لا تؤمن بها، ولا تستطيع أن تفهمها. هي فتاة رائعة، ولكن فنجان القهوة وعليها قطرة من الكونياك، في هذه الساعة، هذا يتجاوز نطاق فهمها وإدراكها، فأنا مضطرة أن أنبهها كل يوم، وأنت ترى ما

يستغرقه من الوقت صنع هذه القهوة، ووصولها إليّ، وعندما تصل ... آه يا سيدي، لا تلمني إذا لم أقدم لك شيئًا منها، فإني أعرف أنك شربتها في البوليفار ...»

فحز في نفسي هذا التحقير لمروءة كارولين سبنسر وكرمها، ولكني اتقيت أن أقول شيئًا اجتنابًا لإساءة الأدب، ونظرت إلى المستر مكستر الذي طوق ركبتيه بساعديه، وقعد يرقب حركات الكونتيسة وهو مفتون، ولاحظت هي أني أتأمله، وألقت إليّ نظرة وابتسامة تفسيرية جريئة، وقالت: «إنك ترى أنه يعبدني.» ودست أنفها ثانية فيما تطرز، فأعربت لها عن تصديقي لذلك، واقتناعي به، ومضت في كلامها فقالت: «إنه يحلم بأن يكون عشيقي. نعم، هذا حلمه. وقد قرأ رواية فرنسية ... من عمره ستة شهور ... وما زال منذ ذلك الوقت، يتوهم أنه هو البطل وأنا البطلة.»

وكان من الجلي أن المستر مكستر لم يخطر له أنه موضوع كلامها، فقد كان ذاهلًا عن ذلك بما هو فيه من نشوة التأمل. وفي هذه اللحظة برزت كارولين سبنسر من البيت تحمل إبريق القهوة على صحن صغير، ولاحظت أنها وهي تقطع المسافة من الباب إلى المنضدة، ألقت إليّ نظرة خاطفة، نظرة توسل غامض. ولم أدر ماذا تعني بها، وحسبت أن المراد أنها اشتاقت، وهي واجفة الفؤاد، أن تعرف رأي خبير

بالحياة عاش في فرنسا مثلي، في الكونتيسة، ولم أسترح إلى هذا الظن، فما كان يسعني أن أقول لها إن الكونتيسة ليست على الأرجح سوى زوجة حلاق فرّت منه. وقد حاولت على العكس أن أبدي لها الاحترام والتوقير. ولكني نهضت. ولم أعد أطيق أن أبقى. وساءني أن أرى كارولين سبنسر واقفة كأنها خادمة!

وقلت للكونتيسة: «هل تتوقعين أن تبقي زمنًا آخر في جريمونتر؟»

فهزت كتفيها هزة عنيفة وقالت: «من يدري؟ ربما أقمت هنا سنين، وسنين. متى كان المرء بائسًا ...» والتفتت إلى الآنسة سبنسر وقالت: «يا عزيزتي لقد نسيت الكونياك.»

واستبقيت كارولين سبنسر حين همت، بعد أن ألقت نظرة صامتة على المنضدة الصغيرة، بأن تذهب لتجيء بالشراب الناقص. ومددت إليها يدي في سكون، مودعًا. وكان التعب باديًا عليها، ولكنه كان على وجهها الصغير الوديع لمحة غريبة من ذخيرة الجلد والصبر. وكبر في وهمي أن انصرافي يسرها. وكان المستر مكستر قد نهض وأقبل على إبريق القهوة يصب منه في الفنجان. وخطر لي وأنا أمر في عودتي بالكنيسة أن الآنسة سبنسر المسكينة كانت موفقة حين قالت لي في الهاتف إنها سترى «شيئًا» من أوروبا العتيقة!

# هوامش

(١) الرزان: العاقلة اللازمة لمقعدها.

(٢) ما أشرف خارجًا عن البناء.

(٣) اللبيس: ما طال لبسه فأخلق.

(٤) الحطاط: بثر صغير يظهر في الوجه ويقبح اللون ولا يقرح.

(٥) الشظف: في الشجرة أن لا تجد ريها فتخشن وتذهب ندوتها، والقفول: أن تجف الجفوف كله.

# أوسكار وايلد

## عيد ميلاد الأميرة

كان ذلك عيد ميلاد الأميرة، وكانت قد بلغت الثانية عشر، وكانت الشمس تغمر بنورها حدائق القصر.

ولم يكن لها سوى عيد ميلاد واحد، في كل عام، كغيرها من بنات الفقراء وأبنائهم، وإن كانت أميرة حقيقية، ووارثة عرش إسبانيا، فكان مما تعنى به البلاد كلها أعظم العناية أن يكون اليوم أجمل وأبهى ما يدخل في الوسع، وقد كان اليوم جميلًا حقًّا، فاعتدلت أزهار «الطوليب» الطويلة المخططة، على سوقها، كأنها صف من الجند، وشخصت إلى الورود المقابلة لها وقالت: «إننا مثلك الآن نضرة وبهجة.» وخفقت الفراشات القرمزية، وعلى أجنحتها تراب النضار،

فـوق زهـرة بعـد زهـرة. وخرجـت السـحالي الصغـيرة مـن شـقوق الجدران وراحـت تضحـي في الشـمس، وتشـقق الرمـان مـن وقـدة الحـر، وفتـح قلبـه الدامـي، حتـى الليمـون الأصفـر الـذي حفلـت بـه أفنانـه، أفـاد مـن ضـوء الشـمس لونـًا أزهـى، ونـورت شـجيرات المنوليـا، وتفتحـت أكمامهـا عـن العـاج المطـويّ، ونـشرت في الجـو عبيرهـا القـوي.

وراحـت الأمـيرة الصغـيرة تتمشـى عـلى الشرفـة مـع أترابهـا، وتلعـب معهـن لعبـة «الاسـتخفاء» حـول الزهريـات المصنوعـة مـن الحجـر، أو التماثيـل التـي نمـت عليهـا الأعشـاب. وكانـت في الأيـام العاديـة لا يـؤذن لهـا في اللعـب إلا مـع اللـواتي هـن مـن طبقتهـا، فـكان لعبهـا وحدهـا دائـمًا، ولكـن عيـد ميلادهـا كان يومـًا اسـتثنائيًّا، فأمـر الملـك أن تدعـو الأمـيرة مـن لداتهـا مـن تحـب مـن الجنسـين، ليلهـوا معهـا، وكان لهـؤلاء الأطفـال الإسـبانيين الدقـاق اللطـاف سـمت، وفيهـم رشـاقة، وهـم ينسـابون هنـا وهنـاك؛ الصبيـان بقبعاتهـم الكبـيرة المريشـة، ومعاطفهـم القصـيرة، والبنـات وهـن يمسـكن فضـل أفوافهـن المنفوشـة الموشّـاة بخيـوط الذهـب والفضـة، ويحجبـن الشـمس عـن عيونهـن بمـراوح كبـيرة سـوداء مفضضـة. ولكـن الأمـيرة كانـت أرشـقهن جميعـًا وأبرعهـن ثيابـًا عـلى مـا كان يقـضي بـه ذوق تلـك الأيـام. وكان ثوبهـا مـن الأبريسـم، وقـد وُشـي مجوله[1] وكـماه المنتفخـان بالفضـة، أمـا الصِّدار[2] فمرصـع بوصائـل مـن اللآلـئ العجيبـة، وكان عـلى رجليهـا حـذاءان

لطيفان مزدانان بوردتين كبيرتين قرمزيتين، يبدوان من تحت ذلاذل ثوبها إذ تمشي، وكانت مروحتها الكبيرة من أسلاك لؤلؤية وقرمزية الألوان، وكان شعرها كأن عليه هالة من العسجد الباهت، وكان ينسدل على جانبي محياها الدقيق الحائل اللون وفيه وردة بيضاء جميلة.

وكان الملك الحزين يشرف عليهم من نافذة في قصره، وخلفه أخوه — دون بدرو أمير أراغون، وكان الملك شديد الكراهة له — وقسيسه — رئيس محكمة التفتيش في غرناطة — وهو جالس بجانبه. وكان الملك يبدو في يومه هذا أشد حزنًا وأسى، فقد كان وهو ينظر إلى الأميرة وهي تنحني بوقار صبياني لرجال الحاشية المجتمعين، أو تضحك وتستر وجهها بالمروحة، من دوقة ألبوكيرك الصارمة الوجه، التي لا تفارق الأميرة، ينثني به الخاطر فيتذكر الملكة الشابة — أم الأميرة — التي جاءت منذ عهد قصير — هكذا كان يخيل إليه — من بلاد فرنسا المرحة، فذوى غصنها الرطيب في بلاط إسبانيا الجهم على فرط أبهته، وقضت نحبها بعد ستة شهور من ميلاد الأميرة، وقبل أن ينور شجر اللوز في البستان ويظهر بهجته وزهرته مرة ثانية، أو تُجنى ثمار الحول الثاني من شجرة التين القديمة المُعَجْرَمَة٣ التي كانت قائمة في الساحة التي يكسوها العشب الآن. وقد بلغ من عظم حبه لها أن أبى أن يدع القبر يحجبها عنه، فحنطها طبيب عربي جازاه على ذلك بالإبقاء على حياته التي كان مقضيًا عليها

لكفره وسحره، فلا يزال جثمانها يرقد على نعشه المسجف في الهيكل المبني بالرخام الأسود في القصر، مذ حمله الكهنة إليه في يوم عاصف من أيام مارس/ آذار، منذ اثنتي عشرة سنة، وفي كل شهر مرة، يتلفع الملك بملحفة سوداء، ويحمل في يده مصباحًا مخنوق الضوء ويدخل الهيكل ويركع إلى جانب الجثمان ويصيح: «يا ملكتي! يا ملكتي!» وقد يغلبه الحزن أحيانًا، فيتجاوز ما تقضي به التقاليد التي تسيطر في إسبانيا على كل عمل من أعمال الحياة، وتضع حدودًا حتى لحزن الملك، فيقبض على اليدين الصفراوين المزدانين بالحلي، وقد ذهبت بلبه حرقات الكمد، ويحاول بقبلاته الجنونية أن يرد الحياة إلى المحيا الباهت المصبوغ.

وكان يراها اليوم، مرة أخرى، كما رآها أول مرة في قصر «فينتنبلو»، وكان هو يومئذ في الخامسة عشر من عمره، وكانت هي أصغر، وقد عقد خطبتهما حينئذ السفير البابوي بحضور ملك فرنسا ورجال الحاشية أجمعين، ثم عاد إلى الإسكوريال يحمل حلقة صغيرة من شعر ذهبي، وذكرى شفتين رقيقتين تنحني بهما على يده لتلثمها، وهو يستقل المركبة، ثم كان الزواج بعد ذلك، فاحتفل به على عجل في برغوس، وهي بلدة صغيرة على الحدود بين المملكتين، ثم الموكب الفخم ساعة دخول مدريد والاحتفال المألوف في كنيسة «لا أتوشا»، والاحتفال الذي جاوز المألوف بتسليم حوالي ثلاث مائة من الكفار والملاحدة — بينهم إنجليز كثيرون — للسلطة المدنية لإحراقهم.

وكان حبه لها على التحقيق حب جنون، ومن رأي الكثيرين أنه أضر بذلك بلاده التي كانت يومئذ في حرب مع إنجلترا في سبيل الاستيلاء على العالم الجديد. وكان لا يكاد يتركها تغيب عن عينه، وفي سبيلها نسي — أو خيل إلى الناس أنه نسي — شئون الدولة الخطيرة، وأعمى الحب الجامع بصيرته — كما هو شأنه دائمًا — فعجز عن أن يرى أن المراسم الدقيقة التي أراد أن يدخل بها السرور على قلبها زادت داءها الغريب تفاقمًا، فلما ماتت ظل زمنًا ما، كالمذهوب بعقله، بل إنه ما من شك في أنه كان حقيقًا أن ينزل عن العرش، ويدخل دير غرناطة — وكان هو رئيسه الفخري — لولا أنه خشي أن يترك الأميرة الصغيرة تحت رحمة أخيه، الذي كان مشهورًا في إسبانيا بالقسوة وغلظ الكبد، والذي يزعم كثيرون أنه كان السبب في موت الملكة، فقد أهداها، على ما يقال، قفازين مسمومين لما زارت قصره في أراغون. حتى بعد أن انقضت أعوام الحداد العام الثلاثة التي أمر بها في مملكته، لم يسمح قط لوزرائه بأن يخاطبوه في عقد زواج جديد. ولما كتب إليه الإمبراطور نفسه يعرض عليه يد بنت أخيه أرشيدوقة بوهيميا الجميلة، كان جوابه لسفرائه أن قولوا لمولاكم إن ملك إسبانيا قد زُوِّج الأسى، وإنها لعروس عاقر، ولكنها أحب إليه من الجمال، وقد كلفه هذا الجواب ثمنًا غاليًا، ففقد تاجه إقليمَ البلاد الواطئة الخصيب الذي ما لبث، بإيعاز من الإمبراطور أن ثار بزعامة بعض المتهوسين من رجال الإصلاح الديني.

وتمثل لعينيه وهو يرقب الأميرة إذ تلعب في الشرفة، عهد زواجه كله بأفراحه العنيفة المتوهجة الألوان، والحرقات الكاوية التي كان بها ختام ذلك العهد، وكان في الأميرة من أمها سرعة البادرة وحدة الطباع، وهزة رأسها إذ تجنح إلى العناد، وتقويسة فمها الجميل الواشية بكبرياء النفس، وابتسامتها الخلابة إذ ترفع رأسها من حين إلى حين، وترمق النافذة، أو تمد راحتها الصغيرة لكبراء إسبانيا ليلثموها، ولكن ضحكات الأطفال العالية كانت تسك مسامع الملك، كما كان نور الشمس القاسي الوهاج يسخر من أساه، وكان يشوب هواء الصباح الصافي فيما يحس أو يتوهم، أرج بخور غريب شبيه بما يتخذه المحنطون، فدفن وجهه في يديه، فلما صعدت الأميرة طرفها كانت الأستار قد أسدلت، والملك قد دخل.

فأبدت علامة امتعاض، وهزت كتفيها. أفما كان في وسعه أن يظل معها في يوم عيدها؟ ما قيمة شئون الدولة السخيفة هذه؟ أم تراه قد ذهب إلى ذلك الهيكل القائم الذي لا تنطفئ فيه الشموع والذي لا يؤذن لها في دخوله؟ وتالله ما أحمقه إذا كان قد ذهب إلى هناك وترك هذه الشمس المشرقة وزهد في السعادة التي ينعم بها كل أحد. وستفوته مصارعة الثيران التي بدأت الأبواق تنفخ إيذانًا بها، وألعاب القراقوز وغيرها من المتع والمسرات، أَلا إن عمها ورئيس محكمة التفتيش لأرشد وأهدى سبيلًا، فقد خرجا إلى الشرفة وسرّاها

وشرحا صدرها بالتحيات والتهنئات. وهزت الأميرة رأسها مرة أخرى وتناولت يد «دون بدرو» ونزلت من السلم إلى سرادق طويل من الحرير القرمزي نصب في آخر الحديقة، وتبعها الأطفال المدعوون على ترتيب درجاتهم ومنازلهم، فأطولهم أسماء أسبقهم وأحقهم بالتقديم.

•••

وتقدم موكب من الصبيان الأشراف في أفواف موشاة، ومطارف من السندس والأبريسم لاستقبال الأميرة، وأقبل «كونت تيرا نويفا» وهو غلام بارع الحسن يناهز الرابعة عشر، ونزع قبعته برشاقة من وُلد وشب في بيوت السيادة والمجد وصحبها إلى كرسي صغير مذهب ومطعم بالعاج على منصة مرفوعة تشرف على الساحة. وانتظم الأطفال الآخرون صفوفًا حولها، وهم يهزون مراوحهم الكبيرة، ويتهامسون فيما بينهم، ووقف دون بدرو ورئيس محكمة التفتيش في المدخل يضحكان. حتى الدوقة — وهي امرأة نحيلة معروقة صارمة معارف الوجه — لم تكن كالمعهود فيها من الشراسة وسوء الخلق، فمر بوجهها المغضن طيف ابتسامة اختلجت لها شفتاها الرقيقتان الظمياوان. ٤

وكانت مصارعة الثيران الصورية بديعة جدًّا، وحدثت الأميرة نفسها أنها أمتع من تلك المصارعة الحقيقية التي حملوها إلى سيفيل لمشاهدتها لما زار دوق بارما والدها، وكان

بعـض الغلـمان يتوقصـون ويقرّبون[5] عـلى خيـول صناعيـة زاهيـة الـسرج، وبأيديهـم حـراب طويلـة محـلاة بأشرطـة مختلفـة الألـوان، وكان آخـرون منهـم يروحـون ويجيئـون وينـشرون المطـارف الأرجوانيـة أمـام الثـور، فـإذا هجـم عليهـم قفـزوا خفافـًا مـن فـوق السـور. أمـا الثـور فـكان أشـبه شيء بثـور حقيقـي وإن كان مصنوعـًا مـن أعـواد وجلـد مُصْحَـب.[6] وكان يأبـى أحيانـًا إلا أن يذهـب يعـدو حـول السـاحة مـن داخلهـا، عـلى قائمتيـه الخلفيتـين، وهـو مـا لا يحلـم ثـور حقيقـي بـأن يفعلـه. وقـد أبـلى في المصارعـة بـلاء حسـنًا حتـى لقـد كان الأطفـال ينهضـون عـن مقاعدهـم ويلوحـون بمناديلهـم المطـرزة ويصيحـون، هاتفـين بالثـور: «مرحـى يـا ثـور! مرحـى يـا ثـور» كـما يفعـل الكبـار — وأخـيرًا بعـد صراع طويـل أُرديـت فيـه خيـول صناعيـة عديـدة وترجـل فرسـانها، اسـتطاع كونـت تيـرا نويفـا (الأرض الجديـدة) أن يلقـي الثـور عـلى ركبتيـه عـلى هيئـة المتكـئ، ثـم اسـتأذن الأمـيرة في الإجهـاز عليـه، وغـرز سـيفه الخشـبي في عنـق الثـور بعنـف ففصلـه عـن سـائر الجسـد، وبـرز محيـا صغـير مـشرق هـو محيـا «دي لوريـن» ابـن السـفير الفرنـسي في مدريـد.

وأخليـت السـاحة بـين التصفيـق والصيـاح، وأخرجـت الجيـاد الصناعيـة — جرهـا اثنـان مـن الخـدم في ثيـاب صفـراء وسـوداء — وبعـد فـترة وجيـزة لعـب فيهـا فرنـسي عـلى حبـل مشـدود، ظهـر «قرقـوز» إيطـالي عـلى مـسرح صغـير أعـد لـه، وقـد كان

التمثيل جيدًا، والحركات طبيعية متقنة حتى لقد اغرورقت عين الأميرة بالدموع في ختام الفصل. بل لقد بكى بعض الأطفال، فكان لا بد من التسرية عنهم بالحلواء، حتى رئيس محكمة التفتيش نفسه قال لدون بدرو: إن مما لا يطاق أن تشقى وتتعذب بمثل هذه المصائب الكُبر أشياء مصنوعة من الخشب والشمع الملون تحركها أسلاك خفية بطريقة آلية.

وجاء بعد ذلك «حاو» أفريقي يحمل سلة واسعة روحاء[٧] مغطاة ووضعها في وسط الساحة، وأخرج من عمامته قصبة جعل يشيع فيها وينفخ، فبدأ الغطاء يتحرك وعلا صوت المزمار فأطل ثعبانان أخضران برأسيهما العجيبين اللذين يشبهان الوتد، وجعلا يرتفعان ببطء ويتمايلان على صوت الزامر تمايل النبات في الماء. غير أن الأطفال أفزعهما منظر الرأسين المنقطين واللسانين الدقيقين البارزين، وكان سرورهم أعظم لما استنبت الحاوي الأرض شجيرة برتقال منورة تتهدل أغصانها بالثمار الحقيقية. ولما أخذ مروحة ابنة المركيز ده لاس توريس فانقلبت عصفورًا أخضر يطير حول السرادق، وهو يغرد، جاوز سرورهم كل حد. وكانت الرقصة الدينية التي رقصها الغلمان الآتون من كنيسة «نويسترا سينورا دل بيلار» جميلة. ولم تكن الأميرة قد شاهدت من قبل هذا الرقص البديع الذي يجري كل عام في الربيع أمام مذبح العذراء العالي، بل إنه ما من

أحد من الأسرة المالكة في إسبانيا دخل ساراتوجا الكبيرة منذ حاول قسيس مجنون، يقال إن اليصابات ملكة إنجلترا كانت تستخدمه، أن يطعم أمير أستوريا كعكة مسمومة. لهذا لم تكن الأميرة تعرف «رقصة العذراء» — كما كانت تسمى — إلا سماعًا، لا عيانًا، والحق أنها كانت رقصة جميلة. وكان الغلمان يرتدون ثيابًا من المخمل الأبيض عتيقة الطراز، وكانت قبعاتهم المثلثة لها حافة مفضضة، وعليها ريشات كبيرة من ريش النعام، فكان بريق أرديتهم البيضاء الناصعة يزداد لمعانًا إذ يخطرون في نور الشمس، ويضاعف النصوع وجوههم السمراء وشعرهم الطويل الدجوجي. وقد سحروا النظارة بأبهتهم وسمتهم إذ يقومون بحركات الرقصة المعقدة، ورشاقة إيماءاتهم البطيئة وانحناءاتهم، فلما انتهوا من ذلك ونزعوا قبعاتهم المريشة وانحنوا بالتحية للأميرة تقبلت منهم التحية بتلطف، ونذرت فيما بينها وبين نفسها أن تهدي شمعة عظيمة لمعبد العذراء تجزية لها على ما سرتها به في يومها هذا.

ثم تقدم صف من المصريين ذوي القسامة — كما كان الغجر[٨] يسمون في ذلك الزمان — وقعدوا القرفصاء في حلقة، وأنشئوا يعزفون برقة وعذوبة على قيثاراتهم ويحركون أجسامهم على أنغامها ويغنون، وكأنما يهمسون صوتًا شجيًّا، وكانوا إذا أخذت عيونهم دون بدرو، يزلقونه بأبصارهم متسخطين متجهمين، وربما بدا على بعضهم الذعر، فقد

شنق اثنين من قبيلتهم في سوق سيفيل بدعوى أنهما من السحرة، ولكن الأميرة كانت تفتنهم وتسحر ألبابهم وهي مضطجعة ومشخصة ببصرها إليهم لا تصرفه عنهم من فوق مروحتها، وكان يقينهم وهم يلحظونها أن من كان له مثل جمالها لا يمكن أن تكون فيه قسوة أو جبروت. ومن أجل هذا جعلوا يعزفون برقة ولا يكادون يلمسون أوتار القيثارات بأظافرهم الطويلة المحددة، وكان رءوسهم تخفق كأن النعاس يغالبها ويثنيها. وإذا بهم ينتفضون ويثبون إلى أقدامهم فجأة ويطلقون صيحة عالية مجلجلة ذعر منها الأطفال، وانثنت يد دون بدرو إلى مقبض خنجره المحلى، وانطلقوا كالعاصفة يعدون حول الساحة ويقرعون طبولهم، ويضربون بدفوفهم، ويغنون صوتًا فيه غزل جامح بلغتهم الغريبة. ثم أومأ إليهم رئيسهم فارتموا على الأرض كرة أخرى والتزموا السكون فلم يكن يسمع إلا هزيج الأوتار الخفيف. وكرروا هذا عدة مرات اختلفوا بعدها، ثم برزوا يجرون دبة كثيفة الشعر، من سلسلة، وعلى أكتافهم قردة صغار. ووقفت الدبة على رأسها، ولعبت القردة المفطومة ألعابًا شتى مسلية، مع اثنين من الغجر كانا على ما يظهر هما اللذان يدربانها، فكانت القردة تتضارب بسيوف صغيرة قصيرة وتطلق بنادق، وتقوم بالتداريب العسكرية المنتظمة كما يفعل حرس الملك سواء بسواء. فكان الغجر موفقين وفازوا بإعجاب المشاهدين أجمعين.

ولكن أمتع الملاهي كلها بلا شك رقص القزم الصغير، فما كاد يدخل الساحة متعثرًا، ويمشي متكفّئًا في جانبيه، متخلعًا يهز منكبيه، ويميل رأسه العظيم المشوه الخلق في هذه الناحية مرة، وفي تلك مرة أخرى، حتى ضج السامر بصيحات الجذل، وراحت الأميرة نفسها تضحك وتكركر مستغربة في ذلك حتى اضطرت وصيفتها أن تذكرها بأن هناك سوابق في إسبانيا تجيز أن تبكي ابنة الملك على مرأى من أترابها ولداتها، ولكنه ليس هناك ما يبيح لأميرة من نسل الملك أن تظهر مثل هذا الطرب والسرور على مرأى ممن هم دونها مولدًا وأصلًا. ولكن الحقيقة أن القزم كان وقعه في النفس لا يُغالب أو يقاوم، وقد كان البلاط الإسباني مشهورًا بحبه للفظيع والشنيع، ولكن مثل هذا المخلوق العجيب لم يُر فيه من قبل. وكانت هذه أول مرة ظهر فيها القزم، فما عثروا عليه إلا في اليوم السابق، وكان يعدو في الغابة، واتفق أن كان اثنان من النبلاء قد خرجا للصيد والقنص في ناحية قصية من الغابة العظيمة المحيطة بالمدينة، فحملاه معهما إلى القصر، هدية لم تكن في الحسبان، للأميرة، وكان أبوه رجلًا فقيرًا، فسره أن يتخلص من طفل دميم مشوه مثله، لا خير فيه ولا جدوى منه. ولعل أبعث ما في الغلام على التسلية والمسرة أنه كان غافلًا ذاهلًا عن دمامته وقبح منظره، لا يدري من هذا الأمر شيئًا، بل لقد كان بَيِّنَ السعادة واضح الابتهاج والمرح، وكان إذا ضحك الأطفال، يضحك مثلهم وبه ما بهم من خفة الفرح والجذل، وكان

في آخـر كل رقصـة ينحنـي لهـم أغـرب انحنـاء وأدعـاه إلى الضحـك، ويبتسـم ويهـز رأسـه لهـم كأنـما كان واحـدًا منهـم، لا خلقًـا مشـوهًا صاغـت منـه الطبيعـة ضُحْكـة للآخريـن. وقـد سـحرته الأمـيرة واسـتولت عـلى هـواه، فـكان لا يسـتطيع أن يحـول عينـه عنهـا، وكأنـما كان يختصهـا برقصـه، وفي آخـر اللعـب تذكـرت الأمـيرة أنهـا رأت سـيدات البـلاط يلقـين طاقـات الزهـر عـلى كافاريلـلي المغنـي الإيطـالي المشـهور، الـذي اختـاره البابـا مـن رجـال هيكلـه الخـاص وبعـث بـه إلى مدريـد ليُذهـب مـن حـزن الملـك ويُجلِّـد قلبـه عـلى مصابـه، بحـلاوة صوتـه وعذوبـة غنائـه، فانتزعـت مـن شـعرها الـوردة البيضـاء، عـلى سـبيل المـزاح مـن ناحيـة، ولتكايـد الوصيفـة وتعابثهـا مـن ناحيـة أخـرى، ورمـت بهـا إلى القـزم في السـاحة وهـي تفـتر لـه عـن أعـذب ابتسـاماتها، فتناولهـا جـادًّا، وأهـوى عليهـا بشـفتيه الغليظتـين الخشـنتين، ووضـع يـده عـلى قلبـه، وجثـا عـلى ركبتيـه أمامهـا، وفمـه مفتـوح مـن أذن إلى أذن، وعينـه تلمـع سرورًا، فغلـب الضحـك الأمـيرة حتـى لقـد ظلـت تُرَجْـع فيـه بعـد أن خـرج القـزم مـن السـاحة بزمـان طويـل، وأعربـت لعمهـا عـن رغبتهـا في أن تعـاد الرقصـة، ولكـن الوصيفـة قالـت إن الشـمس حاميـة جـدًّا، ورأت أن الأصـوب أن ترجـع الأمـيرة مـن تؤتهـا إلى القـصر، حيـث أعـد مقصـف فاخـر لهـا، وكعكـة بديعـة لعيـد ميلادهـا، سُـطرت عليهـا الحـروف الأولى مـن اسـمها بالسـكر الملـون، ورفـع فوقهـا علـم جميـل مـن الفضـة. فنهضـت الأمـيرة، وأمـرت أن يرقـص لهـا القـزم مـرة أخـرى بعـد أن تأخـذ

حظها من الراحة، وشكرت للكونت الصغير ده تيرا نويفا (الأرض الجديدة) حسن استقباله لها وحفاوته بها، وعادت إلى الجانب المفرد لها في القصر، يتبعها الأطفال على الترتيب الذي جاءوا به.

•••

ولما سمع القزم أن عليه أن يرقص ثانية أمام الأميرة، وأن هذا هو أمرها الصريح فرح فرحًا عظيمًا، وامتلأت نفسه زهوًا، فخرج يعدو إلى الحديقة وجعل يبوس الزهرة البيضاء من فرط سروره وابتهاجه، ويأتي من حركات الجذل والخفة أغربها وأبعدها من الظرف والرشاقة.

وقد أغضب «الأزهار» أنه اجترأ على التطفل عليها في حديقتها الجميلة، ولما رأته يقفز في الماشي والممرات، وهو يروح ويجيء فيها، ويلوح بذراعيه فوق رأسه على نحو سخيف، لم تستطع أن تكبح شعورها.

فقالت أزهار الطوليب: «إنه في الحقيقة دميم جدًّا، ولا يليق أن يُسمح له باللعب في أي مكان نكون فيه.»

وقالت أزهار السوسن القرمزية الكبيرة: «ينبغي أن يُسقى عصير الخشخاش وينام ألف سنة»، واضطرمت غلائلها من حدة الغضب.

وصاحت الصّبارة: «إنه هولة مفزعة! كل ما فيه أعوج، ناقص، مشوه، وليس بين رأسه ورجليه أي تناسب، وإني لأشعر حين أراه بالوخز في كياني كله، وقد آليت أن أشكه بشوكي إذا دنا مني.»

وقالت شجيرة الأزهار البيضاء: «إن معه زهرة من أجمل أزهاري، وكنت قد أهديتها للأميرة بنفسي هذا الصباح، في عيدها، فسرقها منها.»

وراحت تصيح بأعلى صوت: «لص! لص! لص!»

حتى زهرة الخبيزي المشهورة بالدعة والتواضع، التي يكثر بين ذوي قرباها أهل الفقر والمتربة، سخطت عليه لما بصرت به، ولما قالت أزهار البنفسج إنه حقيقة دميم، ولكن لا حيلة له في هذا، لأنه ليس ذنبه، ردت عليها تلك بأن هذا عيبه، وأنه ليس ثم ما يدعو إلى الإعجاب بمخلوق لا سبيل إلى شفائه من دائه، أو إصلاح عيبه وعلاجه، وقد أحست بعض البنفسجات أن القزم يعرض دمامته مباهيًا بها، وأنه كان أمثل به وأدل على حسن الذوق أن يبدي الاكتئاب، أو يظهر على الأقل على هيئة المفكر بدلًا من أن يذهب ينط ويقفز مرحًا، ويتخذ لنفسه هيئات سخيفة قبيحة.

أما الساعة الزوالية التي كانت فيما خلا تبين الوقت للإمبراطور شارل الخامس نفسه فقد راعها منظر القزم الصغير، حتى لقد ذهلت فنسيت أن تشير إلى انقضاء دقيقتين كاملتين بأصبعها الظلي الطويل، ولم يسعها إلا أن تقول للطاووس الذي يضحي في بهو الأعمدة: إن كل واحد يعلم أن أبناء الملوك ملوك، وأن أبناء الفحامين فحامون، ومن السخف أن يدعي أحد أن هذا ليس كذلك.

وهو قول وافق عليه الطاووس أتم موافقة، بل لقد صاح «صحيح! صحيح!» بصوت عال جاف أزعج الأسماك الذهبية الصغيرة التي تسبح في حوض النافورة فأخرجت رءوسها من الماء وسألت تماثيل أرباب البحر عن الخبر.

ولكن العصافير أحبته لسبب ما، وكانت قد رأته من قبل مرارًا في الغابة، يرقص كالعفريت وراء الأوراق التي تعبث بها الرياح وتثور، أو منطويًا على نفسه في فجوة في شجرة قديمة، والطير تأكل الجوز من يده. ولم تكن العصافير تبالي قبح خلقته أو تعبأ بذلك شيئًا، ومع ذلك ماذا من الجمال في البلبل الذي يغرد في الليل في أحراش البرتقال فيصغي له القمر ويهبط قليلًا ليسمعه؟ ثم إن هذا القزم كان يحنو على العصافير ويرق قلبه لها، فكان في الشتاء القارس، الذي يغدو فيه ظهر الأرض صلبًا كالحديد، ويتعرى الشجر فلا

يبقى عليه من الحب أو الثمر ما يُلقط، وتزحف الذئاب إلى قريب من أبواب المدينة التماسًا للقوت، لا ينسى العصافير ولا مرة واحدة، فكان يبقي لها فتاتًا من خبزه الأسود، ويجعل لها نصيبًا من كل طعام يصيبه.

لهذا راحت العصافير تطير حوله في حديقة القصر، وتلمس خده بأجنحتها، وتزقزق فيما بينها، وبلغ من سرور القزم بها أن لم يسعه إلا أن يُريها الزهرة البيضاء الجميلة، وأن يخبرها أن الأميرة نفسها جادت بها عليه لأنها تحبه.

ولم تفهم العصافير مما يقول ولا كلمة واحدة؛ ولكن هذا لم تكن له قيمة، فقد أدنت رءوسها، بعضها من بعض، وبدت كأنها فاهمة مدركة، وهو ما يعادل الفهم، ويفضله بأنه أسهل.

كذلك أحبته السحالي، فلما تعب من الجري والنط، وقعد على بساط الروض ليستريح راحت تلعب حوله وعلى بدنه، وتحاول أن تسره وتسليه جهد طاقتها. وكانت تقول فيما بينها: «ليس في الإمكان أن يكون كل أحد جميلًا كالسحلية، فإن هذا مرام بعيد ومطلب عسير، ثم إنه ليس بالدميم جدًّا، وإن كان هذا القول يبدو غريبًا، على شرط أن يغمض الواحد عينيه ولا ينظر إليه.» والسحالي مطبوعة على

الفلسفة، وكثيرًا ما تقضي ساعات وساعات في تفكير عميق إذا لم يكن ثم شيء تصنعه غير ذلك، أو إذا كان الجو مطيرًا لا يسمح بالخروج من الشقوق.

وقد ساء الأزهار جدًّا مسلك السحالي والعصافير، فقال بعضها لبعض: «هذا يرينا أن هذا الجري والطيران المستمرين يفسدان النفس، ويجعلانها سوقية مبتذلة، والمهذبون من الناس يبقون حيث هم، ولا يبرحون مكانهم — مثلنا — وما رآنا قط أحد ننط في ميادين البستان، أو نعدو كالمجانين وراء الذباب. وإذا احتجنا إلى تغيير الجو بعثنا في طلب البستاني فينقلنا إلى أحواض أخرى. وهذا هو الوقار والاحتشام الواجبان، ولكن الطيور والسحالي لا تدرك معنى السكون والرصانة، بل إن العصافير ليس لها عنوان ثابت! وهي أبدًا شاردة كالغجر، وينبغي أن تعامل كما يعامل الغجر.» وصعرت الأزهار خدها، كبرًا وشموخًا، وسُرت جدًّا لما رأت القزم ينهض عن الخضرة ويمضي إلى الشرفة فالقصر، وقالت لنفسها: «إنه حقيق بأن يبقى أبدًا وراء الأبواب. انظروا إلى ظهره الأحدب وإلى ساقيه المعوجتين!»

وراحت تتهاتف.

ولكن القزم لم يدر شيئًا من هذا كله، وكان يحب العصافير والسحالي حبًّا جمًّا، ويرى أن الأزهار أجمل وأعجب ما في

الدنيا كلها، ما عدا الأميرة، ولكن الأميرة أعطته الوردة البيضاء الجميلة، وهي تحبه، فأمرها مختلف جدًّا. ولشد ما يتمنى لو أنه رافقها في أوبتها إلى القصر، إذن لجعلته عن يمينها وابتسمت له، فلا يفارقها أبدًا، ويكون ملاعبها ويعلمها كل ضروب اللعب. ولا نكران أنه لم يعش من قبل في قصر، غير أنه يعرف أشياء كثيرة تروق وتدهش، ففي مقدوره مثلًا أن يصنع أقفاصًا صغيرة من الحصير للصراصير تغني فيها، ومن القصب ذي العقل الطويلة يراعة[9] يشتهي «بان» أن يسمع صوتها وهو يشيع فيها. وهو يعرف صوت كل طائر، ويميز الزرزور من مالك الحزين، ولا يخفى عليه أثر دابة، ويستطيع أن يقفو الأرنب بما يخلفه من أثر دقيق، والخنزير بما يطؤه من أوراق الشجر، ويعرف كل الرقصات الآبدة — الرقصة العنيفة في الثياب الحمر في الخريف، والرقصة الخفيفة بالخفاف[10] الزرق، على القمح، ورقصة الشتاء، ورقصة الربيع في البساتين والرياض، ويعرف أين تجعل الحمائم عشها، وقد حدث مرة أن جاء صائد فأوقع في شركه حمامتين، فتولى هو تربية صغارهما، وبنى لهما عشًّا صغيرًا في فجوة في شجرة وألفته فكانت تأكل من يديه كل صباح. وإن الأميرة لخليقة أن تحب الطير، والأرانب التي تجري في العشب الناهض، وأبا زريق بريشه القوي ومنقاره الأسود، والقنفذ الذي يجعل من جسمه كرة شائكة، والسلاحف الكبيرة الرزينة التي تدلج،[11] وتهز رءوسها وتثنيها لتأكل من الورق، نعم، يجب أن تذهب الأميرة إلى الغابة وتلعب

معه فيها، وهناك يدع لها فراشه لترقد عليه، ويبقى هو قائمًا بحراستها خلف النافذة إلى مطلع الفجر، حتى لا يؤذيها قرن حيوان، أو تدنو من كوخها الذئاب الجائعة النحيلة، وفي الفجر ينقر على الشباك ويوقظها، فيخرجان معًا، ويرقصان معًا، طول النهار، وما في الغابة وحشة، فإنه يتفق أحيانًا أن يجتازها أسقف على حمار أبيض ومعه كتاب مزخرف يقرأ فيه، وأحيانًا يجيء الصقارون،[١٢] وعلى رءوسهم قبعات خضراء من المخمل، وقد اكتسوا ثيابًا من جلود الظباء المدبوغة، والصقور على أرساغهم، وفي موسم العنب ترى العصارين مكللي الرءوس، حمر الأيدي والأرجل، ومعهم القرب يقطر منها النبيذ. ويجلس الحطابون في الليل حول الوطيس العظيم يلحظون الأجذال الجافة وهي تحترق ببطء ويشوون الجوز في الرماد، ويخرج اللصوص من كهوفهم وغيرانهم ويجيئون إليهم ويسمرون معهم، وقد رأى مرة موكبًا جميلًا في الطريق الطويل المعفّر إلى طليطلة، وكان الرهبان في الطليعة يغنون أعذب غناء، ويحملون أعلامًا زاهية وصلبانًا من الذهب، وتلاهم الجنود في المغافر[١٣] والدروع والتروس، ومعهم البنادق والرماح وبينهم ثلاثة رجال حفاة يلبسون ثيابًا صفرًا عجيبة عليها نقوش وصور غريبة وبأيديهم شموع مضاءة. إلا أن في الغابة لكثيرًا مما يسر ويبهج، وإذا تعبت (الأميرة) فإنه يستطيع أن يجد لها مكانًا معشوشبًا لينًا. فيحملها على ذراعيه — فقد كان قويًّا، وإن كان يعرف أنه ليس بالطويل — وينظم لها

عقدًا من أطراف العذارى ١٤ فيكون له جمال هذه الأعناب التي تلبسها على ثيابها، وإذا ملتها رمتها، فإنه يستطيع أن ينظم غيرها، ويجيئها بثمار الأشجار وبالأزهار المخضلة واليراعات الوهاجة البريق لتزين بها شعرها الذهبي فتكون فيه كالنجوم المتلامحة.

ولكن أين هي؟ سأل الوردة البيضاء فلم تجبه، وبدا له القصر كأنه نائم كله — حتى في حيث لم تغلق النوافذ، أسدلت الأستار الكثيفة لتحجب الضوء، فمضى يحوم حول القصر باحثًا عن مدخل إلى أن انتهى إلى باب صغير كان مواربًا فتسلل منه وألفى نفسه في قاعة فخمة — أفخم وأروع من الغابة، فقد كان كل ما فيها مذهبًا، حتى البلاط كان من قطع كبيرة ملونة مرصوفة على نحو هندسي، ولكن الأميرة لم تكن هناك، ولم يكن ثم سوى تماثيل صغيرة بديعة تنظر إليه من فوق القوائم التي رفعت عليها بعيون بيضاء وشفاه مفترة.

وكان في آخر القاعة سجف من المخمل الأسود المطرز وعليه صور الشمس والنجوم التي كان الملك يؤثرها كشعار له، أفتراها مختبئة وراء هذا؟ سيرى!

فمشى على أطراف أصابعه إلى السجف ونحاه قليلًا. كلا! كل ما هنالك حجرة أخرى وإن كانت أجمل فيما بدا له من التي

أقبل منها، وكان على الجدران رقعة خضراء مطرزة وعليها صور أناس خارجين للصيد، وقد صنعها فنانون من البلاد الواطئة سلخوا من أعمارهم فيها سبع سنوات. وكانت هذه في بعض الأعصر الخوالي حجرة — «جان المجنون» — كما كان يسمى، ذلك الملك الذي كان مجنونًا بالطراد، فكان كثيرًا ما يحاول أن يمتطي الخيل العظيمة الشديدة الشماس أو الجماح أو الكثيرة التقريب،١٥ وأن يصرع الظبي الذي تقفز حوله الكلاب، وهو ينفخ في النفير ويضرب بخنجره، وقد صارت هذه الحجرة تتخذ لمجلس الوزراء، وكان على المنضدة الوسطى فيها محافظ الوزراء الحمراء، وعليها شارة إسبانيا وشعار آل هابسبرج.

وأدار القزم عينيه في الحجرة متعجبًا، وخامره الخوف من الاستمرار، وكان يخيل إليه أن هؤلاء المصورين الذين يركضون بسرعة ومن غير أن يحدثوا صوتًا، مثل تلك الأشباح المرعبة التي سمع الحطابين يتحدثون عنها ويقولون إنها تخرج للصيد في الليل، فإذا لقيت إنسانًا قلبته غزالًا وراحت تطارده. ولكنه تذكر الأميرة فتشجع، وكان يريد أن يلقاها وحدها وأن يقول لها إنه هو أيضًا يحبها، فلعلها في الغرفة التي وراء هذه!

وذهب يجري على السجاد المراكشي الناعم الوثير وفتح الباب. كلا! ولا هنا أيضًا! فقد كانت الغرفة خالية.

وكانت هذه قاعة العرش التي يستقبل فيها الملك سفراء الدول الأجنبية. وما أقل ما يفعل الآن. وهي نفس القاعة التي جاء إليها منذ سنوات عديدة رسل من إنجلترا ليتفقوا على التدابير اللازمة لزواج ملكتهم — وكانت يومئذ كاثوليكية — بابن الإمبراطور. وكانت الأستار من جلد قرطبة المذهب، وقد تدلت من السقف المدهون باللونين الأسود والأبيض، شجرة عظيمة تحمل أغصانها ثلاث مائة شمعة. وكان فوق العرش ظلة مذهبة صورت عليها أسود قسطيلية وصروحها باللآلئ الدقيقة، وكان العرش مجللًا بمخمل أسود موشى بأزهار من الفضة، وأطرافه محلاة بالفضة واللؤلؤ، وعلى الدرجة الثانية من منصة العرش مقعد الأميرة وفوقه وسادة كسوتها من نسج الفضة، وتحت هذه الدرجة وفيما يخرج عن نطاق الظلة، كرسي لسفير البابا وكان هذا وحده هو الذي له الحق في الجلوس في حضرة الملك في أي احتفال عام، وكانت قبعته ذات الزر القرمزي، موضوعة على محمل بنفسجي أمام الكرسي. وعلى الجدار المواجه للعرش صورة بالحجم الطبيعي لشارل الخامس في ثياب الصيد وإلى جانبه كلب عظيم، وعلى حائط آخر صورة لفيليب الثاني وهو يستقبل وفد البلاد الواطئة الذي جاء ليعرب عن الولاء والخضوع. وبين النافذتين صندوق من الآبنوس مطعم بصفائح من العاج نقشت عليها صورة «رقصة الموت» لهولبين، ويقول البعض إن هذا المصور هو الذي نقشها بيديه.

ولكن القزم لم يكن يعبأ شيئًا بهذه الأبهة كلها. وما كان ليرضى أن يعتاض من وردته البيضاء كل ما في نسج الظلة من لآلئ، بل ما كان ليستبدل بغلالة واحدة من غلائل وردته، العرش نفسه، وما كان يبغي سوى أن يرى الأميرة قبل أن تنزل إلى السرادق، ليرجو منها أن تذهب معه بعد أن يقوم برقصته، فقد كان الجو هنا، في القصر، محبوسًا خانقًا، وكان له على الصدر جثوم، ولكن الهواء في الغابة حر، ونور الشمس يفرق أوراق الشجر المضطربة بأيد من الذهب. وهناك في الغابة الأزهار أيضًا. وقد لا يكون لها جمال نظائرها في الحديقة، ونضرتها وبهجتها، ولكنها أزكى أرجًا وأطيب عبيرًا، وأشد توهجًا — هناك الحوجم الذي يغمر الوادي والهضاب المنبسطة المعشاب، بحمرته المتموجة، والذَّريب[١٦] الذي ينمو حول جذور أشجار البلوط، وكل بيضاء وصفراء وحمراء من الأزهار كالعيون أو النجوم أو الأقمار — نعم، لا شك في أنها تصحبه إذا استطاع أن يهتدي إلى مكانها، — ترافقه إلى الغابة الساحرة، فيرقص لها طول النهار ليسرها. ولمعت عينه بنور البشر والجذل وهو يتخيلها معه، ومضى إلى الغرفة التالية.

وكانت هذه أجمل وأبهى ما رأى. وكانت الجدران مكسوة بالديباج من نسج «لوكا»، وعليه صور الطير، وقد حلي بأزاهير من فضة، وكان الأثاث من الفضة المحلاة بأكاليل الزهر الأرجواني وصور كوبيد، إله الحب، وأمام الموقدين

الكبيرين ستران موشيان بصور البغاوات والطواويس. وكانت الأرض مفروشة بأحجار خضراء لونها كلون البحر، ويخيل للناظر أنها ممتدة ذاهبة إلى غير مدى. ولم يكن القزم وحده في هذه الحجرة فقد كانت هناك في مدخل في آخر الحجرة، من ينظر إليه ويلاحظه، وقد خفق قلب القزم وندت عنه صيحة فرح وبرز إلى النور، فتقدم الشخص الواقف أيضًا، ورآه القزم كأوضح ما يكون.

أهذه الأميرة؟! كلا بل هذا شخص بشع مشوه لم ير القزم أبشع من منظره ولم يكن مستوي الخلق كغيره من الناس، بل أحدب متموج الأعضاء ملتويها ضخم الدماغ. أسود الشعر. وعبس القزم لما رأى هذا المخلوق، فعبس مثله. فضحك، فضحك مثله، ووضع يديه في خاصرتيه كما فعل، فانحنى له القزم ساخرًا، فرد تحيته بمثلها، فمشى إليه فتقدم ذاك منه، وكان يقتاس به ويحاكيه في كل خطوة، ويقف إذا وقف. فصاح من سروره بذاك وراح يعدو، وبسط يده، فلمست كف الوحش البشع يده، فخاف وحرك يده يمينًا وشمالًا، فقلده الذي أمامه، فحاول أن يدفع يده إليه ولكن شيئًا أملس صلبًا صده عن ذلك. وكان وجه هذا الوحش قريبًا منه الآن، فطالعه من عينيه الذعر، فنحى الشعر عن عينيه، فقلده الذي هو أمامه، فضربه بجمع يده، فتلقى ضربة بضربة، فهاج عليه سخطه ومقته، فلم يكن الوجه الذي يراه أقل نطقًا بالكراهية والحنق، فتراجع، فارتد ذاك أيضًا.

ما هـذا؟! وفكـر القـزم لحظـة، ثـم أجـال لحظـه في بقيـة الحجـرة، فـرأى عجبًـا! ذلـك أن كل شيء هنـا لـه نظـير يقابلـه في هـذا الجـدار الـذي كأنـما هـو مصنـوع مـن المـاء الصـافي. لـكل صـورة، وكل أريكـة، أختهـا حتـى تمثـال الإلـه النائـم في فجـوة بالجـدار إلى جانـب البـاب لـه تـوأم نائـم. وحتـى تمثـال فينـوس الفـضي القائـم في نـور الشـمس، يمـد يـده إلى فينـوس أخـرى ليسـت دون تلـك جمـالًا.

أهـذا هـو الصـدى؛ لقـد نـادى الصـدى مـرة في الـوادي، فـرد عليـه نـداءه كلمـة كلمـة. أفـترى الصـدى يعابـث العـين كـما يعابـث الأذن؟ أفي وسـعه أن يجعـل عـالم التقليـد كعـالم الحقيقـة؟ وهـل يتسـنى أن يكـون لخيـال الأشـياء لـون وحيـاة وحركـة؟ هـل يمكـن ...؟

وانتفـض، ونـزع الـوردة البيضـاء مـن صـدره، ودار فلثمهـا، فإذا الـذي هنـاك معـه وردة كوردتـه، لا تنقـص غلالـة واحـدة، وإذا هـو يلثمهـا كلثماتـه، ويضمهـا إلى قلبـه بحركـة بشـعة وإيـماءات ثقيلـة.

وفطـن إلى الحقيقـة فأطلـق صرخـة يـأس، وهـوى إلى الأرض يبكـي ويعـول. إذن هـو هـذا المشـوه الأحـدب الكريـه المنظـر الشـتيم الخلـق! هـو الوحـش البشـع، وهـو الـذي كان الأطفـال جميعًـا يضحكـون منـه — حتـى الأمـيرة التـي حسـبها تحبـه —

هي أيضًا كانت تسخر منه وتهزأ به، وتضحكها أعضاؤه المعوجة! لماذا لم يتركوه في الغابة حيث لا مرآة تقول له إنه بغيض مشنوء الهيئة؟ ولماذا لم يقتله أبوه بدلًا من أن يبيعه ليفضحه؟ وانهمرت الدموع الحارة على خديه، ومزق الزهرة البيضاء، ففعلت صورته مثله ونثرت الغلائل الرقيقة في الهواء، وتمرغت١٧ على الأرض، فلما رفع عينه لينظر رأى الألم مرتسمًا على وجهه، فتسلل راجعًا لئلا يرى صورته، وغطى عينيه بيديه — جر رجليه كالجريح، إلى ركن ظليل مظلم وراح يئن ويتوجع.

وفي هذه اللحظة دخلت الأميرة من الشباك المفتوح، في حاشية من أترابها، فلما بصروا بالقزم مرتميًا يضرب الأرض بجمع يده، جلجلت ضحكاتهم وحفوا به ينظرون إليه.

وقالت الأميرة: «كان رقصه مضحكًا، ولكن تمثيله أبعث على الضحك وأغرى به — أشبه بحركات الدمى في القراقوز، إلا أن هذه أقرب إلى الطبيعة وأشبه بها.»

وهزت مروحتها الكبيرة، وصفقت.

ولكن القزم لم يرفع عينه قط، وصارت شهقاته أخفت، وإذا به يفهق ويمسك جانبيه، ثم ارتمى، وظل ساكنًا لا يتحرك.

وقالت الأميرة بعد هنيهة: «هذا بديع. والآن يجب أن ترقص لي.» فصاح الأطفال جميعًا: «نعم، قم وارقص، فإنك ماهر كالقردة، ولكنك أبعث منها على الضحك.»

لكن القزم لم يجب.

فضربت الأميرة الأرض برجلها، ونادت عمها الذي كان يتمشى على الشرفة مع أحد الأمناء، وهو يقرأ رسائل جاءت الساعة من المكسيك حيث أنشئت الكنيسة منذ عهد قريب. وقالت الأميرة: «إن قزمي الصغير المضحك يعاند، فتعالى أنهضه ومره أن يرقص.» فابتسما ودخلا، وانحنى دون بدرو ولطم القزم على خده بقفازه الموشى وقال: «يجب أن ترقص أيها الوحش الصغير. يجب أن ترقص، فإن أميرة إسبانيا وأترابها يردن أن يتسلين.»

ولكن القزم لم يتحرك.

فقال دون بدرو بضجر: «يجب أن نبعث في طلب جلاد.» وعاد إلى الشرفة، ولكن الأمين بدا عليه الجد والاهتمام وجثا إلى جانب القزم ووضع يده على قلبه، ثم هز كتفيه ونهض، وانحنى للأميرة وقال: «أيتها الأميرة الجميلة، إن قزمك الصغير لن يرقص أبدًا. وهذا مما يؤسف له، فقد

كان دميـًا مشـنوء الطلعـة إلى حـد كان يُرجـى أن يحمـل الملـك عـلى الابتسـام.»

فسألته الأميرة: «ولكن لماذا لا يرقص ثانية؟» وضحكت.

فقال الأمين: «لأن قلبه انفطر.»

فعبسـت الأمـيرة، واسـتدارت شـفتاها الرقيقتـان زرايـة واحتقارًا وقالـت: «في المسـتقبل، يجـب أن يكـون الذيـن يجيئـون ليلعبـوا معـي بغـير قلـوب.»

وخرجت تعدو إلى الحديقة.

## هوامش

(١) المجـول فـي الأصـل: ثـوب تجـول فيـه المـرأة، أو هـو قميـص خفيـف يلبـس تحـت الثيـاب، وقـد استعملته هنـا للجونلـة.

(٢) جـزء مـن الثـوب يغشـى الصـدر والمنكبيـن وقـد اسـتعملت اللفـظ لكلمة Corset.

(٣) المعجرمة: الكثيرة العقد، والعقد مخارج الغصون.

(٤) الظمي: ذبول الشفة وذهاب لونها.

(٥) التوقـص هـو: أن يثـب الجـواد وثبًـا. والتقريـب: رفـع اليديـن معًـا، ووضعهمـا معًـا.

(٦) جلد مصحب: عليه صوفه أو وبره أو شعره.

(٧) قريبة القعر.

(٨) seispyG.

(٩) مزمار.

(٠١) جمع خف وهو ما يلبس في الرجل.

(١١) تمشي بطيئة مثقلة بحملها.

(٢١) الصقار: قيم الصقور ومعلمها ليصيد بها.

(٣١) المغفر: الخوذة.

(٤١) عنب أبيض طوال.

(٥١) رفع اليدين معاً ووضعهما معاً.

(٦١) الحوجمة وردة حمراء، والذريب صفراء.

(٧١) أي صورته في المرآة.

# جورج جوسنج

## رجل فقير

كان ذلك في حجرة الجلوس بعد الغداء، وقد قعدت المسز شارمن — ربة الدار الجسيمة الطيبة القلب — على كرسي إلى جانب صديقتها الصغيرة المسز لورنج وتنهدت سائلة: «كيف ترين المستر تمبرلي؟»

قالت: «ظريف جدًّا ولكن فيه بعض الشذوذ.»

قالت الأولى: «نعم شاذ، لا يجري على قياس. وقد أردت أن أحدثك عنه قبل أن ننزل ولكن الوقت ضاق بي، وهو صديق قديم لنا، وقد كان هو وزوجي العزيز في مدرسة واحدة، هارو. وإنه لأحلى وأعذب وأرق الناس. وأخشى

أن يكــون خــيرًا مــن أن يصلــح لهــذه الدنيــا. يتنــاول كل شيء جــادًّا. ولــن أنســى حزنــه لوفــاة زوجــي المســكين. إني أحــدث المســز لورنــج عــن المســتر تمــبرلي، يــا أده.»

وكانــت العبــارة الأخــيرة موجهــة إلى بنتهــا المتزوجــة، وهــي غادة ســاكنة، فيهــا مــن أمهــا دماثتهــا وطيبهــا، ولكنهــا أذكــى وأفطن.

وقالــت أده (المســز ويــر): «إني آســفة لأنــه يبــدو أبعــد مــا يكــون مــن الصحــة.»

فقالــت الأم: «إنــه لم يكــن قــط مــشرق الديباجــة، وحياتــه ... ولكنــي ســأحدثك عنــه (والتفتــت إلى المســز لورنــج) إنــه عــزب، وفي رغــد مــن العيــش، و — هــل تصدقــين؟ — يعيــش وحــده في حــي زري مــن أحيــاء لنــدن. أي حــي هــو يــا أده؟»

– «شارع حقير في اسلنجتون.»

– «نعــم، هنــاك يعيــش، في مســكن وضيــع — ولا بــد أن يكــون غــير صحــي — لا لــشيء ســوى أنــه يريــد أن يحيــط علــمًا بحيــاة الفقــراء والمســاكين، وليكــون بذلــك أقدر عــلى معونتهم. أليســت هــذه بطولــة؟ وقــد وقــف حياتــه عــلى هــذا عــلى مــا يظهــر فــما يلتقــي بــه أحــد في مــكان آخــر. وأحســب أن بيتنــا هــو الوحيــد

الـذي يظهـر فيـه للنـاس. حيـاة نبيلـة! ولا يخـوض فيهـا بـكلام، أو يشـير إليهـا بحـرف، وإني لواثقـة أنـك لم يخطـر لـك أن هـذا هكـذا مـن حديثـه عـلى المائـدة!»

فقالـت المسـز لورنـج مسـتغربة: «لم يخطـر لي قـط. عـلى أنـه لم يكـن كثـير الـكلام، وقـد اسـتطعت أن أعـرف أن أكـبر مـا يعنيـه، زخرفـة الخشـب، والسياسـة الخارجيـة.»

فضحكـت المسـز ويـر وقالـت: «هـو بعينـه! لمـا كنـت طفلـة كان يصنـع لي لعبًـا شـتى جميلـة بمنشـاره، ولمـا كـبرت كان يحدثنـي عـن التـوازن الـدولي! ومـن يـدري؟ لعلـه يكتـب مقـالات افتتاحيـة في الصحـف، يـا أمـي!»

فقالـت الأم: «يـا بنيتـي العزيـزة، مـا مـن شيء يسـتغرب مـن المسـتر تمـبرلي! وإنهـا لحيـاة جديـدة هـذه التـي يحياهـا بعـد حياتـه في الريـف. لقـد كان لـه بيـت صغـير جميـل قـرب بيتنـا في بيركشـير. وليـس يسـعني إلا أن أعتقـد أن وفـاة زوجـي هـي التـي حملتـه عـلى مغادرتـه وتركـه، فقـد كان وثيـق الصلـة بـه وصديقًـا حميمًـا لـه. فلـما مـات زوجـي وتركنـا بيركشـير اختفـى المسـتر تمـبرلي — حـوالي سـنتين — ثـم التقيـت بـه مصادفـة في لنـدن. ومـن رأي أده أنـه لا بـد أن يكـون قـد خـاب لـه أمـل في حـب.»

فقالت بنتها: «يا أمي العزيزة، لقد كان هذا تأويلك أنت لاختفائه لا تأويلي أنا.»

قالت الأم: «صحيح؟ ربما! إن الإنسان لا يسعه إلا أن يلاحظ أنه قاسى بعض الآلام. وقد يكون هذا من أثر عطفه على الفقراء والمساكين الذين وقف عليهم حياته! رجل عجيب!»

وسمعن أصوات رجال عند باب الغرفة، فتطلعت المسز لورنج إلى رؤية هذا الرجل الشاذ. وكان هو آخر من دخل، وهو طويل، وفي كتفيه انحناء، ونحيل وغير رشيق، وفي خطوته اضطراب وفي مشيته تردد، وبه حياء ظاهر، وعينه الرقيقة النظرة كثيرة التلفت هنا وهنا، وفي خط الحاجب ما يشي بالتردد والضعف، وفي الابتسامة التي تخفق على شفتيه ما ينم على وهن الشخصية بل امحائها. وكان شعره قد بدأ يخف ويشيع فيه البياض، وكان شارباه كثيفين وأليق بوجه أصرم وأحزم. وكان وهو يدخل الغرفة، أو يتسلل إليها، لا تزال كفه تنقبض وتنبسط على نحو يغري بالضحك، وقد أفرده بين الرجال أنه كان في هيئة ما يمكن أن يوصف بأنه انطفاء اللمعة، أو ذهاب الصقل، وإن كان لا يبلغ حد الرثاثة، فإذا أَحَدّ المرء النظر إليه تبين أن ثيابه السوداء مفصلة على طراز يرجع إلى بضع سنوات مضت، وكان قميصه ناصع البياض، ولم يكن يتخذ من الحلي أكثر من أزرار بسيطة على كميه وصدره.

ومضى إلى ركن، وكان خليقًا أن يبقى فيه وحده، في سلام، لولا أن المسز وير جرت كرسيها إلى جانبه.

وقالت له: «أتراك ستبقى في المدينة في شهر أغسطس؟»

فقال: «لا ... لا لا ... كلا ... لا أظن.»

– «ولكنك تبدو مترددًا، وسامحني حين أقول إني واثقة أن بك حاجة إلى تغيير الهواء. فالحقيقة أنك لا تبدو في صحة جيدة. فهل لي أن أغريك بالانضمام إلينا واللحاق بنا في لوسرن؟ إن زوجي يكون مسرورًا جدًّا ... بأن تتاح له فرصة للحديث معك في أحوال أوروبا. فهب لنا من وقتك أسبوعين ... أرجو ...»

فقال: «يا عزيزتي المسز وير، إنك الرقة مجسدة. وإن شكري لك لجزيل، وإني لعاجز عن العبارة عما أحس به تلقاء هذه العناية، ولكن الحقيقة أني أكاد أكون مرتبطًا بوعد لإخوان آخرين. بل في وسعي أن أقول إني في حكم ... نعم هذا هو الواقع.»

وكان صوته كالصفير، ونطقه واضحًا، وكان يبتسم ابتسامًا يحول إلى ما يشبه الإشفاء على البكاء وهو ينتقل من عبارة

إلى عبـارة في ارتبـاك واضطـراب، وكانــت كفــاه المعروقتــان الطويلتــان متضاغتــين حتــى صــارت عقــل أصابعــه بيضــاء.

وقالـت المسـز ويـر: «إن المهـم أنـك سـتغادر لنـدن، فـإني أخشـى أن تغـالي في إرضـاء ضمـيرك. وأحسـبك تعلـم أنـك لـن تفيـد أحـدًا بـأن تتلـف صحتـك.»

فقـال: «هـذا واضـح. هـا هـا! وإني أؤكـد لـك أن هـذه الحقيقـة غـير خافيـة عـليّ. الصحـة أول مـا ينبغـي العنايـة بـه. وليـس أولى بـأن يجعـل الإنسـان أقـل نفعًـا مـن صحـة متداعيـة. عـلى التحقيـق! عـلى التحقيـق!»

قالـت: «فـما القـول في الجهـد الـذي تكلفـك إيـاه معاطفـك؟ إن لهـذا أثـرًا في الصحـة فضـلًا عـن الجـو الفاسـد.»

قــال: «ولكــن اســلنجتون ليســت فاســدة الجــو يــا عزيــزتي المســز ويــر، وصدقينــي حــين أقــول إن جوهــا كثــيرًا مــا يكــون منعشًــا. ولا تنســي أن موقعهــا مرتفــع. أمــا لــو تســنى أن نقلــل مــا تنفثــه مداخــن المنــازل والمصانــع! عــلى كل حــال أؤكــد لــك أن أســلنجتون تتوفــر فيهــا كل المطالــب الصحيــة.»

وقبيـل انقضـاء السـهرة عُزفـت بعـض الأصـوات، وكان المسـتر

تمبرلي يبدو كأنه يستطيبها. فقد ثنى رأسه إلى الخلف، وشخص إلى فوق، وبقي شاردًا على هذه الهيئة إلى ما بعد انتهاء العزف ثم تنبه وتنهد.

ولما بارح البيت ارتدى معطفًا أكثف من أن يتخذ في ذلك الوقت، ودس في جيبيه حذاءيه. وكانت قبعته من المخمل، وعالية وتناول مظلته — ولم تكن محكمة القفل — وانطلق يمشي بسرعة، كأنما يقعد إلى المحطة القريبة من هناك. ولكن القطار لم يكن مقصده، لا ولا سيارات النقل المشترك. فمضى يمشي، ويمشي، في الليل العطر، بخطوة موزونة، شأن من ألف هذا الضرب من الرياضة، وخرج من «نوتنج هيل» إلى «ماربل آرتش»، ومن ثم إلى «نيو أكسفورد ستريت»، ومن طريق تيوبولد إلى بنتونفيل، وراح يصعد حتى بلغ عُدوة حيه الصحي! وبعد نصف الليل دخل في زقاق ضيق، يبدو في ضوء القمر الباهت، نظيفًا وإن لم يكن فيه ما يدعو إلى الإقبال عليه. وفتح بابًا بمفتاح معه، ودخل بيتًا صغيرًا تفوح فيه رائحة الصمغ. وأوقد شمعة وجدها في جيبه، وارتقى في السلم دورتين إلى غرفة خلفية طولها ثماني أقدام وعرضها سبع أقدام ونصف قدم، وبعد دقائق كان مستغرقًا في النوم.

واستيقظ في الساعة الثامنة — وكان يعرف الوقت من جرس

يدق في الحي — فارتدى ثيابه بسرعة، وفتح الباب فألفى على العتبة صينية عليها طعام الإفطار وقد نقص إلى أدنى حد — قصب من لبن، وخبز، وزبدة. وفي الساعة التاسعة نزل، ونقر بأدب على باب الغرفة المقدمة، فأذن له صوت أجش في الدخول، وكان في الغرفة رجل كهل وفتاة، وهما عاكفان على عمل اليوم — تجليد الكتب.

وقال المستر تمبرلي: «عم صباحًا يا سيدي.» وحنا رأسه للفتاة وقال: «عمي صباحًا يا آنسة سَجْس. يوم مشرق ... مشمس ... منعش!»

ووقف يفرك يديه كما يفعل المرء في ليلة مصقوعة مبرودة. وهز المجلد رأسه هزة جافة، وبين للمستر تمبرلي عمله فأقبل هذا عليه بهمة وعزم. وكان يتعلم مبادئ هذا الفن، ويقضي ساعات العمل كلها مكبًّا صابرًا، مظهرًا في عمله من الاستعداد الطبيعي له حظًّا غير قليل.

إلى هذا الحضيض انحدر المستر تمبرلي، وكان من سادة بيركشير، وكان يعيش في دعة وخفض في من ربح ماله المستثمر، وقد تعلم في مدرسة هارو، وتخرج في كمبردج، وفكر في اختيار مهنة، حتى بدا له، على العموم، أن وقت الاختيار مضى وانقضى، ولما لم تكن به حاجة إلى تجشيم نفسه عناء العمل، فقد عاش عيشة الفراغ والبطالة البريئة

على مقربة من البيت الريفي لصديقه المثري الوجيه المستر تشارمن. وكرت الأعوام لينة سمينة. وخطر له الزواج مرة أو مرتين ولكن طبيعة الحياء الشديد صدته عن اتخاذ الخطوة الأولى، ووقع في روعه آخر الأمر أنه معزابة.[٢] وكان قانعًا بذلك وراضيًا عنه، وليته أظهر مثل هذه الحكمة وبعد النظر في مغريات أخرى! ولكنه في ساعة مشئومة صدر عن رأي المستر تشارمن الذي كان لا ينفك يلهج بالمضاربة والشركات والأرباح العظيمة، ولم يخاطر المستر تمبرلي بباعث من الطمع، فقد كان عنده فوق الكفاية ولكنه كان معنيًا بأمر أخته التي تزوجت محاميًا ريفيًّا غير موفق، وفي أبنائها الستة، الذين كان يشتهي أن يساعدهم على نحو ما يفعل الخال المثري في الأقاصيص، ويمدهم بالعون اللازم لخوض الحياة، فوثق بالمستر تشارمن ثقة عمياء، فكان أن ألقى نفسه ذات يوم يرعش على شفا الهاوية. وجاءت الأنباء تترى بما حاق به من الخراب فهوى إلى الحضيض.

ولم يكن أحد يعلم ذلك سوى المستر تشارمن، وقد مرض هذا بعد بضعة أيام ثم قضى نحبه، ولم تتحيف الخسارة التي عصفت بصديقه، إلا جانبًا يسيرًا من ثروته، ولم ينبس المستر تمبرلي بكلمة لأرملة صديقه، ولا أفضى بحرف إلى أحد من الناس، ما عدا محاميه الذي سوى له أموره في هدوء، وأخته التي لم يبق لبنيها إلا أن يحيوا حياتهم بلا عون، وحدث أن غابت أسرة المستر تشارمن بعد موته عن

البلـدة فـترة مـن الوقـت، فاختفـى المسـتر تمـبرلي في سـكون.

وكان المسـكين قـد ناهـز الأربعـين، وقـد بقـي لـه مـن رأس المـال قـدر يسـير لم يجـترئ عـلى مـد يـده إليـه للإنفـاق منـه، فاسـتثمره، فأفـاده دخـلًا لا يـكاد يكفـي عامـلًا.

وكانـت لنـدن هـي المدينـة الوحيـدة التـي يسـتطيع أن يعيـش فيهـا، لأنهـا المـكان الوحيـد الـذي يسـعه أن يسـتخفي فيـه وهـو مطمئـن آمـن، فقصـد إليهـا، واحتـاج إلى زمـن غـير قصـير ليتعلـم فـن مكافحـة الجـوع بأيـسر مقـدار مـن المـال. وقـد بلـغ مـن سـوء حالـه في أول عهـده بهـذه المحنـة، ومـن عـض الجـوع وذل الفاقـة، أن اضطـر أن يغالـب كبريـاءه فكتـب إلى صاحـب لـه يستشـيره ويسـتعينه، وليـس يعـرف عبـث النصـح وإن حسـنت فيـه النيـة، وقلـة جـدوى الجـاه الاجتماعـي، إلا مـن كان في مثـل موقـف المسـتر تمـبرلي وحالـه. ولـو أنـه اسـتجدى مـالًا لتلقـى شـيئًا مشـفوعًا بكلـمات العطـف، غـير أن المسـتر تمـبرلي مـا كان يسـتطيع أن يحمـل نفسـه عـلى هـذا.

وحـاول أن ينتفـع بـما كان يتسـلى بـه قديـمًا مـن زخرفـة الخشـب، ونجـح إلى حـد مـا، فربـح في سـتة شـهور نصـف جنيـه! ولكـن الأمـل في اكتسـاب جنيـه في العـام يضيفـه إلى دخلـه الضئيـل لم يكـن مـن شـأنه أن يشـجعه ويحضـه عـلى المثابـرة!

وكان في ذلك الحين يعيش في عزلة تامة. والفقر أقوى ما زهد في الاختلاط ورغب في الاعتزال والوحدة، إلا إذا كان المرء قد ولد وشب في أحضان الفاقة. وليس يسع الرجل المرهف الحس حين يلفى أنه قد صار أدنى من أقرانه منزلة، إلا أن يلوذ بالوحدة، وما أسرع ما يتبين أن الناس لا يجدون عسرًا أو عناء في نسيانه. وقد كانت لندن، وما زالت، غاصة بالزهاد والمعتزلة، برضاهم أو كرههم، وكان المستر تمبرلي، كلما ذهب يجوب الشوارع أو الحدائق، أو يزجّي الوقت في المتاحف (التي لا يؤدي داخلها شيئًا) لا يزال يلتقي بمن يفطن إلى أنهم نظراؤه وإخوانه في الاعتزال، وكان يفهم النظرة المخالسة حين تلتقي بنظرته، ويقرأ صفحة الوجه المقطب، ويلاحظ الثياب اللبيسة بعطف. وليس بين هذه الخلائق المستخفية المتسللة بث متبادل، وما منهم إلا من يود أن يقول بشجوه، ولكن الكبرياء تصده وتكبحه، فيمضي في طريقه صامتًا مستفردًا حتى يجد نفسه آخر الأمر — لحسن الحظ — في مستشفى أو ملجأ، فتنحل عقدة اللسان المُمتَسك ويقول القلب الكليم الموجع بعتبه على الدنيا.

ويحذق من هذا حاله دروسًا كثيرة لم تكن له في حساب، فيتعلم أساليب عجيبة للاقتصاد والتدبير، ويُزهي بأن يتبين أن المُسكة من الرزق حسب المقلّ ليعيش بها، وقد كان المستر تمبرلي في أيام خفضه ويساره، خليقًا أن يجزم بأن

الإنسان لا يستطيع أن يعيش بأقل من كذا وكذا، فلما أعسر عرف أن الرجل يقدر أن يعيش بقروش قليلة في اليوم. وصار يعرف أثمان المآكل، وتعلم المزايا النسبية للأطعمة، والخصائص الغذائية المختلفة لكل منها، واضطره الشظف أن يكون نباتيًّا فوجد أن الطعام من النبات أصح له، فجعل يلقي على نفسه خطبًا ساخرة بآكلي اللحوم، ويحاضرها في مضار القرم، وآلى مكرهًا ألا يذوق خمرًا، واشتاق أن يعتلي منبرًا من منابر الدعاة إلى نبذ الخمر، وأن يؤدي من فوقه الشهادة. وفي هذا كله عزاء، وإن فيه لعوضًا عن فقد كثير من ضروب الاحترام الذاتي.

واتفق يومًا أن كان يهم بأن يقبض من بنك إنجلترا المبلغ الزهيد الذي يأخذه كل ثلاثة شهور، فلمحته سيدة وعرفته. وكانت أرملة المستر تشارمن.

وصاحب به: «أين كنت كل هذا الزمن يا مستر تمبرلي؟ لماذا لم يجئني منك أي نبأ؟ هل صحيح ما حدثني به بعضهم من أنك كنت تعيش في الخارج؟»

وبلغ من ارتباكه من جراء هذه المباغتة، أن ردد، بطريقة آلية، آخر ما سمعه من السيدة — «في الخارج.»

فألحت عليه المسز تشارمن تسأله ولا تدع له فرصة لكلام يقوله: «ولكن لماذا لم تكتب إلينا؟ تالله ما أقساك؟ ولماذا سافرت من غير أن تخبرنا؟ إن ابنتي تقول إننا لا بد أن نكون قد أسأنا إليك بشيء ما، قل بالله! إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء ...»

فقال: «يا عزيزتي المسز تشارمن، إني أنا الملوم وحدي. إني ... ولكن الإيضاح صعب لأنه يستدعي تفصيلًا طويلًا، وبيانًا مسهبًا، وإني لأرجو أن تحملي سلوكي الذي لا مسوغ له على — على محمل الشذوذ المحض.»

– «لا بد أن تجيء إلينا وتزورنا. وهل تعلم أن آده تزوجت؟ نعم، منذ سنة أو حوالي ذلك. ولشد ما يسرها أن تراك! فإنها تلهج بذكرك كثيرًا، متى تستطيع أن تتعشى معنا؟ غدًا؟»

– «بسرور، بسرور عظيم.»

وأعطته عنوانها، وافترقا.

وكان من الدلائل على أن المستر تمبرلي لم ييأس قط من العود إلى عالمه القديم أنه عني بالتحفظ بثياب السهرة والحذاءين

الملائمين لها. وما أكثر ما هم مدفوعًا بحاجته وضنكه، أن يبيع هذه الأشياء التي لا نفع لها عنده! وقد رهنها أكثر من مرة، من أجل بضعة شلنات، ولكن النزول عن عنوان منزلته ورمز طبقته، لم يكن إليه من سبيل، لأن معناه اليأس المطلق، واليأس شيء أجنبي، لا يوائم طبيعة المستر تمبرلي المبنية على الجلد. وقد ذهبت حليه جميعًا — حتى ساعته وسلسلتها — فإن مثل هذه الأشياء ليست لازمة لازبة، لمظهر الرجل الكريم، وقد هنأ نفسه بما كان من حسن تدبيره لأموره، ذلك أن لقاء المسز تشارمن سره بقدر ما ربكه، وخفق قلبه خفقة الجذل وهو يتطلع إلى قضاء المساء في بيئته القديمة. وعاد مسرعًا إلى غرفته وفحص ثيابه بعناية وتدقيق فلم يجد فيها عيبًا ظاهرًا أو ملحوظًا. على أنه احتاج أن يشتري قميصًا ورباطًا. وكان معه لحسن حظه المال الكافي لسد هذه الخلة، ولكن بماذا يئول لهم غيبته الطويلة؟ هل يسعه أن يطلعهم على خصاصته ويدلهم على مسكنه؟ إن هذا يكون معناه استدرار العطف من أصدقائه القدماء، وهذا موقف لا قِبل له به ولا قدرة له على احتماله. والرجل الكريم لا يكشف عن حالة تسوء وتؤلم إذا كان يسعه كتمانها. فهل يكذب إذن صراحة أو ضمنًا؟ وذكر الحقيقة لا سبيل إليه لأنها تنطوي على لوم لزوج المسز تشارمن.

وجاء مساء اليوم التالي وهو لا يزال حائرًا لا يستقر على

رأي. وبلغ بيت المسز تشارمن من غير أن يصح له عزم على أمر، وكان في غرفة الجلوس ثلاثة ينتظرونه — المسز تشارمن، وابنتها، وزوجها — المستر والمسز وير — وقد أشفى على البكاء من حسن ما استقبل به، وغلبته عواطفه ففقد رصانته وصار يتكلم جزافًا، فصاغ قصة خرافية لم يكد يفرغ منها حتى بهت هو نفسه لها!

وقد جاءت هذه القصة في جواب سؤال طبيعي عن مسكنه أين هو؟

فقال بابتسامة سخيفة: «في الوقت الحاضر أسكن غرفة للنوم والجلوس معًا في شارع صغير في حي إسلنجتون.»

فساد الصمت، ورشقوه بنظرات التعجب والدهشة، ولولا هذه النظرات لما درى أحد بماذا كان المستر تمبرلي حقيقًا أن يعترف.

وقال: «لقد قلت يا مسز تشارمن إنه لا يسعني إلا أن أعترف بشيء من الشذوذ. وإني لأرجو ألا يزعجك ذلك. وأوجز فأقول إني وقفت جهودي الضعيفة على العمل الاجتماعي. فأنا أعيش بين الفقراء، كواحد منهم، لأحصل بذلك على المعرفة والخبرة اللتين لا سبيل إليهما بغير هذه الوسيلة.»

فصاحت مضيفته: «تالله ما أنبلك!»

وكان ضمير المسكين يخزه وخزًا أليمًا، فلم يسعه أن يزيد على ما اخترع شيئًا وأراد القوم أن يترفقوا بعواطفه ويعفوه من الحرج فغيروا موضوع الحديث. ولم يخطر لهم قط وقتئذ، ولا فيما بعد، أن يشكوا في صدقه. ولقد رأته المسز تشارمن يعامل بنك إنجلترا، وهو مكان لا يوحي إلى النفس فكرة الفقر، وكان العهد بالمستر تمبرلي أنه غريب الآراء والأساليب. وهكذا تورط في كذبة عجيبة، وخدعة لا يسهل تبينها، ولا ضرر منها إلا عليه.

ومضى نحو عام على ذلك، التقى المستر تمبرلي في خلاله بأصدقائه هؤلاء ست مرات أو حوالي ذلك، وكان ينعم باجتماعه بهم على نحو يدعو إلى المرثية، ولم يكن يزعجه منهم أي إشارة إلى أسلوب حياته، فقد صار من المفهوم والمقرر أنه يؤثر أن يظل نوره محجوبًا، ومروءته مكتومة، فلم يكن يحتاج أن يكذب مرة أخرى. وما من شك في أنه ندم على الكذب والخداع، وجال بخاطره أن المسز تشارمن — وهي سيدة غنية — لعلها كانت تستطيع أن تساعده على ما يبتغيه من وسيلة كريمة لكسب الرزق. على أن الواقع أنه لم يخطر له إلا أن يكون مجلد كتب، وهي حرفة توافق ذوقه بعض الموافقة، واجترأ يومًا فاتفق مع رب البيت على أن يعلمه

هـذه الحرفـة بالعمـل لـه زمنًـا مـا، بعـد أن يحذقهـا. وقـد صـار الآن هـذا اليـوم قريبًـا، وأحـس المسـتر تمـبرلي أنـه عـلى العمـوم أسـعد ممـا كان أيـام البطالـة واجـترار الهمـوم، وأصبـح يتطلـع إلى اليـوم الـذي يـزداد فيـه دخلـه، فـلا يعـود يفـرق مـن الأسـبوعين الأخيريـن مـن كل ثلاثـة شـهور، ومـن النـوم فيهـما كل ليلـة بغـير عشـاء.

وقـد أورثتـه دعـوة المسـز ويـر لـه أن يلحـق بهـا في لـوسرن، ألمًـا مـرًا. لـوسرن! أفـترى تلـك كانـت حيـاة سـابقة أيـام كان يسـعه أن يسـافر ويجـوب الأرض، ويركـب البحـر، ويتنـزه كـما يحـب، ولا يعنـي نفسـه بحسـاب المـال؟ وارتسـمت لعينـه أماكـن كثـيرة جميلـة رحـل إليهـا، ومناظـر حسـنة كالأحـلام نعـم بهـا، وقـد أصارتهـا شـوارع لنـدن بعيـدة نائيـة، وأشـبه بالصـور الخياليـة منهـا بالحقيقـة، وصـارت السـنوات الثـلاث التـي قضاهـا في لنـدن في البأسـاء والضنـك أطـول فيـما يحـس مـن كل حيـاة الدعـة والخفـض التـي كانـت قبلهـا. لـوسرن! ولـو كانـت طبيعـة المسـتر تمـبرلي أحـد وأقـوى لطـار عقلـه، ولكنـه جعـل يديـر هـذا الخاطـر في نفسـه النهـار كلـه، ولا يعـبر عـن عواطفـه بأكثـر مـن زفـرة أو ابتسـامة حزينـة.

ولمـا كان قـد أصـاب مـن طعـام العشـاء، البارحـة، حظًّـا جزيـلًا، فقـد أحـس أن عليـه أن ينفـق عـلى طعامـه في يومـه أقـل مـن

القدر المألوف، وحوالي الساعة الثامنة مساءً، بعد أن تمشى في ذلك الجو الذي أثنى عليه، عرج على الدكان الذي ألف أن يشتري منه حاجاته القليلة، وكانت فيه امرأة سمينة، فهزت رأسها له بالتحية، وابتسمت لزبون آخر، فانحنى لها المستر تمبرلي، كما هي عادته، ردًّا لتحيتها وقال: «تفضلي بإعطائي بيضة طازجة، وخسة صغيرة.»

فسألته المرأة: «واحدة فقط في هذه الليلة؟»

فقال، وكأنما كان يتحدث في غرفة استقبال: «شكرًا لك، نعم واحدة. وسامحيني إذا أعربت عن الأمل في أن تكون طازجة بأدق معنى للفظ. فإنه يخيل إليّ أن الأخيرة كانت في هذا الصندوق من قبيل الخطأ والسهو، وهو يغتفر بسبب زحمة العمل.»

فقالت المرأة السمينة: «إنها جميعًا سواء، ودائمًا سواء، ولسنا نغلط مثل هذا الغلط.»

فقال: «عفوًا! لعلي توهمت ...»

ووضع البيضة والخسة بعناية في حقيبة صغيرة معه، ورجع إلى البيت، وبعد ساعة من تناول هذه الأكلة، قعد على كرسي مستقيم الظهر يفكر، وإذا بنقر على الباب، ويد

تمتـد إليـه بكتـاب. وكان ينـدر جـدًّا أن يتلقـى رسـالة أو رقعـة، فاضطربـت يـده وهـو يتأمـل الظـرف. وكان أول مـا رآه بعـد أن فـض الرسـالة شـيكًا، فـزاد اضطرابـه، وفتـح الرقعـة ونفسـه تجيش، فـإذا بالرسـالة مـن المسـز ويـر، وفيهـا تقـول:

عزيزي المستر تمبرلي،

بعـد الحديـث الـذي دار بيننـا البارحـة لم أسـتطع إلا أن أفكـر فيـك وفي حيـاة التضحيـة الجميلـة التـي تحياهـا، وقـد قارنـت حيـاة هـؤلاء التعسـاء المسـاكين بحيـاتي التـي لا يسـعني إلا أن أحـس أنهـا مباركـة حافلـة بالمناعـم، وقـد دفعتنـي هـذه الخواطـر إلى الاكتتـاب بقـدر يسـير لأسـاهم في عملـك المجيـد، وإني أعـد هـذا ضربًـا مـن الشـكر لله في اللحظـة التـي أسـافر فيهـا لأقـوم برحلتـي، فأقسـم المبلـغ مـن فضلـك بـين اثنـين أو ثلاثـة ممـن تراهـم أحـق وأولى، أو إذا بـدا لـك أن تهبـه كلـه لواحـد فافعـل. هـذا وإني أتشـبث بالأمـل في أن أراك في لـوسرن. وتحيـاتي إليـك.

وكان المبلـغ خمسـة جنيهـات. فرفـع الشـيك قـرب النافـذة، وتأملـه. وخمسـة جنيهـات تعـد مبلغًـا جسـيمًا إذا اعتبرنـا الحيـاة التـي يحياهـا، وقيـم الأشـياء فيهـا. وتصـور مـا يسـتطيع المـرء أن يفعلـه بقـدر مـن المـال كهـذا! حـذاءاه — اللـذان رقعهـما مرتـين — لم يبـق مـن عمرهمـا إلا القليـل، وبنطلونـه صـار غايـة

في الرثاثـة. وقبعتـه (لشـد مـا عنـي بهـا) هـي التـي جـاء بهـا إلى لنـدن منـذ ثـلاث سـنوات. وقـد أصبحـت حاجتـه شـديدة إلى ثيـاب جديـدة يكتسـيها، مـن رأسـه إلى قدمـه، وفي إسـلنجتون، تُعـد خمسـة جنيهـات فـوق الكفايـة لقضـاء هـذه الحاجـات جميعًـا، ومتـى يتـاح لـه أن يُلقـى إليـه بمبلـغ كهـذا مـرة أخـرى، لينفقـه عـلى هـواه، بـلا حسـاب؟

وتنهد وتلفت في الغسق.

وكان الشـيك مصلبًـا، فـأدرك المسـتر تمـبرلي للمـرة الأولى في حياتـه أن رسـم صليـب عـلى شـيك، قـد يسـبب لمـن يحملـه متاعـب كثـيرة، فكيـف يصرفـه؟ وإنـه ليعـرف أن صاحـب البيـت رجـل ليـس أسرع منـه إلى إسـاءة الظـن، وأخلـق بـأن يكـون الرفـض — مقرونًـا بالنظـرة التـي يُحسـن المسـتر سَـجْز أن يحدج بهـا الإنسـان — مهانـة شـديدة. ثـم إن مـن المشـكوك فيـه جـدًّا أن يسـتطيع المسـتر سـجز أن ينتفـع بهـذا الشـيك. فـإلى مـن يتجـه غـيره؟ لا أحـد في لنـدن كلهـا!

وحـدث نفسـه أن أول مـا ينبغـي أن يصنـع هـو أن يـرد عـلى رسـالة المسـز ويـر. فأضـاء المصبـاح، وجلـس إلى منضـدة صغـيرة، ولكنـه غمـس القلـم في الـدواة عـدة مـرات قبـل أن يسـتطيع أن يكتـب إليهـا شـيئًا.

عزيزتي المسز وير،

وتلت ذلك فترة توقف طويلة حتى بدا كأنه نام، ثم انتفض وانحنى مرة أخرى على الورقة.

أشكرك شكرًا جزيلًا على هذه الهبة الكريمة. وسيوزع المبلغ ...

(وتوقف مرة أخرى دقائق عديدة).

على الوجه الذي أردته، وسأقدم لك بيانًا مفصلًا بوجوه إنفاقه.

ولم يسبق قط أن كابد مثل هذا العسر في الكتابة. وأحس أنه يسيء العبارة جدًّا، عما يريد، وكأنما عوّق ذهنَه عن الدوران شيءٌ، ولم يستطع أن يتم الكتابة إلا بمجهود بدني كبير، فلما فعل خرج واشترى طابعًا وألقى بالرد في صندوق البريد.

ولم ينم في ليلته تلك إلا غرارًا، فما كاد يرقد حتى شرع يفكر في الأمر، وأين وكيف يجد هؤلاء الفقراء الحقيقين بأن يقتسموا هذه الهبة؟ ولم تكن له معرفة بالطبقة التي تعنيها المسز وير، وتتبرع لها. وصحيح أن الأسر التي حوله فقيرة كلها، ولكن هل للفقر عند هؤلاء نفس المعنى الذي يفهمه هو من اللفظ؟ وهل في هذا الشارع القذر من

يحق له — بالقياس إليه هو — أن يُدعى فقيرًا؟ والمتعلم الذي يضطره انتقال الأحوال أن يعيش بين الطبقات الدنيا، تتكون له آراء غريبة. مثال ذلك أن المستر تمبرلي صار يعتقد أن ما يقال عما تقاسيه هذه الطبقات مبالغ فيه لأنه مقيس بمقياس غير صالح، وكان المستر تمبرلي يرى حوله عالمًا من المرح الصاخب، والعمل مع الرضى، وبلادة الحس. وكان يخيل إليه أنه في هذا الحي، هو الوحيد الذي يشعر بالفاقة وبألمها.

وتنبه من إغفاء كالكابوس، على خاطر جلي، وذكرى تشق رأسه شقًا. إلى من يرجع «الفضل» فيما صار إليه من البؤس والفاقة بعد الرفاهة وخصب العيش؟ إلى والد المسز وير! وإذا نظر إلى الأمر من هذه الناحية ألا يكون له أن يعد الشيك ضربًا من التعويض!

وأخذه النعاس لحظة، ثم أفاق وفي رأسه خاطر آخر غريب. أيمكن أن تكون المسز وير (وهي امرأة ذكية) قد شكت في أمره أو وقفت على حقيقته؟ ألا يجوز أن تكون قد أرادت فيما بينها وبين نفسها أن يأخذ هو المال الذي بعثت به.

ولكن هذا الخاطر بدا في الصباح غير مقبول، أو محتمل، وكل ما أثمره هو أنه قوّى في نفسه شعوره بدين المستر تشارمن له. ووثب من الفراش، وتناول الشيك، فظل في

يـده سـاعة، ثـم نهـض وارتـدى ثيابـه.

وبعـد أن أدى عملـه في يومـه خـرج يتمشـى في شـارع كبـير الدكاكـين، فاسـتوقفه دكان حـذاء، فبقـي برهـة غـير قصيرة أمـام الواجهـة، ويـده في جيبـه تعبـث بجنيـه فيـه — ومـا جنيـه بقليـل، مـن المبلـغ الـذي يعيـش بـه إلى أن يجـيء يـوم القبـض — ثـم تخطـى العتبـة. ولم يكـن أقـل منـه حزمًـا أو حكمـة، فقـد فـرغ مـن الأمـر في مثـل لمـح الـبرق، وكان يتكلـم ولا يسـمع مـا يجـري بـه لسـانه، وينظـر إلى الأشـياء ولا يراهـا، وكانـت النتيجـة أنـه لم يـدرك إلا بعـد أن بلـغ بيتـه، وحـذاءاه العتيقـان تحـت إبطـه، أن الحذاءيـن الجديديـن ضيقـان جـدًّا، وأن ضغطهـما شـديد الإيـلام، وكان لهـما أيضًـا أطيـط وصريـف، ألا مـا أعـلى صوتهـما! ولكـن الأحذيـة الجديـدة لا تخلـو مـن أمثـال هـذه المعايـب. ولعلـه نـسي ذلـك لطـول عهـده بالقديـم البـالي. وكان يشـعر بالإعيـاء الشـديد، فتنـاول لقمـة واسـتلقى عـلى سريـره لينـام.

وظـل طـول الليـل يحلـم بالحذاءيـن الجديديـن، وكان يـرى في منامـه أنـه يظلـع في شـوارع مدينـة خياليـة يكمـن لـه بعضهـم فيهـا عنـد كل ركـن وزاويـة، وفي كل مـرة يتبـين أن العـدو المتربـص لـه هـو المسـز ويـر، وكانـت تنظـر إليـه باحتقـار، وتدعـه يمـضي في سـبيله. وكان أطيـط جلـد الحذاءيـن صوتًـا

ناطقًا لا ينفك يصيح به ويعلن إليه اسمًا مرعبًا، فكان يتضاءل، ويتقبض، ويرعش، ويتوجع، ولكنه مع ذلك كان يمضي على سننه وفي يده شيك عليه صليب، يحاول عبثًا أن يجد من يعطيه به مالًا.

ولما استيقظ كان رأسه أثقل من الرصاص، ولكن ذهنه كان صافيًا، وتفكيره مستقيم، فسأل نفسه: ماذا يعني بإنفاق المال على هذا النحو الجنوني مع افتقاره إليه؟ وليت الحذاء الجديد يطاق لبسه؟ أكان ينوي ... يا حفيظ!

ولم يكن المستر تمبرلي من أهل العلم بالنفس الإنسانية، ولكنه فطن بغتة وعلى أجلى صورة، إلى الأزمة النفسية التي كان يعانيها، واطلع بذلك على حقيقة أخرى من حقائق الفقر.

وبعد أن تناول طعام الإفطار نزل ونقر على باب المستر سجز، وكان الرجل يأكل، فسأله، وفمه ملآن: «ماذا تريد؟»

قال: «سيدي، إني أرجو أن تأذن لي في الغياب ساعة أو ساعتين في هذا الصباح، فإن هناك أمرًا له بعض الخطر، يتطلب عنايتي.»

فقال المستر سجز بما عرف عن أهل طبقته من الذوق: «أحسب أن لك أن تصنع ما تشاء، فما أنقدك أجرًا.»

فانحنى المستر تمبرلي وانصرف.

وبعد يومين آخرين كتب رقعة ثانية إلى المسز وير، هذا نصها:

إن المبلغ الذي تفضلت بإرساله إلي وأجبتك بأني تلقيته، قد وزع الآن. وقد رأيت أن الأولى والأمثل أن أسلم الشيك إلى قسيس في هذا الحي، مشفوعًا بأوامر صريحة، وقد دون على الرقعة التي ترينها مع هذه الرسالة، بيانًا بأسماء الذين انتفعوا بهبتك، فعسى أن ترضي عما فعل.

ولكنك قد تسألين، لماذا رأيت أن ألجأ إلى قسيس؟ ولماذا لم أستعن في هذا الأمر بخبرتي وتجاربي، فأفيد الرضى والسرور الحاصلين من مساعدة الفقراء الذين أعني بهم؛ أنا الذي وقفت حياتي على هذا العمل الإنساني النبيل وجعلت من نفسي رسولًا للرحمة؟

والجواب وجيز وسهل. ذلك أني كذبت عليك.

فأنا لا أعيش في هذا الحي بإرادتي الحرة، ولست أقف حياتي على أعمال البر والإنسان. وأنا لست — كلا، بل لم أكن إلا — رجلًا تبين في يوم من الأيام أنه ضيع ماله في مضاربة حمقاء، فاستحى أن يطلع أصدقاءه على ما صار إليه أمره،

فلاذ بحياة العزلة والشقاء، فأنت ترين أني أضفت الجبن إلى سوء الحظ ولن أخبرك كيف كدت أفعل ما هو شر من ذلك.

وأنا أقضي فترة في تعلم حرفة ستمكنني بلا شك من زيادة دخلي فأصبح أحسن حالًا. وإني لأرجو أن تغفري لي ما كان مني، إذا استطعت، وأن تنسيني.

وإني لك يا سيدتي لخادم غير جدير بشيء.

س. ف. تمبرلي

## هوامش

(١) من الصقيع والبرد بالتحريك.

(٢) من طالت عزوبته حتى ما له في الزواج من حاجة.

# هنري هارلاند

## بيت يولالي

هو بيت صغير جميل في رقعة ساحرة من الريف — ركن قلما يغشاه أحد، من بلاد نورمندي، على مقربة من البحر — تكثر فيه البساتين، وتمتد الحقول والمراعي للماشية، وتستقيم الطرق الظليلة.

والمرء لا يسعه إلا أن يستغرب أن يجد هذا البيت قائمًا هنا، فقد كانت البيوت الأخرى مساكن فلاحين أو أكواخ عمال، ولكن هذا كان منزلًا أنيقًا مبيّضًا، وله نوافذ كالأبواب، وشرفات ذات أسوار من حديد فيه صنعة، وستائر من نسج البندقية، منزلًا للهو والمسرة تحيط به حديقة صغيرة

نضيرة، وتعطر جوه الورود والأزهار المنسقة، وترتاح العين إلى الخضرة اليانعة حوله. وكان هناك، مما يلي الحديقة، بستان تقوم فيه صفوف من أشجار التفاح القديمة، وقد مال بعضها على بعض فكأنها كانت ترقص ثم وقفت ولزمت آخر ما كانت عليه من هيئة. وتدير عينك فترى حقولًا منبسطة، من القمح والبقول المنسطحة على الأرض، إلى البحر، وصخورًا بيضاء غير مستوية تستحم في الماء الأخضر، وترى لها ظلالًا لامعة خفّاقة.

ورأيت لوحًا معلقًا على الحائط عليه كتابة ساذجة، أيدت ما علمته من السمسار في «دييب» فصحيح إذن أن البيت للإيجار. وقد ركبت ساعتين طويلتين لأراه، والآن صرت على عتبته، فدققت الجرس. وهو جرس كبير معلق وله مقبض من البرنز مصنوع على هيئة حبل وزر. وخليق بصوته أن يذهب إلى بعيد في هذا الريف الساكن.

وقد ذهب الصوت، على كل حال، إلى مسكن كالكوخ على مسافة مائة ذراع، فخرج منه رجل وامرأة، ووقفا هنيهة ينظران إلى ناحيتي ثم أقبلا نحوي. وكان الرجل شيخًا والمرأة مثله، وكلاهما أسمر. وكان الرجل يلبس ثوبًا غليظًا مفتول الغزل طاقين، وعلى المرأة قبعة من القطن، بيضاء نظيفة، وفوطة زرقاء تلفها على وسطها. وكان خطوهما رويدًا على عادة أهل الريف.

فسألتهما: «السيد والسيدة ليرو؟»

وذلك بعد أن تبادلنا التحيات التمهيدية، وأخبرتهما أني جئت من دييب حيث أنبأني السمسار أن هذا البيت للإيجار، وكانا على ما بدا لي ينتظران مقدمي. فقد أبلغني السمسار أنه سيبلغهما رغبتي.

ولكن لشد ما استغربت إذ رأيت أن هذا الكلام العملي ربكهما! بل يخيل إليّ أنه أورثهما اضطرابًا وأحدث لهما ألمًا. فقد رفعا وجهيهما المغضّنين ونظرا إليّ نظرة القلق، وتبادلا النظرات الواشية بالحيرة، وقبضت المرأة بيد على الأخرى وجعلت أصابعها تتحرك، وتردد الرجل وتلجلج قبل أن يستطيع أن يقول: «جئت لترى البيت يا سيدي؟»

قلت: «نعم، أو لم يكتب إليك السمسار؟ لقد علمت منه أنك تنتظرني في هذه الساعة، اليوم؟»

قال الرجل معترفًا: «نعم، كنا في انتظارك.»

غير أنه لم يفعل شيئًا يتقدم به الأمر خطوة واحدة، وبادل امرأته نظرة حيرة أخرى فهزت رأسها كأنما تريد أن تقول إنه لا حيلة لها وأن الأمر لله، وأطرقت.

وقال الرجل بلهجة من يحاول جلاء الغامض: «شف يا سيدي ... شف ...» ثم تلجلج وزوى ما بين عينيه كأنما يعاني أزم التعبير.

فسألته مقترحًا: «هل استؤجر البيت؟»

فقال: «كلا، لم يؤجر.»

فقالت امرأته أخيرًا بلهجة المكروب ومن غير أن ترفع عينها عن الأرض: «يحسن أن تذهب وتجيء بالمفتاح.»

فانكفأ راجعًا يجر رجليه إلى كوخه، وبقينا نحن واقفين صامتين بجانب الباب، وكانت أصابع يديها المتشابكتين لا تزال تضطرب، وحاولت أن أجرها إلى الحديث، وأفتح لها أبواب الكلام، فأثنيت على موقع البيت وجمال المنظر، فتمتمت موافقتها في رقة ولطف، ولكن بضجر غير خاف. فلم يشجعني هذا على المضي في الكلام.

وعاد إلينا الرجل بالمفتاح، وشرع وامرأته معه يريني البيت، وكان فيه حجرتان جميلتان للجلوس والاستقبال في الطبقة الأرضية، وثالثة للطعام، ومطبخ واسع من الآجر الأحمر المصقول، ومدخنة، وأوعية شتى من النحاس اللامع، وكان المتاع في غرف الجلوس والاستقبال والطعام خفيفًا على الطراز الفرنسي، وكانت النوافذ تفتح على الشمس وعلى أرج الحديقة وخضرتها البهيجة، فأعربت لهما عن سروري وإعجابي بما شاهدت، وإذا بحالتهما تتغير شيئًا فشيئًا، من

الكآبـة، والـتردد، والحـيرة، إلى الاسـتجابة والانـشراح، وصـارا يتلقيـان كلامـي بابتسـام، ويجيبـان عـن أسـئلتي بلهفـة وبإفاضـة. ولكـن الاضطـراب لم يزايلهـما، اضطـراب العاطفـة الجياشـة، وكانـت أيديهـما المعروقـة تختلـج وترتعـش إذ يفتحـان لي الأبـواب والنوافـذ، وينحيـان الأسـتار، وصوتهـما يتهـدج، حتـى ابتسـامهما كان عـن ألم مكنـون؛ فهـو لا يجـاوز السـطح ولا يؤثـر في المطـوي مـن الهـم.

وحدثـت نفـسي أن حاجتهـما ملحـة إلى المـال، وأنهـما عسـى أن يكونـا قـد أنفقـا عـلى هـذا البيـت كل مـا كان عندهمـا، فهـما إذ يجـدان مسـتأجرًا معـذوران إذا اضطربـا.

وقـال الرجـل: «والآن، إذا شـئت يـا سـيدي، تفضـل بنـا إلى فـوق لنريـك غـرف النـوم.»

وكانـت هـذه الغـرف حسـنة التهويـة، تدخـل الـسرور عـلى النفس، وكانـت جدرانهـا مورّقـة، وعـلى نوافذهـا سـتائر قطنيـة مطبوعـة، وأثاثهـا كالمعهـود في حجـرات النـوم الفرنسـية. وكانـت إحداهـا تبـدو كأن هنـاك مـن يسـتعملها، فقـد كان فيهـا متـاع وأشـياء — أشـياء شـخصية — لامـرأة. وكانـت آخـر مـا دخلنـا مـن الغـرف، وهـي مقدمـة وتطـل عـلى البحـر، ورأيـت عـلى المنضـدة فيهـا أمشـاطًا وفرشًـا، وعـلى المكتـب الصغـير أقلامًـا ومحـبرة ومحفظـة، وعـلى الرفـوف كتبًـا مرصوصـة، وعـلى

الصفـة صـورًا شمسـية في إطاراتهـا، وفي الصـوّان ثيابًـا معلقـة، وعـلى الأرض أحذيـة وخفافًـا نظيفـة مرتبـة، وعـلى السريـر حِبسًـا مبسـوطًا، مـن الحريـر الأزرق، وعـلى الحائـط ممـا يـلي السريـر، صليبًـا معلقًـا وإلى جانبـه وعـاء مـن الخـزف فيـه مـاء مقـدس.

فالتفـتُّ إِلى الرجـل وامرأتـه وقلـت: «يظهـر أن هـذه الغرفـة مســكونة.»

فلـم يبـد عـلى السـيدة لـيرو أنهـا سـمعت مـا قلـت، فقـد كانـت شـاخصة لا تطـرف وكانـت شـفتاها متباعدتـين، وعـلى وجههـا سـيماء الضجـر كأنـما يكـون مـن دواعـي سرورهـا أن نفـرغ مـن تجوابنـا في البيـت وطوافنـا بغرفـه، أمـا السـيد لـيرو فرفـع يـده إلى السـقف بإيـماءة غريبـة وقـال: «كلا، إن الغرفـة ليسـت مأهولـة في الوقـت الحـاضر.»

ونزلنـا، وعقدنـا الاتفـاق عـلى أن أتسـلم البيـت للسـكنى مـدة الصيـف، وأن تقـوم السـيدة لـيرو بطبخ الطعـام لي، ووعد السـيد لـيرو أن يركـب إلى دييـب يـوم الأربعـاء ليعـود بي وبحقائبـي.

وفي يـوم الأربعـاء، كنـا عائديـن، ومـضى نصـف سـاعة ونحـن صامتـان، وإذا بالسـيد لـيرو يقـول لي فجـأة: «هـذه الغرفـة يـا سـيدي ... الغرفـة التـي ظننـت أنهـا مأهولـة؟»

فقلت، وقد رأيته يسكت: «نعم ... ما لها؟»

قال: «إن لي اقتراحًا أعرضه عليك.»

وكان يتكلم وبه على ما خيل إلي، خجل، وفي لهجته ما يدل على الإصرار وكانت عينه على أذني حصانه.

فقلت: «هات اقتراحك.»

قال: «إذا وافقت على أن تترك هذه الغرفة على حالها، بما فيها من المتاع، فإني مستعد لنقص الإيجار إذا رضيت أن تدعنا نحتفظ بها كما هي.»

قال ذلك بلهجة المتوسل المتلهف، وزاد عليه: «إنك وحيد، ولا حاجة بك إلى هذه الغرفة، فإن ما يبقى من البيت فوق الكفاية ... أليس كذلك يا سيدي؟»

فوافقت، وقلت له إن في وسعه هو وامرأته أن يحتفظا بالغرفة إذا شاءا.

فقال: «شكرًا لك، وستحفظ لك زوجتي هذا الجميل.»

وعدنا إلى الصمت فترة، قال بعدها: «أنت أول مستأجر لبيتنا، فما أجرناه لأحد من قبل.»

فسألته: «صحيح؟ منذ كم بنيتماه؟»

قال: «أنا بنيته، بنيته منذ خمس أو ست سنوات.» وأمسك ثم قال: «بنيته لبنتي.»

وخفت صوته وهو يقول ذلك، ووقع في نفسي أن هذه ليست سوى فاتحة لشيء يريد أن يفضي به إلي، فقلت أستحثه وأشجعه: «آه! صحيح؟»

فقال: «إنك ترى أي ناس نحن — زوجتي وأنا — فلاحان ... خشنان. ولكن ابنتي يا سيدي»، ووضع يده على ركبتي وحدق في وجهي، «ابنتي كالشفوف رقة.»

ورد عينه إلى حصانه، ولزم الصمت دقيقة أو اثنتين، ثم عاد يقول، وعينه على أذني حصانه لا يرفعها عنهما: «لم يكن في كل هذه الناحية سيدة أرق منها وألطف» — وكان يتكلم بسرعة وبصوت غليظ كأنما يحدث نفسه — «كانت جميلة، ومن أحلى خلق الله طباعًا، ومن أحسن الناس تعليمًا. تربت في الدير، بروان، دير «القلب المقدس» ... ست سنوات قضتها في الدير تتعلم — من الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة. وكانت

تعـرف الإنجليزيـة — لغتـك يـا سـيدي ... ونالـت جوائـز في التاريـخ وفي الموسـيقى. مـا مـن أحـد يحسـن العـزف عـلى البيانـو كـما تحسـنه.» وسـألني فجـأة وبعنـف: «فهـل كان يليـق بهـا كـوخ ريفـي ككوخنـا؟» وأجـاب عـن سـؤاله فقـال: «كلا، يـا سـيدي! فـما يجـوز أن تلـوث الثيـاب الرقيقـة بوضعهـا في صنـدوق قـذر. وقـد كانـت ابنتـي سَـكْبَ مـاءٍ مـن الرقـة، وكانـت يداهـا أنعـم مـن مخمـل «ليـون» وآه! مـن حسـن مشـمهما! أعنـي يديهـا! لقـد كان الطيـب الـذي أجـده في يديهـا ينعشـني. وكنـت ألثمهـما، وأشـمهما كـما تشـم الزهـرة.»

وأخفتـت الذكـرى صوتـه، ومضـت لحظـة أخـرى مـن الصمـت، ثـم عـاد يقـول: «وكنـت كثـير المـال — مدنَّـرًا ومُدرهمـا — وكنـت أغنـى فـلاح في هـذه الناحيـة فبنيـت هـذه الـدار — بناهـا المسـيو كلـير مـون أكـبر مهنـدس في روان، وخريـج مدرسـة الفنـون الجميلـة بباريـس — هـو الـذي شـيد الـدار لابنتـي — بناهـا وأثثهـا، وجعلهـا لائقـة بكونتيسـة. حتـى إذا عـادت مـن الديـر لتقيـم معنـا وجـدت الـدار جديـرة بهـا، انظـر إلى هـذا يـا سـيدي! أتـرى أن أفخـم قصـور العـالم يكـون كثـيرًا عليهـا؟»

وأخـرج كيسًـا قديـمًا مـن الجلـد الأحمـر، وناولنـي منـه صـورة غـادة ناعمـة لينـة في السـابعة عـشرة مـن العمـر، وفي وجههـا قسـامة، وفي معارفهـا عذوبـة ورقـة. وكان الرجـل معلـق الأنفـاس محتبسـها وأنـا أتأمـل الصـورة، ثـم ألـح عـلي يسـألني:

«أليست ظريفة؟ أليست جميلة؟» وكأنه يناشدني أن أعطف عليه وأرق له فأشاركه في ثنائه. وقد أجبت بما وسعني، بخير ما قدرت عليه، فأعاد الصورة بيد مرتعشة إلى كيسها، وأخرج من ناحية أخرى من الكيس بطاقة صغيرة بيضاء، عليها ما اعتاد الفرنسيون أن يحفروه على قبورهم — صورة الصليب، وحمامة — تحتها ما يأتي:

يولالي — جوزفين — ماري ليرو. ولدت في ١٦ مايو/ أيار سنة ١٨٧٤، وتوفيت في ١٢ أغسطس/ آب سنة ١٨٩٢. صلِّ لها.

وقال: «الله يعرف ما هو صانع. لقد بنيت هذه الدار لبنتي، فلما تم تشييدها اختارها الله إلى جواره. وقد ذهب بعقلنا الحزن — زوجتي وأنا — ولكن هذا ما كان ليردها إلينا. وما يدريني؟ لعل عقلنا ما زال مذهوبًا به من الحزن. فما نستطيع أن نفكر في شيء آخر. وما نحب أن نتكلم عن شيء آخر. ولم نستطع أن نعيش في البيت — بيتها — وهي ليست فيه ولم يخطر لنا قط أن نؤجره. لقد بنيته لابنتي، وفرشناه وأثثناه لها، فلما جهّزناه ... ماتت. أليست هذه قسوة يا سيدي؟ وكيف أؤجر البيت للأغراب؟ ولكني منيت في المدة الأخيرة بخسائر، فأنا مضطر أن أؤجر البيت لأقضي ديني. ولكني لا أستطيع أن أؤجره لأي إنسان. وأنت إنجليزي. ولو كنت لم أرتح إليك لما أجرته لك ولا

بمليون من الجنيهات الإنجليزية. ولكني مغتبط بأن كنت أنت المستأجر. وستحترم ذكراها، وستأذن لنا في الاحتفاظ بتلك الغرفة — غرفتها — وسندعها كما هي، بما فيها من الأشياء. نعم، هذه الغرفة التي حسبتها مسكونة، كانت غرفة بنتي.»

وكانت السيدة ليرو تنتظرنا في الحديقة، فرفعت عينها إلى زوجها مستفسرة فهز رأسه وقال: «كل شيء على ما يرام. السيد موافق.»

فتناولت المرأة يدي وهزتها هزًّا عنيفًا وقالت: «آه يا سيد! إنك رجل طيب.» ورفعت عينيها إليّ ولكني لم أستطع أن أنظر فيهما، فقد كان الحزن الذي يطالعني من نظرتهما أهول وأقدس من أن أمتهنه بالنظر إليه.

•••

وصرنا أصدقاء أصفياء، في الشهور الثلاثة التي قضيتها في البيت. وكانت السيدة ليرو تتعهدني، وترعاني، وتبرني وتسرني، كأنها أمي. وكان كلاهما — كما قال السيد ليرو — يؤثر أن يجعل ابنته موضوع حديثه، وكنت أصغي إليهما بغير نفور أو ملل، فقد كان في حزنهما عليها، ودوام تفكيرهما فيها جمال عميق الوقع في النفس، وكان يخيل إلي أن طيف

الفتاة يرود البيت، البيت الذي بناه لها الحب وهو لا يدري أن الموت سيعدو عليها ويغولها منه، وكانت المرأة لا تمل أن تقول لي: «آه يا سيدي، إن من بواعث السرور لنا أن تركت لنا غرفتها.» وقد صعدت بي مرة إلى الغرفة، وأرتني ثياب يولالي، وحليها، وكتبها المجلدة الجميلة التي فازت بها تجزية لها، على اجتهادها في الدير. وفي يوم آخر أطلعتني على رسائل يولالي وسألتني عن خطها أليس جميلًا؟ وعن عبارتها أليست حسنة؟ وعرضت عليّ صورًا لها في كل سن، وخصلة من شعرها وملابسها في حداثتها، وشهادة الأسقف، ورسائل من راهبات «القلب المقدس» بروان، تصف تقدم يولالي في الدرس والتحصيل، وتطري سلوكها وأخلاقها، وكانت المرأة ربما غلبها الحزن فتقول، وكأنها لا تصدق ما حاق بها من الفقدان، وما منيت به من الخسارة: «وتصور أنها ذهبت! تصور هذا!» ثم تعود فتقول همسًا بلهجة الاستسلام لقضاء الله: «إنه هو أدرى بما يصنع!» وترسم الصليب على صدرها!

وفي الثاني عشر من أغسطس — يوم ذكرى وفاتها — صحبتهما إلى كنيسة القرية حيث أقيمت الصلاة على روح يولالي، وبعد انتهائها جاء القسيس الطيب إليهما وضغط يديهما، ورفه عنهما بكلمات عذاب.

وفي سبتمبر/ أيلول بارحت البيت عائدًا إلى دييب. واتفق

عصر يوم أن التقيت في الطريق الأعظم لهذه المدينة بقسيس القرية، فوقفت معه قليلًا نتحدث عن ليرو وامرأته، وطيب نفسيهما، وحزنهما على ابنتهما فقال القسيس: «لقد كان حبهما لها شيئًا فوق الحب. كان عبادة، وتأليهًا. وما رأيت في حياتي الطويلة مثل هذا أو ما يقرب منه. وقد خفت عليهما، لما قضت نحبها، أن يذهب عقلهما. فقد كانا مذهولين ... غائبين عن الوعي. ولبثا مدة طويلة كالمجنونين. ولكن الله رحيم، فقد تعلما أن يعيشا ومعهما مصابهما.»

فقلت: «إن في احتفاظهما بذكراها، وعبادتهما لها، لجمالًا. وما أظن بك إلا أنك تعرف أنهما أبقيا غرفتها وفيها أشياءها، كما تركتها ... هذا فيما أرى جميل ... رائع.»

فسألني القسيس، وهو غير فاهم: «غرفتها؟ أية غرفة؟»

فقلت متعجبًا: «أوه، أَوَلم تكن تعرف؟ غرفة نومها في البيت. احتفظا بها كما هي، أشياءها، وكتبها، وملابسها.»

فقال القسيس: «لا أظن أني فاهم. فما كان لها قط غرفة نوم في هذا البيت.»

فقلت: «عفوًا. إحدى الغرف المقدمة في الطبقة الثانية كانت غرفتها.»

فهز رأسه وقال: «هنا بعض الخطأ، فما نزلت قط في هذا البيت، لأنها ماتت في البيت القديم. وكان البيت الجديد لم يكد يتم تشييده. العمال لم يكونوا قد خرجوا منه.»

فقلت: «كلا، لا بد أن تكون أنت المخطئ، ويظهر أنك ناس. فإني على يقين من الأمر، وقد حدثني ليرو وامرأته بهذا مرات لا يأخذها حصر.»

فأصر القسيس على زعمه وقال: «ولكن يا سيدي العزيز، إني لست واثقًا فقط بل أنا أعلم. فقد حضرت وفاتها، وكنت إلى جانبها وهي تجود بنفسها، وقد ماتت في البيت القديم. وكانا لم ينتقلا إلى الدار الجديدة، وكانت الدار لا تزال تؤثث وتجهز، وقد وضعت فيها آخر قطع الأثاث قبل وفاتها بيوم. ولم يسكن أحد هذه الدار قبلك. أنت أول ساكن لها. وإني أؤكد لك هذا.»

فقلت: «إن هذا أمر غريب جدًّا.»

وساورتني الحيرة دقيقة، فلم أهتد على حل لهذا اللغز، ولكن حيرتي لم تطل أكثر من دقيقة، قلت بعدها: «فهمت. فهمت.»

فهمت، ورأيت، وأدركت كيف غالط هذان المنكوبان نفسيهما، وخلقا لهما وهمًا يتعزيان به، فقد بنيا الدار

لابنتيهما، فلما اكتملت الدار وتجهزت ماتت الفتاة. ولكنهما لم يطيقا أن يتصورا أن لا تعيش في هذه الدار وتنعم بها ولو أسبوعًا واحدًا، بل ولو يومًا واحدًا، أو حتى ساعة مفردة! عجزا عن احتمال هذا الحرمان. ولم يستطع قلباهما الثاكلان أن يعترفا به، فأغمضا عيونهما حتى لا يريا ما يصنعان، وحملا متاع الفتاة الميتة في خشوع، إلى الغرفة التي أرادا أن يفرداها لها، ورتباها فيها، وقالا لنفسيهما بإلحاح: «هذه كانت غرفتها. هذه كانت غرفتها.» ليتقرر في روعهما بالإيحاء، وأبيا أن يصدقا النفس، أبيا أن يسمحا بأن يجري في خاطرهما أنها لم تنم فيها ولم تنعم بها ولا ليلة واحدة. أوحيا إلى نفسيهما هذه الأكذوبة الجميلة، هذه الخدعة الكريمة الرحيمة كأنهما طفلان يصدقان ما يتخيلان وهما يلعبان. وقد قالها القسيس: «الله رحيم! فقد استطاعا أن يخلطا كذبتهما الجميلة بالحقيقة، وأن يجدا في هذا عزاءهما، ووسعهما أن ينسيا أن ما غالطا به نفسيهما ليس أكثر من خدعة، ووهم وباطل ليس يجدي، وأن يعدا الأمر كله حقيقة يستمدان منها السلوان والصبر الجميل، وبهذا وقاهما الله أن يتقاضاهما الحزن آخر مجهودهما. فبقيت لهما هذه السلوة، فهي كنز لهما — كنز أنفس وأجدى من الذهب الإبريز.»

الباطل؟ — الحق؟ أحسب أن هناك أوهامًا ليست من الأباطيل — وإنما هي ابتسامات من الحق رحمة بنا، وعطفًا علينا.